❋ ❋ ❋

تفسير سورة القمر

وهي مكية. قد تقدم في حديث أبي واقد: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة، في الأضحى والفِطْر، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها. كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١] وقد وردت الأحاديث بذلك، قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى وعمرو بن علي قالا: حدثنا خلف بن موسى، حدثني أبي، عن قتادة، عن أنس، أن رسول الله ﷺ خَطَب أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس أن تغرب فلم يبق منها إلا شِفٌّ يسير، فقال: «والذي نفسي بيده، ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه، وما نرى من الشمس إلا يسيراً». قلت: هذا حديث مداره على خلف بن موسى بن خلف العَمِّيّ، عن أبيه. وقد ذكره ابن حِبَّان في الثقات، وقال: ربما أخطأ. حديث آخر يعضد الذي قبله ويفسره، قال الإمام أحمد: حدثنا الفضل بن دُكَين، حدثنا شريك، حدثنا سلمة بن كُهَيْل، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ والشمس على قُعَيْقِعان بعد العصر، فقال: «ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من النهار فيما مضى».

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا محمد بن مُطَرِّف، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعِثْتُ والساعة هكذا». وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى. أخرجاه من حديث أبي حازم سلمة بن دينار. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عُبَيد، حدثنا الأعمش، عن أبي خالد، عن وهب السُّوَائي قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقها» وجمع الأعمش بين السبابة والوسطى. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأوزاعي، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، قال: قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك فسأله: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ يذكر به الساعة؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنتم والساعة كهاتين». تفرد به أحمد، رحمه الله. وشاهد ذلك أيضاً في الصحيح في أسماء رسول الله ﷺ: أنه الحاشر الذي يُحْشَرُ الناس على قدميه. وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهْزُ بن أسد، حدثنا سليمان بن المغيرة، حدثنا حميد بن هلال، عن خالد بن عمير قال: خطب عتبة بن غَزْوَان ـ قال بهز: وقال قبل هذه المرة ـ خطبنا رسول الله ﷺ قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بَصرْمٍ وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صُبَابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقَى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ما يدرك لها قعراً، والله لتملؤنه، أفعجبتم! والله لقد ذكر لنا أن ما بين مِصْرَاعَي الجنة مسيرة أربعين عاماً، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ الزحام» وذكر تمام الحديث، انفرد به مسلم.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثني ابن عُلَيَّةَ، أخبرنا عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي قال: نزلنا المدائن فكنا منها على فَرْسَخ، فجاءت الجمعة، فحضر أبي وحضرت معه، فخطبنا حذيفة، فقال: ألا إن الله يقول: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار، وغداً السباق، فقلت لأبي: أيستبق الناس غداً؟ فقال: يا بني، إنك لجاهل، إنما هو السباق بالأعمال. ثم جاءت الجمعة الأخرى فحضرنا فخطب حذيفة، فقال: ألا إن الله، ﷻ، يقول: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾، ألا وإن

الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق، ألا وإن الغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة. وقوله: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾: قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: «خمس قد مضين: الروم، والدخان، واللزام، والبطشة، والقمر». وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك:

رواية أنس بن مالك: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾. ورواه مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق. وقال البخاري: حدثني عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبة عن قتادة، عن أنس بن مالك؛ أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شِقَّين، حتى رأوا حِرَاء بينهما. وأخرجاه أيضاً من حديث يونس بن محمد المؤدّب، عن شيبان، عن قتادة. ورواه مسلم أيضاً من حديث أبي داود الطيالسي، ويحيى القطان، وغيرهما، عن شعبة، عن قتادة، به.

رواية جبير بن مطعم، رضي الله عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سليمان بن كثير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه، وأسنده البيهقي في «الدلائل» من طريق محمد بن كثير، عن أخيه سليمان بن كثير، عن حصين بن عبد الرحمن، به. وهكذا رواه ابن جرير من حديث محمد بن فضيل وغيره، عن حصين، به. ورواه البيهقي أيضاً من طريق إبراهيم بن طَهْمَان وَهُشَيْم، كلاهما عن حُصَين، عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده فذكره.

رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا بكر، عن جعفر، عن عِرَاك بن مالك، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ. ورواه البخاري أيضاً ومسلم، من حديث بكر بن مضر، عن جعفر بن ربيعة، عن عِرَاك بن مالك، به مثله. وقال ابن جرير: حدثنا ابن مثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود بن أبي هند، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شقيه. وروى العَوْفي، عن ابن عباس نحو هذا. وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن عمرو البزار، حدثنا محمد بن يحيى القُطَعي، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ابن جريج، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كُسِفَ القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: سُحِر القمر. فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾.

رواية عبد الله بن عمر: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي قالا: حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدّوري، حدثنا وهب بن جرير، عن شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فِلْقَتَين: فِلْقَة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد». وهكذا رواه مسلم والترمذي، من طرق عن شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، به. قال مسلم كرواية مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود. وقال الترمذي: حسن صحيح.

رواية عبد الله بن مسعود: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن أبي مَعْمَر، عن ابن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا». وهكذا رواه البخاري ومسلم، من حديث سفيان بن عيينة، به. وأخرجاه من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر عبد الله بن سَخْبَرَة، عن ابن مسعود، به. وقال ابن جرير: حدثني عيسى بن عثمان بن عيسى الرملي، حدثنا عمي يحيى بن عيسى، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن رجل، عن عبد الله، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمنى فانشق القمر، فأخذت فرقة خلف الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا، اشهدوا». قال البخاري: وقال أبو الضحى، عن مسروق عن عبد الله: بمكة. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا أبو عوانة، عن المغيرة، عن أبي الضُّحَى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة. قال: فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السُّفَّار، فإن محمداً لا يستطيع أن

يسحر الناس كلهم. قال: فجاء السفّار فقالوا: ذلك. وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا العباس ابن محمد الدُّوري، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا هُشَيْم، حدثنا مغيرة، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله، قال: انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين، فقال كفار قريش أهل مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبي كَبْشَة، انظروا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سِحْرٌ سحركم به. قال: فسئل السفار، قال: وقدموا من كل وجهة، فقالوا: رأيناه. رواه ابن جرير من حديث المغيرة، به، وزاد: فأنزل الله ﷻ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾. ثم قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، أخبرنا أيوب، عن محمد ـ هو ابن سيرين ـ قال: نبئت أن ابن مسعود، رضي الله عنه، كان يقول: لقد انشق القمر. وقال ابن جرير أيضاً: حدثني محمد بن عمارة، حدثنا عمرو بن حماد، حدثنا أسباط، عن سِمَاك، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبد الله، قال: لقد رأيت الجبل من فَرْج القمر حين انشق. ورواه الإمام أحمد عن مُؤَمَّل، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبد الله، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، حتى رأيتُ الجبل من بين فرجتي القمر. وقال ليث، عن مجاهد: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «اشهد يا أبا بكر». فقال المشركون: سُحِر القمر حتى انشق. وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾ أي: دليلاً وحجة وبرهاناً ﴿يُعْرِضُوا۟﴾ أي: لا ينقادون له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم، ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ويقولون: هذا الذي شاهدناه من الحجج، سحر سحرنا به. ومعنى ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ذاهب. قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما، أي: باطل مضمحل، لا دوام له. ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقلهم. وقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ قال قتادة: معناه: أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر. وقال ابن جريج: مستقر بأهله. وقال مجاهد: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: يوم القيامة. وقال السدي: ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: واقع. وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أي: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل، وما حل بهم من العذاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم في هذا القرآن، ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب. وقوله: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ أي: في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله، ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ يعني: أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضون ويقولون: هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم، ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي: إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء، بل و الزلازل والأهوال، ﴿خاشعاً أبصارهم﴾ أي: ذليلة أبصارهم، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ وهي: القبور، ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي: كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ في الآفاق؛ ولهذا قال: ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين ﴿إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ بقول، لا يخالفون ولا يتأخرون، ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: يوم شديد الهول عبوس قمطرير ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدثر: ٩ ـ ١٠].

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾.

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ أي: صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون، ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ قال مجاهد: ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: استطير جنوناً. وقيل: ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: انتهروه وزجروه وأوعدوه: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ۝١١٦﴾ [الشعراء: ١١٦]. قاله ابن زيد، وهذا متوجه حسن. ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾ أي: إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ أنت لدينك. قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١﴾. قال السدي: هو الكثير ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: نبعت جميعُ أرجاء الأرض، حتى التنانير التي هي محال النيران نبعت عيوناً، ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي: من السماء ومن الأرض ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: أمر مقدر. قال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١﴾:

كثير، لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده، ولا من السحاب؛ فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماءان على أمر قد قدر. وروى ابن أبي حاتم أن ابن الكَوَّاء سأل علياً عن المجرة فقال: هي شرج السماء، ومنها فتحت السماء بماء منهمر. ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾. قل ابن عباس، وسعيد بن جبير، والقرظي، وقتادة، وابن زيد: هي المسامير، واختاره ابن جرير، قال: وواحدها دسار، ويقال: دَسير، كما يقال: حبيك وحباك، والجمع حُبُك. وقال مجاهد: الدسر: أضلاع السفينة. وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذي يضرب به الموج. وقال الضحاك: الدسر: طرفها وأصلها. وقال العَوْفي، عن ابن عباس: هو كَلْكَلُها. وقوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح، عليه السلام. وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ قال قتادة: أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة. والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس: ٤١ ـ ٤٢]. وقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: فهل من يتذكر ويتعظ؟

قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الأسود، عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، مُدَّكر أو مُذَّكر؟ قال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿مُّدَّكِرٍ﴾. وهكذا رواه البخاري: حدثنا يحيى، حدثنا وَكِيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله قال: قرأت على النبي ﷺ: ﴿فهل من مذكر﴾. فقال النبي ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. وروى البخاري أيضاً من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن الأسود، عن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. وقال: حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا زُهَير، عن أبي إسحاق؛ أنه سمع رجلاً يسأل الأسود: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، أو: ﴿مذكر﴾؟ قال: سمعت عبد الله يقرأ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ دالاً. وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث أبي إسحاق. وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ أي: كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ولم يتعظ بما جاءت به نُذُري، وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالثأر. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراده، ليتذكر الناس. كما قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧]. قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني: هَوَّنّا قراءته. وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن. وقال الضحاك، عن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله، ﷻ. قلت: ومن تيسيره، تعالى، على الناس تلاوة القرآن ما تقدّم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف». وأوردنا الحديث بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنة. وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يَسَّر الله حفظه ومعناه؟ وقال محمد بن كعب القرظي: فهل من منزجر عن المعاصي؟ وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن رافع، حدثنا ضَمْرَة، عن ابن شَوْذَب، عن مَطَر ـ هو الوراق ـ في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: هل من طالب علم فَيُعَان عليه؟ وكذا علقه البخاري بصيغة الجزم، عن مطر الوراق وكذا رواه ابن جرير، وروى عن قتادة مثله.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عاد قوم هود: إنهم كذبوا رسولهم أيضاً، كما صنع قوم نوح، وأنه تعالى أرسل ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، وهي الباردة الشديدة البرد، ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أي: عليهم. قاله الضحاك، وقتادة، والسّدّي. ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾: عليهم نحسه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي. وقوله: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فتثلغ رأسه فيبقى جثة بلا رأس؛ ولهذا قال: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً، ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾، يقولون: لقد خبنا

وخسرنا إن سلمنا كُلّنا قيادنا لواحد منا! ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي: متجاوز في حد الكذب. قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: اختباراً لهم؛ أخرج الله لهم ناقة عظيمة عُشراء من صخرة صَمّاء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح، عليه السلام، فيما جاءهم به. ثم قال آمراً لعبده ورسوله صالح: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ أي: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم، فإن العاقبة والنصر لك في الدنيا والآخرة، ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يوم لهم ويوم للناقة؛ كقوله: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥]. وقوله: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾: قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن. ثم قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾: قال المفسرون: هو عاقر الناقة، واسمه قُدار بن سالف، وكان أشقى قومه. كقوله: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾﴾ [الشمس: ١٢]، ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ أي: فَجَسر ﴿فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ أي: فعاقبتهم، فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي؟ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ أي: فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخَمَدوا وهَمَدوا كما يهمد يَبِيس الزرع والنبات. قاله غير واحد من المفسرين. والمحتظر ـ قال السدي ـ: هو المرعى بالصحراء حين ييبس وتحرق ونسفته الريح. وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حِظَاراً على الإبل والمواشي من يَبِيس الشوك، فهو المراد من قوله: ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾: هو التراب المتناثر من الحائط. وهذا قول غريب، والأول أقوى، والله أعلم.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين؛ ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يُهلكه أمةً من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل، عليه السلام، فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عَنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأتبعت بحجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال هاهنا. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ وهي: الحجارة، ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ أي: خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسَسْه سوء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ أي: ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه وتماروا به، ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾، وذلك ليلة ورَدَ عليه الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل في صورة شباب مُرد حسان محنةً من الله بهم، فأضافهم لوط عليه السلام وبعثت امرأته العجوز السوءُ إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يُهرَعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط، عليه السلام، يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه، ويقول لهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعني: نساءهم، ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١] ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: ليس لنا فيهن أرَب، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل، عليه السلام، فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم. يقال: إنها غارت من وجوههم. وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطاً، عليه السلام، إلى الصباح. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾ أي: لا محيد لهم عنه، ولا انفكاك لهم منه، ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه أنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا، والنذارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة، فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، أي: فأبادهم الله ولم يُبق منهم مخبراً ولا عيناً ولا أثراً. ثم قال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ أي: أيها المشركون من كفار قريش ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ يعني: من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بالكتب: أأنتم خير أم أولئك؟ ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: أم معكم من الله براءة ألا ينالكم عذاب ولا نكال؟ ثم قال مخبراً عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي: يعتقدون أنهم مناصرون بعضهم بعضاً،

وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء، قال الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: سيتفرق شملهم ويغلبون. قال البخاري: حدثنا إسحاق؛ حدثنا خالد، عن خالد ـ وقال أيضاً: حدثنا محمد، حدثنا عفان بن مسلم، عن وُهيب، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال ـ وهو في قبة له يوم بدر ـ: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً». فأخذ أبو بكر، رضي الله عنه، بيده وقال: حسبك يا رسول الله! ألححت على ربك. فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾. وكذا رواه البخاري والنسائي في غير موضع، من حديث خالد ـ وهو مِهران الحذاء ـ به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الربيع الزَّهراني، حدثنا حماد، عن أيوب، عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ قال: قال عمر: أيّ جَمْع يهزم؟ أيّ جَمْع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ فعرفت تأويلها يومئذ. وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف؛ أن ابن جُرَيج أخبرهم: أخبرني يوسف بن ماهَكَ قال: إني عند عائشة أم المؤمنين، قالت: نزل على محمد ﷺ بمكة ـ وإني لجارية ألعب ـ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ هكذا رواه هاهنا مختصراً. ورواه في فضائل القرآن مطولاً، ولم يخرجه مسلم.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾.

يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق، وسُعُر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق. ثم قال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: كما كانوا في سُعُر وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلالاً، سُحبوا فيها على وجوههم، لا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾. وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾، كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] وكقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣]، أي: قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه؛ ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمةُ السنة على إثبات قَدَر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها، وردّوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرْقة القَدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة. وقد تكلمنا على هذا المقام مفصلاً، وما ورد فيه من الأحاديث في شرح «كتاب الإيمان» من «صحيح البخاري»، رحمه الله، ولنذكر هاهنا الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة: قال أحمد: حدثنا وَكيع، حدثنا سفيان الثوري، عن زياد بن إسماعيل السهمي، عن محمد بن عباد بن جعفر، عن أبي هُرَيرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾. وهكذا رواه مسلم والترمذي وابن ماجه، من حديث وكيع، عن سفيان الثوري، به. وقال البزار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا الضحاك بن مَخْلَد، حدثنا يونس بن الحارث، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: ما نزلت هذه الآيات: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾، إلا في أهل القدر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سهل بن صالح الأنطاكي، حدثني قُرَّةُ بن حبيب، عن كنانة، حدثنا جرير بن حازم، عن سعيد بن عمرو بن جَعْدَةَ، عن ابن زُرارة، عن أبيه، عن النبي ﷺ؛ أنه تلا هذه الآية: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾، قال: «نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان يكذبون بقدر الله». وحدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا مَرْوان بن شجاع الجزَري، عن عبد الملك بن جُرَيْج، عن عطاء ابن أبي رَبَاح، قال: أتيت ابن عباس وهو يَنْزِع من زمزم، وقد ابتلّت أسافل ثيابه، فقلت له: قد تُكُلِّم في القدر. فقال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾، أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم، ولا تُصلّوا على موتاهم، إن رأيت أحداً منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين.

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر، وفيه مرفوع، فقال: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأوزاعي، عن بعض إخوته، عن محمد بن عُبَيد المكي، عن عبد الله ابن عباس، قال: قيل له: إن رجلاً قدم علينا يُكَذِّب بالقدر فقال: دلوني عليه ـ وهو أعمى ـ قالوا: وما تصنع به يا أبا عباس قال: والذي نفسي بيده لئن استمكنت منه لأعضَّنّ أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته في يدي لأدقنها؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كأني بنساء بني فِهرٍ يَطُفْنَ بالخزرج، تصطفق ألياتهن مشركات، هذا أول شرك

هذه الأمة، والذي نفسي بيده، لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قدّر خيراً، كما أخرجوه من أن يكون قدر شراً». ثم رواه أحمد عن أبي المغيرة، عن الأوزاعي، عن العلاء بن الحجاج، عن محمد بن عبيد، فذكر مثله. لم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني أبو صخر، عن نافع قال: كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه، فكتب إليه عبد الله بن عمر: إنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر، فإياك أن تكتب إليّ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر». رواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل، به. وقال أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثنا عمر بن عبد الله مولى غُفْرَة، عن عبد الله بن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لكل أمة مجوس، ومجوس أمتي الذين يقولون: لا قدر. إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم». لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه. وقال أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا رِشْدِين، عن أبي صخر حُمَيد بن زياد، عن نافع، عن ابن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في هذه الأمة مسخ، ألا وذاك في المكذبين بالقدر والزنديقية». ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث أبي صخر حميد بن زياد، به. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. وقال أحمد: حدثنا إسحاق بن الطباع، أخبرني مالك، عن زياد بن سعد، عن عمرو بن مسلم، عن طاوس اليماني قال: سمعت ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس». ورواه مسلم منفرداً به، من حديث مالك. وفي الحديث الصحيح: «استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قدّر الله وما شاء فعل، ولا تقل: لو أني فعلت لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان». وفي حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال له: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لم يكتبه الله لك، لم ينفعوك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يكتبه الله عليك، لم يضروك. جفت الأقلام وطويت الصحف».

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن سَوَّار، حدثنا الليث، عن معاوية، عن أيوب بن زياد، حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة، حدثني أبي قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهد لي. فقال: أجلسوني. فلما أجلسوه قال: يا بني، إنك لم تطعم طعم الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم. ثم قال له: اكتب. فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» يا بني، إن مت ولست على ذلك دخلت النار. ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى البَلْخِي، عن أبي داود الطيالسي، عن عبد الواحد بن سليم، عن عطاء بن أبي رباح، عن الوليد بن عبادة، عن أبيه، به. وقال: حسن صحيح غريب.

وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن رِبْعِي بن خِرَاش، عن رجل، عن علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره». وكذا رواه الترمذي من حديث النضر بن شُمَيْل، عن شعبة عن منصور، به. ورواه من حديث أبي داود الطيالسي، عن شعبة، عن منصور عن ربعي، عن علي فذكره وقال: «هذا عندي أصح». وكذا رواه ابن ماجه من حديث شريك، عن منصور، عن ربعي، عن علي، به. وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره، عن أبي هانىء الخولاني، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلى، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» زاد ابن وهب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]. ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب. وقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾. وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أي: إنما نأمر بالشيء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إذا ما أرادَ الله أمراً فإنما ... يقولُ لهُ: كُنْ، قَوْلةً فيكونُ

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ يعني: أمثالكم وسلفكم من الأمم السالفة المكذبين بالرسل، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدر لهم من العذاب، كما قال: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤]. وقوله: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة، عليهم السلام ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أي: من أعمالهم ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ أي: مجموع عليهم، ومسطر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا سعيد بن مسلم بن بانك: سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير، حدثني عوف بن

الحارث ـ وهو ابن أخي عائشة لأمها ـ عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً». ورواه النسائي وابن ماجه، من طريق سعيد بن مسلم بن بانك المدني. وثقه أحمد، وابن معين، وأبو حاتم، وغيرهم. وقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سعيد بن مسلم هذا من وجه آخر، ثم قال سعيد: فحدثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لي: ويحك يا سعيد بن مسلم. لقد حدثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره، فأتاه آت في منامه فقال له: يا سليمان:

لا تَحْقِرنَّ من الذنوبِ صَغِيراً ... إن الصَّغِير غداً يعود كبيراً
إن الصغير ولو تقادم عهده ... عند الإله مُسَطَّرٌ تسطيرا
فازجر هواك عن البطالة لا تكن ... صعب القياد وشمرن تشميرا
إن المُحِبَّ إذا أحب إلهَهُ ... طار الفؤاد وأُلْهِم التفكيرا
فاسأل هدايتك الإله بِنِيَّة ... فَكَفَى بِرَبِّكَ هادياً ونصيرا

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر، والسحب في النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد. وقوله: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه، ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون؛ وقد قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن أوس، عن عبد الله بن عمرو ـ يَبلُغُ به النبي ﷺ ـ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا». انفرد بإخراجه مسلم والنسائي، من حديث سفيان بن عيينة، بإسناده مثله.

آخر تفسير سورة «اقتربت»،
ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة

❁ ❁ ❁

(٥٤) سُورَةُ الْقَمَرِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ أول السورة مناسب لآخر ما قبلها ، وهو قوله (أزفت الازفة) فكأنه أعاد ذلك مع الدليل ، وقال قلت (أزفت الآزفة) وهو حق ، إذ القمر انشق ، والمفسرون بأسرهم على أن المراد أن القمر انشق ، وحصل فيه الانشقاق ، ودلت الأخبار على حديث الانشقاق ، وفي الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة ، وقالوا سئل رسول الله ﷺ آية الانشقاق بعينها معجزة ، فسأل ربه فشقه ومضى ، وقال بعض المفسرين : المراد سينشق ، وهو بعد ، ولا معنى له ، لأن من منع ذلك وهو الفلسفي يمنعه في الماضي والمستقبل ، ومن يجوزه لا حاجة إلى التأويل ، وإنما ذهب إليه ذلك الذاهب ، لأن الانشقاق أمر هائل ، فلو وقع لعم وجه الأرض وكان ينبغي أن يبلغ حد التواتر ، نقول النبي ﷺ لما كان يتحدى بالقرآن ، وكانوا يقولون : إنا نأتي بأفصح مايكون من الكلام ، وعجزوا عنه ، فكان القرآن معجزة باقية إلى قيام القيامة لا يتمسك بمعجزة أخرى فلم ينقله العلماء بحيث يبلغ حد التواتر . وأما المؤرخون فتركوه ، لأن التواريخ في أكثر الأمر يستعملها المنجم ، وهو لما وقع الأمر قالوا بأنه مثل خسوف القمر ، وظهور شيء في الجو على شكل نصف القمر في موضع آخر فتركوا حكايته في تواريخهم ، والقرآن أدل دليل وأقوى مثبت له ، وإمكانه لا يشك فيه ، وقد أخبر عنه الصادق فيجب اعتقاد وقوعه ، وحديث امتناع الخرق والالتئام حديث اللئام ، وقد ثبت جواز الخرق والتخريب على السموات ، وذكرناه مراراً فلا نعيده .

قوله تعالى : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ تقديره : وبعد هذا إن يروا آية يقولوا سحر ، فإنهم رأوا آيات أرضية ، وآيات سماوية ، ولم يؤمنوا ، ولم يتركوا عنادهم ، فإن يروا ما يرون بعد هذا لا يؤمنون ، وفيه وجه آخر وهو أن يقال : المعنى أن عادتهم أنهم إن يروا آية يعرضوا ، فلما رأوا انشقاق القمر أعرضوا لتلك العادة ، وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله (آية) ماذا ؟ نقول آية اقتراب الساعة ، فإن انشقاق القمر من آياته ، وقد ردوا وكذبوا ، فإن يروا غيرها أيضاً يعرضوا ، أو آية الانشقاق فإنها معجزة ، أما كونها معجزة ففي غاية الظهور ، وأما كونها آية الساعة ، فلأن منكر خراب العالم ينكر انشقاق السماء وانفطارها وكذلك قوله في كل جسم سماوي من الكواكب ، فإذا انشق بعضها ثبت خلاف ما يقول به ، وبان جواز خراب العالم ، وقال أكثر المفسرين : معناه أن من علامات قيام الساعة انشقاق القمر عن قريب ، وهذا ضعيف حملهم على هذا القول ضيق المكان ، وخفاء الأمر على الأذهان ، وبيان ضعفه هو أن الله تعالى لو أخبر في كتابه أن القمر ينشق ، وهو علامة قيام الساعة ، لكان ذلك أمراً لابد من وقوعه مثل خروج دابة الأرض ، وطلوع الشمس من المغرب ، فلا يكون معجزة النبي ﷺ ،كما أن هذه الأشياء عجائب ، وليست بمعجزة للنبي ، لا يقال الإخبار عنها قبل وقوعها معجزة ، لأنا نقول فحينئذ يكون هذا من قبيل الإخبار عن الغيوب ، فلا يكون هو معجزة برأسه وذلك فاسد ، ولا يقال بأن ذلك كان معجزة وعلامة ، فأخبر الله في الصحف والكتب السالفة أن ذلك يكون معجزة للنبي ﷺ وتكون الساعة قريبة حينئذ ، وذلك لأن بعثة النبي ﷺ علامة كائنة حيث قال « بعثت أنا والساعة كهاتين » ولهذا يحكى عن سطيح أنه لما أخبر بوجود النبي صلى الله عليه وسلم قال عن أمور تكون ، فكان وجوده دليل أمور ، وأيضاً القمر لما انشق كان انشقاقه عند استدلال النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين ، وهم كانوا غافلين عما في الكتب ، وأما أصحاب الكتب فلم يفتقروا إلى بيان علامة الساعة ، لأنهم كانوا يقولون بها وبقربها ، فهي إذن آية دالة على جواز تخريب السموات وهو العمدة الكبرى ، لأن السموات إذا طويت وجوز ذلك ، فالأرض ومن عليها لا يستبعد فناؤهما ، إذا ثبت هذا فنقول : معنى (اقتربت الساعة) يحتمل أن يكون في العقول والأذهان ، يقول من يسمع أمراً لا يقع هذا بعيد مستبعد ، وهذا وجه حسن ، وإن كان بعض ضعفاء الأذهان ينكره ، وذلك لأن حمله على قرب الوقوع زماناً لا إمكاناً يمكن الكافر من مجادلة فاسدة ، فيقول قال الله تعالى في زمان النبي ﷺ (اقتربت) ويقولون بأن من قبل أيضاً في الكتب [السابقة] كان يقول (اقترب الوعد) ثم مضى مائة سنة ولم يقع ، ولا يبعد أن يمضي ألف آخر ولا يقع ، ولو صح إطلاق لفظ القرب زماناً على مثل هذا لا يبقى وثوق بالإخبارات ، وأيضاً قوله (اقتربت) لانتهاز الفرصة ، والإيمان قبل أن لا يصح الإيمان ، فللكافر أن يقول ، إذا كان القرب بهذا المعنى فلا خوف منها ، لأنها لا تدركني ، ولا تدرك أولادي ، ولا أولاد أولادي ، وإذا كان إمكانها قريباً في العقول يكون ذلك رداً بالغاً على المشركين والفلاسفة ، والله سبحانه وتعالى أول ما كلف الاعتراف بالوحدانية واليوم الآخر ، وقال اعلموا أن الحشر كائن لخالف المشرك والفلسفي ، ولم يقنع بمجرد إنكار ما ورد الشرع ببيانه ،

ولم يقل : لا يقع أو ليس بكائن ، بل قال ذلك بعيد ، ولم يقنع بهذا أيضاً ، بل قال ذلك : غير ممكن ، ولم يقنع به أيضاً ، بل قال : فإن امتناعه ضروري ، فإن مذهبهم أن إعادة المعدوم وإحياء الموتى محال

بالضرورة ، ولهذا قالوا (أئذا متنا ، أئذا كنا عظاماً ، أئذا ضللنا فى الأرض) بلفظ الاستفهام بمعنى الإنكار مع ظهور الأمر ، فلما استبعدوا لم يكتف الله ورسوله ببيان وقوعه ، بل قال (إن الساعة آتية لا ريب فيها) ولم يقتصر عليه بل قال (وما يدريك لعل الساعه تكون قريباً) ولم يتركها حتى قال (اقتربت الساعة ، واقترب الوعد الحق ، اقترب للناس حسابهم) اقتراباً عقلياً لا يجوز أن ينكر مايقع فى زمان طرفة عين ، لأنه على الله يسير ، كما أن تقليب الحدقة علينا يسير ، بل هو أقرب منه بكثير ، والذى يقويه قول العامة إن زمان وجود العالم زمان مديد ، والباقى بالنسبة إلى الماضى شيء يسير ، فلهذا قال (اقتربت الساعة) .

وأما قوله ﷺ « بعثت أنا والساعة كهاتين » فمعناه لا نبي بعدى فإن زمانى يمتد إلى قيام الساعة ، فزمانى والساعة متلاصقان كهاتين ، ولا شك أن الزمان زمان النبى صلى الله عليه وسلم ، وما دامت أوامره نافذة فالزمان زمانه وإن كان ليس هو فيه ، كما أن المكان الذى تنفذ فيه أوامر الملك مكان الملك يقال له بلاد فلان ، فإن قيل كيف يصح حمله على القرب بالمعقول مع أنه مقطوع به ؟ قلت كما صح قوله تعالى (لعل الساعة تكون قريباً) فإن لعل للترجى والأمر عند الله معلوم ، وفائدته أن قيام الساعة ممكن لا إمكاناً بعيداً عن العادات كحمل الآدمى فى زماننا حملا فى غاية الثقل أو قطعه مسافة بعيدة فى زمان يسير ، فإن ذلك ممكن إمكاناً بعيداً ، وأما تقليب الحدقة فممكن إمكاناً فى غاية القرب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الجمع الذين تكون الواو ضميرهم فى قوله (يروا) و(يعرضوا) غير مذكور فمن هم ؟ نقول هم معلومون وهم الكفار تقديره : وهؤلاء الكفار إن يروا آية يعرضوا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ التنكير فى الآية للتعظيم أى إن يروا آية قوية أو عظيمة يعرضوا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى ﴿ ويقولوا سحر مستمر ﴾ ما الفائدة فيه ؟ نقول فائدته بيان كون الآية خالية عن شوائب الشبه ، وأن الإعتراف لزمهم لأنهم لم يقدروا أن يقولوا نحن نأتى بمثلها وبيان كونهم معرضين لا إعراض معذور ، فإن من يعرض إعراض مشغول بأمر مهم فلم ينظر فى الآية لا يستقبح منه الاعراض مثل ما يستقبح لمن ينظر فيها إلى آخرها ويعجز عن نسبتها إلى أحد ودعوى الإتيان بمثلها ، ثم يقول هذا ليس بشيء هذا سحر لأن ما من آية إلا ويمكن المعاند أن يقول فيها هذا القول .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ما المستمر ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) دائم فإن محمداً صلى الله عليه

وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾

وثلاثة ويعجز عن غيرها وهو قادر على الكل (وثانيها) مستمر أي قوى من حبل مرير الفتل من المرة وهي الشدة (وثالثها) من المرارة أي سحر مر مستبشع (ورابعها) مستمر أي مار ذاهب، فإن السحر لا بقاء له.

ثم قال تعالى ﴿وكذبوا واتبعوا أهواءهم﴾ وهو يحتمل أمرين (أحدهما) وكذبوا محمداً المخبر عن اقتراب الساعة (وثانيهما) كذبوا بالآية وهي انشقاق القمر، فإن قلنا كذبوا محمداً ﷺ فقوله (واتبعوا أهواءهم) أي تركوا الحجة وأولوا الآيات وقالوا هو مجنون تعينه الجن وكاهن يقول عن النجوم ويختار الأوقات للأفعال وساحر، فهذه أهواءهم، وإن قلنا كذبوا بانشقاق القمر، فقوله (واتبعوا أهواءهم) في أنه سحر القمر، وأنه خسوف والقمر لم يصبه شيء فهذه أهواءهم، وكذلك قولهم في كل آية.

قوله تعالى: ﴿وكل أمر مستقر﴾ فيه وجوه (أحدها) كل أمر مستقر على سنن الحق يثبت والباطل يزهق، وحينئذ يكون تهديداً لهم، وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو كقوله تعالى (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم) أي بأنها حق (ثانيها) وكل أمر مستقر في علم الله تعالى (لا يخفى عليه شيء) فهم كذبوا واتبعوا أهواءهم، والأنبياء صدقوا وبلغوا ماجاءهم، كقوله تعالى (لا يخفى على الله منهم شيء)، وكما قال تعالى، في هذه السورة (وكل شيء فعلوه في الزبر، وكل صغير وكبير مستطر)، (ثالثها) هو جواب قولهم (سحر مستمر) أي ليس أمره بذاهب بل كل أمر من أموره مستقر.

ثم قال تعالى ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر﴾ إشارة إلى أن كل ما هو لطف بالعباد قد وجد، فأخبرهم الرسول باقتراب الساعة، وأقام الدليل على صدقه، وإمكان قيام الساعة عقيب دعواه بانشقاق القمر الذي هو آية لأن من يكذب بها لا يصدق بشيء من الآيات فكذبوا بها واتبعوا الأباطيل الذاهبة، وذكروا الأقاويل الكاذبة فذكر لهم أنباء المهلكين بالآيتين تخويفاً لهم، وهذا هو الترتيب الحكمي. ولهذا قال بعد الآيات (حكمة بالغة) أي هذه حكمة بالغة، والأنباء هي الأخبار العظام، ويدلك على صدقه أن في القرآن لم يرد النبأ والأنباء إلا لما له وقع قال (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) لأنه كان خبراً عظيما. وقال (إن جاءكم فاسق بنبأ) أي محاربة أو مسالمة وما يشبهه من الأمور العرفية، وإنما يجب التثبت فيما يتعلق به حكم ويترتب عليه أمر ذو بال، وكذلك قال تعالى (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) فكذلك الأنباء هنا، وقال تعالى عن موسى (لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة) حيث لم يكن يعلم أنه يظهر له شيء عظيم يصلح أن يقال له نبأ

حِكْمَةٌ بَـٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾

ولم يقصده ، والظاهر أن المراد أنباء المهلكين بسبب التكذيب وقال بعضهم المراد القرآن ، وتقديره جاء فيه الأنباء ، وقيل قوله (جاءكم من الأنباء) يتناول جميع ما ورد فى القرآن من الزواجر والمواعظ وماذكرناه أظهر لقوله (فيه مزدجر) وفى (ما) وجهان (أحدهما) أنها موصولة أى جاءكم الذى فيه مزدجر (ثانيهما) موصوفة تقديره (جاءكم من الأنباء) شىء موصوف بأن فيه (مزدجر) وهذا أظهر والمزدجر فيه وجهان أحدهما ازدجار وثانيهما موضع ازدجار ، كالمرتقى ، ولفظ المفعول بمعنى المصدر كثير . لأن المصدر هو المفعول الحقيقى .

ثم قال تعالى ﴿حكمة بالغة﴾ وفيه وجوه (الأول) على قول من قال (ولقد جاءهم من الأنباء) المراد منه القرآن ، قال (حكمة بالغة) بدل كأنه قال ولقد جاءهم حكمة بالغة (ثانيها) أن يكون بدلا عن ما فى قوله (ما فيه مزدجر) (الثانى) حكمة بالغة خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه حكمة بالغة والإشارة حينئذ تحتمل وجوها (أحدها) هذا الترتيب الذى فى إرسال الرسول وإيضاح الدليل والإنذار بمن مضى من القرون وانقضى حكمة بالغة (ثانيها) إنزال ما فيه الأنباء (حكمة بالغة) (ثالثها) هذه الساعة المقتربة والآية الدالة عليها حكمة (الثالث) قرىء بالنصب فيكون حالا وذو الحال ما فى قوله (ما فيه مزدجر) أى جاءكم ذلك حكمة ، فإن قيل إن كان ما موصولة تكون معرفة فيحسن كونه ذا الحال فأما إن كانت بمعنى جاءهم من الأنباء شىء فيه ازدجار يكون منكراً وتنكير ذى الحال قبيح نقول كونه موصوفاً يحسن ذلك .

وقوله ﴿فما تغنى النذر﴾ فيه وجهان (أحدهما) أن ما نافية ، ومعناه أن النذر لم يبعثوا ليغنوا ويلجئوا قومهم إلى الحق ، وإنما أرسلوا مبلغين وهو كقوله تعالى (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً) ويؤيد هذا قوله تعالى (فتولى عنهم) أى ليس عليك ولا على الأنبياء الإغناء والإلجاء ، فإذا بلغت فقد أتيت بما عليك من الحكمة البالغة التى أمرت بها بقوله تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وتول إذا لم تقدر (ثانيهما) ما استفهامية ، ومعنى الآيات حينئذ أنك أتيت بما عليك من الدعوى وإظهار الآية عليها وكذبوا فأنذرتهم بما جرى على المكذبين فلم يفدهم فهذه حكمة بالغة وما الذى تغنى النذر غير هذا فلم يبق عليك شىء آخر .

قوله تعالى ﴿فتولى عنهم﴾ قد ذكرنا أن المفسرين يقولون إلى قوله (تولى) منسوخ وليس كذلك ، بل المراد منه لا تناظرهم بالكلام .

ثم قال تعالى ﴿يوم يدع الداع إلى شىء نكر﴾ قد ذكرنا أيضاً أن من ينصح شخصاً ولا يؤثر فيه النصح يعرض عنه ويقول مع غيره ما فيه نصح المعرض عنه ، ويكون فيه قصد إرشاده أيضاً فقال بعد ما قال (فتول عنهم يوم يدع الداع) (يخرجون من الأجداث) للتخويف ، والعامل

خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾

فى (يوم) هو ما بعده ، وهو قوله (يخرجون من الأجداث) و الداعى معرف كالمنادى فى قوله (يوم ينادى المناد) لأنه معلوم قد أخبر عنه ، فقيل إن مناديا ينادى و داعياً يدعو وفى الداعى وجوه أحدها أنه إسرافيل (وثانيها) أنه جبريل (وثالثها) أنه ملك موكل بذلك والتعريف حينئذ لا يقطع حد العلمية ، وإنما يكون ذلك كقولنا جاء رجل فقال الرجل ، وقوله تعالى (إلى شيء نكر) أى منكر وهو يحتمل وجوهاً (أحدها) إلى شيء نكر فى يومنا هذا لأنهم أنكروه أى يوم يدعو الداعى إلى الشيء الذى أنكروه يخرجون (ثانيها) نكر أى منكر يقول ذلك القائل كان ينبغى أن لا يكون أى من شأنه أن لا يوجد يقال فلان ينهى عن المنكر ، وعلى هذا فهو عندهم كان ينبغى أن لا يقع لأنه يرديهم فى الهاوية ، فان قيل ماذلك الشيء النكر ؟ نقول الحساب أو الجمع له أو النشر للجمع ، وهذا أقرب ، فان قيل النشر لا يكون منكراً فإنه إحياء ولأن الكافر من أين يعرف وقت النشر وما يجرى عليه لينكره ؟ نقول يعرف ويعلم بدليل قوله تعالى عنهم (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا) .

ثم قال تعالى ﴿ خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ﴾ وفيه قراءات خاشعاً وخاشعة وخشعاً . فمن قرأ خاشعاً على قول القائل : يخشع أبصارهم على ترك التأنيت لتقدم الفعل ومن قرأ خاشعة على قوله (تخشع أبصارهم) ومن قرأ خشعاً فله وجوه (أحدها) على قول من يقول يخشعن أبصارهم على طريقة من يقول : أكلونى البراغيث (ثانيها) فى (خشعاً) ضمير أبصارهم بدل عنه ، تقديره يخشعون أبصارهم على بدل الاشتمال كقول القائل : أعجبونى حسنهم . (ثالثها) فيه فعل مضمر يفسره يخرجون تقديره يخرجون خشعاً أبصارهم على بدل الاشتمال والصحيح خاشعاً ، روى أن مجاهداً رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه فقال له يانبى الله خشعاً أبصارهم أو خاشعاً أبصارهم ؟ فقال عليه السلام خاشعاً . ولهذه القراءة وجه آخر أظهر مما قالوه وهو أن يكون خشعاً منصوباً على أنه مفعول بقوله (يوم يدع الداع) خشعاً أى يدعو هؤلاء ، فان قيل هذا فاسد من وجوه (أحدها) أن التخصيص لا فائدة فيه لأن الداعى يدعو كل أحد ، (ثانيها) قوله (يخرجون من الأجداث) بعد الدعاء فيكونون خشعاً قبل الخروج وإنه باطل ، (ثالثها) قراءة خاشعاً تبطل هذا ، نقول أما الجواب عن الأول فهو أن يقال قوله (إلى شيء نكر) يدفع ذلك لأن كل أحد لا يدعى إلى شيء نكر وعن الثانى المراد (من شيء نكر) الحساب العسر يعنى يوم يدع الداع إلى الحساب العسر خشعاً ولا يكون العامل فى (يوم يدعو) يخرجون بل اذكروا ، أو (فما تغنى النذر) كما قال تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) ويكون يخرجون ابتداء كلام ، وعن الثالث أنه لا منافاة بين القراءتين ، وخاشعاً نصب على الحال أو على أنه مفعول يدعو

مُهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾

كأنه يقول يدعو الداعى قوماً خاشعة أبصارهم والخشوع السكون قال تعالى (وخشعت الأصوات) وخشوع الأبصار سكونها على كل حال لا تنفلت يمنة ولا يسرة كما فى قوله تعالى (لا يرتد إليهم طرفهم) وقوله تعالى (يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر) مثلهم بالجراد المنتشر فى الكثرة والتموج ، ويحتمل أن يقال : المنتشر مطاوع نشره إذا أحياه فكأنهم جراد يتحرك من الأرض ويدب إشارة إلى كيفية خروجهم من الأجداث وضعفهم .

ثم قال تعالى ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ أى مسرعين إليه انقياداً ﴿ يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ يحتمل أن يكون العامل الناصب ليوم فى قوله تعالى (يوم يدع الداع) أى يوم يدعو الداعى (يقول الكافرون هذا يوم عسر) ، وفيه فائدتان (إحداهما) تنبيه المؤمن أن ذلك اليوم على الكافر عسير فحسب ،كما قال تعالى (فذلك يوم عسير ، على الكافرين غير يسير) يعنى له عسر لا يسر معه (ثانيتهما) هى أن الأمرين متفقان مشتركان بين المؤمن والكافر ، فان الخروج من الأجداث كأنهم جراد والانقطاع إلى الداعى يكون للمؤمن فانه يخاف ولا يأمن العذاب إلا بإيمان الله تعالى إياه فيؤتيه الله الثواب فيبقى الكافر فيقول (هذا يوم عسر) .

ثم إنه تعالى أعاد بعض الأنباء فقال ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾ فيها تهوين وتسلية لقلب محمد صلى الله عليه وسلم فإن حاله كحال من تقدمه وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إلحاق ضمير المؤنث بالفعل قبل ذكر الفاعل جائز بالاتفاق وحسن ، وإلحاق ضمير الجمع به قبيح عند الأكثرين ، فلا يجوزون كذبوا قوم نوح ، ويجوزون كذبت فما الفرق ؟ نقول التأنيث قبل الجمع لأن الأنوثة والذكورة للفاعل أمر لا يتبدل ولم تحصل الأنوثة للفاعل بسبب فعلها الذى هو فاعله فليس إذا قلنا ضربت هذه كانت هذه أنثى لأجل الضرب بخلاف الجمع ، لأن الجمع للفاعلين بسبب فعلهم الذى هم فاعلوه ، فإنا إذا قلنا جمع ضربوا وهم ضاربون ليس بمجرد اجتماعهم فى الوجود يصح قولنا ضربوا وهم ضاربون ، لأنهم إن اجتمعوا فى مكان فهم جمع ، ولكن إن لم يضرب الكل لا يصح قولنا ضربوا . فضمير الجمع من الفعل فاعلون جمعهم بسبب الاجتماع فى الفعل والفاعلية ، وليس بسبب الفعل ، فلم يجز أن يقال ضربوا جمع ، لأن الجمع لم يفهم إلا بسبب أنهم ضربوا جميعهم ، فينبغى أن يعلم أولا اجتماعهم فى الفعل ، فيقول الضاربون ضربوا ، وأما ضربت هند فصحيح ، لأنه لا يصح أن يقال التأنيث لم يفهم إلا بسبب أنها ضربت ، بل هى كانت أنثى فوجد منها ضرب فصارت ضاربة . وليس الجمع كانوا جمعاً فضربوا

فصاروا ضاربين ، بل صاروا ضاربين لاجتماعهم فى الفعل. ولهذا ورد الجمع على اللفظ بعد ورود التأنيث عليه فقيل ضاربة وضاربات ولم يجمع اللفظ أولا لأنثى ولا لذكر ، ولهذا لم يحسن أن يقال ضرب هند ، وحسن بالإجماع ضرب قوم والمسلمون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لما قال تعالى(كذبت) ماالفائدة فى قوله تعالى (فكذبوا عبدنا) ؟نقول الجواب عنه من وجوه (الأول) أن قوله (كذبت قبلهم قوم نوح) أى بآياتنا وآية الانشقاق فكذبوا (الثانى) (كذبت قوم نوح الرسل) وقالوا لم يبعث الله رسولا وكذبوهم فى التوحيد (فكذبوا عبدنا) كما كذبوا غيره وذلك لأن قوم نوح مشركون يعبدون الأصنام ومن يعبد الأصنام يكذب كل رسول وينكر الرسالة لأنه يقول لا تعلق لله بالعالم السفلى وإنما أمره إلى الكواكب فكان مذهبهم التكذيب فكذبوا (الثالث) قوله تعالى (فكذبوا عبدنا) للتصديق والرد عليهم تقديره (كذبت قوم نوح) وكان تكذيبهم عبدنا أى لم يكن تكذيباً بحق كما يقول القائل كذبنى فكذب صادقاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كثيراً ما يخص الله الصالحين بالإضافة إلى نفسه كما فى قوله تعالى (إن عبادي، يا عبادى ، واذكر عبدنا ، إنه من عبادنا) وكل واحد عبده فما السر فيه ؟ نقول الجواب عنه من وجوه (الأول) ما قيل فى المشهور أن الإضافة إليه تشريف منه فمن خصصه بكونه عبده شرف وهذا كقوله تعالى (أن طهرا بيتى) وقوله تعالى (ناقة الله) (الثانى) المراد من عبدنا أى الذى عبدنا فالكل عباد لأنهم مخلوقون للعبادة لقوله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) لكن منهم من عبد فحقق المقصود فصار عبده ، ويؤيد هذا قوله تعالى (كونوا عباداً لى) أى حققوا المقصود (الثالث) الإضافة تفيد الحصر فمعنى عبدنا هو الذى لم يقل بمعبود سوانا ، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهاً فالعبد المضاف هو الذى بكليته فى كل وقت لله فأكله وشربه وجميع أموره لوجه الله تعالى وقليل ما هم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ماالفائدة فى اختيار لفظ العبد مع أنه لو قال رسولنا لكان أدل على قبح فعلهم ؟ نقول قوله عبدنا أدل على صدقه وقبح تكذيبهم من قوله رسولنا لو قاله لأن العبد أقل تحريفاً لكلام السيد من الرسول ، فيكون كقوله تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين)

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى وقالوا (مجنون) إشارة إلى أنه أتى بالآيات الدالة على صدقه حيث رأوا ما عجزوا منه ، وقالوا هو مصاب الجن أو هو لزيادة بيان قبح صنعهم حيث لم يقنعوا بقولهم إنه كاذب ، بل قالوا مجنون ، أى يقول مالا يقبله عاقل ، والكاذب العاقل يقول ما يظن به أنه صادق فقالوا (مجنون) أى يقول مالم يقل به عاقل فبين مبالغتهم فى التكذيب .

﴿ المسألة السادسة ﴾ (وازدجر) إخبار من الله تعالى أو حكاية قولهم ، نقول فيه خلاف منهم من قال إخبار من الله تعالى وهو عطف على كذبوا ، وقالوا أى هم كذبوا وهو (ازدجر) أى أوذى وزجر ، وهو كقوله تعالى (كذبوا وأوذوا) وعلى هذا إن قيل لو قال كذبوا عبدنا وزجروه

فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾

كان الكلام أكثر مناسبة ، نقول لا بل هذا أبلغ لأن المقصود تقوية قلب النبي صلى الله عليه وسلم بذكر من تقدمه فقال وازدجر أي فعلوا ما يوجب الانزجار من دعائهم حتى ترك دعوتهم وعدل عن الدعاء إلى الإيمان ، إلى الدعاء عليهم ، ولو قال زجروه ما كان يفيد أنه تأذى منهم لأن في السعة يقال آذوني ولكن ما تأذيت ، وأما أوذيت فهو كاللازم لا يقال إلا عند حصول الفعل لا قبله ، ومنهم من قال (وازدجر) حكاية قولهم أي هم قالوا ازدجر ، تقديره قالوا مجنون مزدجر ، ومعناه : ازدجره الجن أو كأنهم قالوا جن وازدجر ، والأول أصح ويترتب عليه :

قوله تعالى : ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ ترتيباً في غاية الحسن لأنهم لما زجروه وانزجر هو عن دعائهم دعا ربه أني مغلوب وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء إني بكسر الهمزة على أنه دعاء ، فكأنه قال إني مغلوب ، وبالفتح على معنى بأني .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما معنى مغلوب ؟ نقول فيه وجوه (الأول) غلبني الكفار فانتصر لي منهم (الثاني) غلبتني نفسي وحملتني على الدعاء عليهم فانتصر لي من نفسي ، وهذا الوجه نقله ابن عطية وهو ضعيف (الثالث) وجه مركب من الوجهين وهو أحسن منهما وهو أن يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم لا يدعو على قومه مادام في نفسه احتمال وحلم ، واحتمال نفسه يمتد ما دام الإيمان منهم محتملا ، ثم إن يأسه يحصل والاحتمال يفر بعد اليأس بمدة ، بدليل قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم (لعلك باخع نفسك) ، (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) وقال تعالى (ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون) فقال نوح يا إلهي إن نفسي غلبتني وقد أمرتني بالدعاء عليهم فأهلكهم . فيكون معناه [إني] مغلوب بحكم البشرية أي غلبت وعيل صبري فانتصر لي منهم لا من نفسي .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فانتصر معناه انتصر لي أو لنفسك فإنهم كفروا بك وفيه وجوه (أحدها) فانتصر لي مناسب لقوله مغلوب (ثانيها) فانتصر لك ولدينك فإني غلبت وعجزت عن الانتصار لدينك (ثالثها) فانتصر للحق ، لا يكون فيه ذكره ولا ذكر ربه ، وهذا يقوله قوي النفس بكون الحق معه ، يقول القائل اللهم أهلك الكاذب منا ، وانصر المحق منا .

قوله تعالى : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ عقيب دعائه . وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المراد من الفتح والأبواب والسماء حقائقها أو هو مجاز ؟ نقول فيه قولان (أحدهما) حقائقها وللسماء أبواب تفتح وتغلق ولا استبعاد فيه (وثانيهما) هو على طريق الاستعارة ، فإن الظاهر أن الماء كان من السحاب ، وعلى هذا فهو كما يقول القائل في المطر الوابل جرت ميازيب السماء وفتح أفواه القرب أي كأنه ذلك ، فالمطر في الطوفان كان بحيث يقول القائل :

وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾

فتحت أبواب السماء ، ولا شك أن المطر من فوق كان فى غاية الهطلان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (ففتحنا) بيان أن الله انتصر منهم وانتقم بماء لا بجند أنزله ، كما قال تعالى (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ، إن كانت إلا صيحة واحدة) بياناً لكمال القدرة ، ومن العجيب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم بمطلوبهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الباء فى قوله (بماء منهمر) ما وجهه ، وكيف موقعه ؟ نقول فيه وجهان : (أحدهما) كما هى فى قول القائل : فتحت الباب بالمفتاح ، وتقديره : هو أن يجعل كأن الماء جاء وفتح الباب . وعلى هذا تفسير قول من يقول : يفتح الله لك بخير . أى يقدر خيراً يأتى ويفتح الباب ، وعلى هذا ففيه لطيفة وهى من بدائع المعانى ، وهى أن يجعل المقصود مقدماً فى الوجود ، ويقول كأن مقصودك جاء إلى باب مغلق ففتحه وجاءك ، وكذلك قول القائل : لعل الله يفتح برزق ، أى يقدر رزقاً يأتى إلى الباب الذى كالمغلق فيدفعه ويفتحه ، فيكون الله قد فتحه بالرزق (ثانيهما) (فتحنا أبواب السماء) مقرونة (بماء منهمر) والانهمار الانسكاب والانصباب صباً شديداً ، والتحقيق فيه أن المطر يخرج من السماء التى هى السحاب خروج مترشح من ظرفه ، وفى ذلك اليوم كان يخرج خروج مرسل خارج من باب .

قوله تعالى : ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴾ وفيه من البلاغة ما ليس فى قول القائل : وفجرنا عيون الأرض ، وهذا بيان التمييز فى كثير من المواضع ، إذا قلت ضاق زيد ذرعاً ، أثبت مالا يثبته قولك ضاق ذرع زيد ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (وفجرنا الأرض عيوناً) ولم يقل ففتحنا السماء أبواباً ، لأن السماء أعظم من الأرض وهى للمبالغة ، ولهذا قال (أبواب السماء) ولم يقل أنابيب ولا منافذ ولا مجارى أو غيرها .

وأما قوله تعالى (وفجرنا الأرض عيوناً) فهو أبلغ من قوله : وفجرنا عيون الأرض ، لأنه يكون حقيقة لا مبالغة فيه ، ويكفى فى صحة ذلك القول أن يجعل فى الأرض عيوناً ثلاثة ، ولا يصلح مع هذا فى السماء إلا قول القائل : فأنزلنا من السماء ماء أو مياهاً ، ومثل هذا الذى ذكرناه فى المعنى لا فى المعجزة ، والحكمة قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض) حيث لا مبالغة فيه ، وكلامه لا يماثل كلام الله ولا يقرب منه ، غير أنى ذكرته مثلا (ولله المثل الأعلى) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ العيون فى عيون الماء حقيقة أو مجاز ؟ نقول المشهور أن لفظ العين

وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا

مشترك ، والظاهر أنها حقيقة فى العين التى هى آلة الأبصار ومجاز فى غيرها ، أما فى عيون الماء فلأنها تشبه العين الباصرة التى يخرج منها الدمع ، أو لأن الماء الذى فى العين كالنور الذى فى العين غير أنها مجاز مشهور صار غالباً حتى لا يفتقر إلى القرينة عند الاستعمال إلا للتمييز بين العينين ، فكما لا يحمل اللفظ على العين الباصرة إلا بقرينة ، كذلك لا يحمل على الفوارة إلا بقرينة مثل : شربت من العين واغتسلت منها ، وغير ذلك من الأمور التى توجد فى الينبوع ، ويقال عانه يعينه إذا أصابه بالعين ، وعينه تعييناً ، حقيقته جعله بحيث تقع عليه العين ، وعاينه معاينة وعياناً ، وعين أى صار بحيث تقع عليه العين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (فالتقى الماء) قرىء فالتقى الماءان ، أى النوعان ، منه ماء السماء وماء الأرض ، فتثنى أسماء الأجناس على تأويل صنف ، تجمع أيضاً ، يقال عندى تمران وتمور وأتمار على تأويل نوعين وأنواع منه . والصحيح المشهور (فالتقى الماء) وله معنى لطيف ، وذلك أنه تعالى لما قال ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) ذكر الماء وذكر الانهمار وهو النزول بقوة ، فلما قال (وفجرنا الأرض عيوناً)كان من الحسن البديع أن يقول ما يفيد أن الماء نبع منها بقوة ، فقال (فالتقى الماء) أى من العين فار الماء بقوة حتى ارتفع والتقى بماء السماء ، ولو جرى جرياً ضعيفاً لما كان هو يلتقى مع ماء السماء بل كان ماء السماء يرد عليه ويتصل به ، ولعل المراد من قوله (وفار التنور) مثل هذا .

وقوله تعالى (على أمر قد قدر) فيه وجوه (الأول) على حال قد قدرها الله تعالى كما شاء (الثانى) على حال قدر أحد الماءين بقدر الآخر (الثالث) على سائر المقادير ، وذلك لأن الناس اختلفوا ، فمنهم من قال : ماء السماء كان أكثر ، ومنهم من قال : ماء الأرض ، ومنهم من قال كانا متساويين ، فقال على أى مقدار كان ، والأول إشارة إلى عظمة أمر الطوفان ، فإن تنكير الأمر يفيد ذلك ، يقول القائل : جرى على فلان شىء لا يمكن أن يقال ، إشارة إلى عظمته ، وفيه احتمال آخر ، وهو أن يقال التقى الماء ، أى اجتمع على أمر هلاكهم ، وهو كان مقدوراً مقدراً ، وفيه رد على المنجمين الذين يقولون : إن الطوفان كان بسبب اجتماع الكواكب السبعة حول برج مائى ، والغرق لم يكن مقصوداً بالذات ، وإنما ذلك أمر لزم من الطوفان الواجب وقوعه ، فقال لم يكن ذلك إلا لأمر قد قدر ، ويدل عليه أن الله تعالى أوحى إلى نوح بأنهم من المغرقين .

وقوله تعالى ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا ﴾ أى سفينة ، حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه ، إشارة إلى أنها كانت من ألواح مركبة موثقة بدثر ، وكان انفكاكها فى غاية السهولة ، ولم يقع فهو بفضل الله ، والدسر المسامير .

جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾

وقوله تعالى (تجرى) أى سفينة ذات ألواح جارية ، وقوله تعالى (بأعيننا) أى بمرأى منا أو بحفظنا ، لأن العين آلة ذلك فتستعمل فيه .

قوله تعالى : ﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾ يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون نصبه بقوله (حملناه) أى حملناه جزاء ، أى ليكون ذلك الحمل جزاء الصبر على كفرانهم (وثانيها) أن يكون بقوله (تجرى بأعيننا) لأن فيه معنى حفظنا ، أى ماتركناه عن أعيننا وعوننا جزاء له (ثالثها) أن يكون بفعل حاصل من مجموع ما ذكره كأنه قال . فتحنا أبواب السماء وفجرنا الأرض عيوناً وحملناه ، وكل ذلك فعلناه جزاء له ، وإنما ذكرنا هذا ، لأن الجزاء ماكان يحصل إلا بحفظه وإنجائه لهم ، فوجب أن يكون جزاء منصوباً بكونه مفعولا له بهذه الأفعال ، ولنذكر مافيه من اللطائف فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال فى السماء (ففتحنا أبواب السماء) لأن السماء ذات الرجع وما لها فطور ، ولم يقل : وشققنا السماء ، وقال فى الأرض (وفجرنا الأرض) لأنها ذات الصدع .

﴿ الثانية ﴾ لما جعل المطر كالماء الخارج من أبواب مفتوحة واسعة ، ولم يقل فى الأرض وأجرينا من الأرض بحاراً وأنهاراً ، بل قال (عيوناً) والخارج من العين دون الخارج من الباب ذكر فى الأرض أنه تعالى فجرها كلها ، فقال (وفجرنا الأرض) لتقابل كثرة عيون الأرض سعة أبواب السماء فيحصل بالكثرة ههنا ماحصل بالسعة ههنا .

﴿ الثالثة ﴾ ذكر عند الغضب سبب الإهلاك وهو فتح أبواب السماء وفجر الأرض بالعيون ، وأشار إلى الإهلاك بقوله تعالى (على أمر قد قدر) أى أمر الإهلاك ولم يصرح وعند الرحمة ذكر الإنجاء صريحاً بقوله تعالى (وحملناه) وأشار إلى طريق النجاة بقوله (ذات ألواح) وكذلك قال فى موضع آخر فأخذهم الطوفان ، ولم يقل فأهلكوا ، وقال فأنجيناه وأصحاب السفينة فصرح بالإنجاء ولم يصرح بالإهلاك إشارة إلى سعة الرحمة وغاية الكرم أى خلقنا سبب الهلاك ولو رجعوا لما ضرهم ذلك السبب كما قال صلى الله عليه وسلم (يابنى اركب معنا) وعند الإنجاء أنجاه وجعل للنجاة طريقاً وهو اتخاذ السفينة ولو انكسرت لما ضره بل كان ينجيه فالمقصود عند الإنجاء هو النجاة فذكر المحل والمقصود عند الإهلاك إظهار البأس فذكر السبب صريحاً .

﴿ الرابعة ﴾ قوله تعالى (تجرى بأعيننا) أبلغ من حفظنا ، يقول القائل اجعل هذا نصب عينك ولا يقول احفظه طلباً للمبالغة .

﴿ الخامسة ﴾ (بأعيننا) يحتمل أن يكون المراد بحفظنا ، ولهذا يقال الرؤية لسان العين .

﴿ السادسة ﴾ قال كان ذلك جزاء على ما كفروا به لا على إيمانه وشكره فما جوزى به كان جزاء صبره على كفرهم ، وأما جزاء شكره لنا فباق ، وقرىء (جزاء) بكسر الجيم أى مجازاة كقتال

وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٥﴾

ومقاتلة وقرىء (لمن كان كفر) بفتح الكاف ، وأما (كفر) ففيه وجهان : (أحدهما) أن يكون كفر مثل شكر يعدى بالحرف وبغير حرف يقال شكرته وشكرت له ، قال تعالى (واشكروا لى ولا تكفرون) وقال تعالى (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله) . (ثانيهما) أن يكون من الكفر لامن الكفران أى جزاء لمن ستر أمره وأنكر شأنه ويحتمل أن يقال كفر به وترك اظهور المراد .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد تركناها آية ﴾ وفى العائد إليه الضمير وجهان : (أحدهما) عائد إلى مذكور وهو السفينة التى فيها ألواح وعلى هذا ففيه وجهان (أحدهما) ترك الله عينها مدة حتى رؤيت وعلمت وكانت على الجودى بالجزيرة و قيل بأرض الهند (وثانيهما) ترك مثلها فى الناس يذكر (وثانى) الوجهين الأولين ، أنه عائد إلى معلوم أى تركنا السفينة آية ، والأول أظهر وعلى هذا الوجه يحتمل أن يقال(تركناها) أى جعلناها آية لأنها بعد الفراغ منها صارت متروكة ومجعولة يقول القائل تركت فلاناً مثلة أى جعلته، لما بينا أنه من فرغ من أمر تركه وجعله فذكر أحد الفعلين بدلا عن الآخر .

وقوله تعالى ﴿فهل من مدكر ﴾ إشارة إلى أن الأمر من جانب الرسل قدتم ولم يبق إلا جانب المرسل إليهم بأن كانوا منذرين متفكرين يهتدون بفضل الله (فهل من مدكر) مهتد ، وهذا الكلام يصلح حثاً ويصلح تخويفاً وزجراً ، وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال ههنا (ولقد تركناها) وقال فى العنكبوت (وجعلناها آية) قلنا هما وإن كانا فى المعنى واحداً على ماتقدم بيانه لكن لفظ الترك يدل على الجعل والفراغ بالأيام فكأنها هنا مذكورة بالتفصيل حيث بين الإمطار من السماء وتفجير الأرض وذكر السفينة بقوله (ذات ألواح ودسر) وذكر جريها فقال (تركناها) إشارة إلى تمام الفعل المقدور وقال هناك (وجعلناها) إشارة إلى بعض ذلك فان قيل إن كان الأمر كذلك فكيف قال ههنا (وحملناه) ولم يقل وأصحابه وقال هناك (وأنجيناه وأصحاب السيفنة) ؟ نقول النجاة ههنا مذكورة على وجه أبلغ مما ذكره هناك لأنه قال (تجرى بأعيننا) أى حفظنا وحفظ السفينة حفظ لأصحابه وحفظ لأموالهم ودوابهم والحيوانات التى معهم فقوله (وأنجيناه وأصحاب السفينة) لا يلزم منه إنجاء الأموال إلا ببيان آخر والحكاية فى سورة هود أشد تفصيلا وأتم فلهذا قال (قلنا احمل فيهامن كل زوجين اثنين) يعنى المحمول ثم قال تعالى (واستوت على الجودى) تصريحاً بخلاص السفينة وإشارة إلى خلاص كل من فيها وقوله (آية) منصوبة على أنها مفعول ثان للترك لأنه بمعنى الجعل على ما تقدم بيانه وهو الظاهر ، ويحتمل أن يقال حال فإنك تقول تركتها وهى آية وهى إن لم تكن على وزن الفاعل والمفعول

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾

فهي في معناه كأنه قال تركناها دالة ، ويحتمل أن يقال نصبها على التمييز لأنها بعض وجوه الترك كقوله ضربته سوطاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (مدكر) مفتعل من ذكر يذكر وأصله مذتكر [لما] كان مخرج الذال قريباً من مخرج التاء ، والحروف المتقاربة المخرج يصعب النطق بها على التوالي ولهذا إذا نظرت إلى الذال مع التاء عند النطق تقرب الذال من أن تصير تاء والتاء تقرب من أن تصير دالا فجعل التاء دالا ثم أدغمت الدال فيها ومنهم من قرأ على الأصل مذتكر ومنهم من قلب التاء دالا وقرأ مذدكر ومن اللغويين من يقول في مدكر مذدكر فيقلب التاء ولا يدغم ولكل وجهة ، والمدكر المعتبر المتفكر ، وفي قوله (مدكر) إما إشارة إلى ما في قوله (ألست بربكم ؟ قالوا بلى) أي هل من يتذكر تلك الحالة وإما إلى وضوح الأمر كأنه حصل للكل آيات الله ونسوها (فهل من مدكر) يتذكر شيئاً منها .

ثم قال تعالى ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ وفيه وجهان : (أحدهما) أن يكون ذلك استفهاماً من النبي صلى الله عليه وسلم تنبيها له ووعداً بالعاقبة (وثانيهما) أن يكون عاماً تنبيهاً للخلق ونذر أسقط منه ياء الإضافة كما حذف ياء يسري في قوله تعالى (والليل إذا يسر) وذلك عند الوقف ومثله كثير كما في قوله تعالى (فإياي فاعبدون ولا ينقذون) وقوله تعالى (ياعباد فاتقون) وقوله تعالى (ولا تكفرون) وقرىء بإثبات الياء (عذابي ونذري) وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ ما الذي اقتضى الفاء في قوله تعالى (فكيف كان) ؟ نقول : أما إن قلنا إن الاستفهام من النبي صلى الله عليه وسلم ، فكأنه تعالى قال له قد علمت أخبار من كان قبلك فكيف كان أي بعدما أحاط بهم علمك بنقلها إليك ، وأما إن قلنا الاستفهام عام فنقول لما قال (هل من مدكر) فرض وجودهم وقال يا من يتذكر ، وعلم الحال بالتذكير (فكيف كان عذابي) ويحتمل أن يقال هو متصل بقوله (فهل من مدكر) تقديره مدكر كيف كان عذابي .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما رأوا العذاب ولا النذر فكيف استفهم منهم ؟ نقول ، أما على قولنا الاستفهام من النبي صلى الله عليه وسلم فقد علم لما علم ، وأما على قولنا عام فهو على تقدير الادكار وعلى تقدير الادكار يعلم الحال ، ويحتمل أن يقال إنه ليس باستفهام وإنما هو إخبار عن عظمة الأمر كما في قوله تعالى (الحاقة ماالحاقة) و (القارعة ما القارعة) وهذا لأن الاستفهام يذكر للاخبار كما أن صيغة هل تذكر للاستفهام فيقال زيد في الدار ؟ بمعنى هل زيد في الدار ، ويقول المنجز وعده هل صدقت ؟ فكأنه تعالى قال : عذابي وقع وكيف كان أي كان عظيما وحينئذ لا يحتاج إلى علم من يستفهم منه .

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى من قبل . (ففتحنا ، وفجرنا ، وبأعيننا) ولم يقل كيف كان عذابنا نقول لوجهين (أحدهما) لفظى وهو أن ياء المتكلم يمكن حذفها لأنها فى اللفظ تسقط كثيراً فيما إذا التقى ساكنان ، تقول غلامى الذى ، ودارى التى ، وهنا حذفت لتواخى آخر الآيات ، وأما النون والألف فى ضمير الجمع فلا تحذف (وأما الثانى) وهو المعنوى فنقول إن كان الاستفهام من النبى صلى الله عليه وسلم فتوحيد الضمير للأنباء ، وفى فتحنا وفجرنا لترهيب العصاة ، ونقول قد ذكرنا أن قوله (مدكر) فيه إشارة إلى قوله (ألست بربكم) فلما وحد الضمير بقوله (ألست بربكم) قال فكيف كان .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ النذر جمع نذير فهل هو مصدر كالنذيب والنحيب أو فاعل كالكبير والصغير ؟ نقول أكثر المفسرين على أنه مصدر ههنا ، أى كيف كان عاقبة عذابى وعاقبة إنذارى والظاهر أن المراد الأنباء ، أى كيف كان عاقبة أعداء الله ورسله ؟ هل أصاب العذاب من كذب الرسل أم لا ؟ فاذا علمت الحال يامحمد فاصبر فإن عاقبة أمرك كعاقبة أولئك النذر ولم يجمع العذاب لأنه مصدر ولو جمع لكان فى جمعه تقدير وفرض ولا حاجة إليه ، فإن قيل قوله تعالى (كذبت ثمود بالنذر) أى بالإنذارات لأن الإنذارات جاءتهم ؛ وأما الرسل فقد جاءهم واحد ، نقول كل من تقدم من الأمم الذين أشركوا بالله كذبوا بالرسل وقالوا ما أنزل الله من شىء وكان المشركون مكذبين بالكل ما خلا إبراهيم عليه السلام فكانوا يعتقدون فيه الخير لكونه شيخ المرسلين فلا يقال : كذبت ثمود بالنذر ، أى بالأنبياء بأسرهم ، كما أنكم أيها المشركون تكذبونهم .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ وفيه وجوه (الأول) للحفظ فيمكن حفظه ويسهل ، ولم يكن شىء من كتب الله تعالى يحفظ على ظهر القلب غير القرآن .

قوله تعالى : ﴿ فهل من مدكر ﴾ أى هل من يحفظ ويتلوه (الثانى) سهلناه للاتعاظ حيث أتينا فيه بكل حكمة (الثالث) جعلناه بحيث يعلق بالقلوب ويستلذ سماعه ومن لا يفهم يتفهمه ولا يسأم من سمعه وفهمه ولا يقول قد علمت فلا أسمعه بل كل ساعة يزداد منه لذة وعلماً . (الرابع) وهو الأظهر أن النبى صلى الله عليه وسلم لما ذكر بحال نوح عليه السلام وكان له معجزة قيل له إن معجزتك القرآن (ولقد يسرنا القرآن للذكر) تذكرة لكل أحد وتتحدى به فى العالم ويبقى على مرور الدهور ، ولا يحتاج كل من يحضرك إلى دعاء ومسألة فى إظهار معجزة ، وبعدك لا ينكر أحد وقوع ما وقع كما ينكر البعض انشقاق القمر ، وقوله تعالى (فهل من مدكر) أى متذكر لأن الافتعال والتفعل كثيراً ما يجىء بمعنى ، وعلى هذا فلو قال قائل هذا يقتضى وجود أمر سابق فنسى ، نقول ما فى الفطرة من الانقياد للحق هو كالمنسى فهل من مدكر يرجع إلى ما فطر عليه

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨)

وقيل فهل من مدكر أي حافظ أو متعظ على ما فسرنا به قوله تعالى (يسرنا القرآن للذكر) وقوله (فهل من مدكر) وعلى قولنا المراد متذكر إشارة إلى ظهور الأمر فكأنه لا يحتاج إلى نكر ، بل هو أمر حاصل عنده لا يحتاج إلى معاودة ما عند غيره .

قوله تعالى : ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال فى قوم نوح (كذبت قوم نوح) ولم يقل فى عاد كذبت قوم هود وذلك لأن التعريف كلما أمكن أن يؤتى به على وجه أبلغ فالأولى أن يؤتى به والتعريف بالاسم العلم أولى من التعريف بالإضافة إليه ، فإنك إذا قلت بيت الله لا يفيد ما يفيد قولك الكعبة ، فكذلك إذا قلت رسول الله لا يفيد ما يفيد قولك محمد فعاد اسم علم للقوم لا يقال قوم هود أعرف لوجهين (أحدهما) أن الله تعالى وصف عاداً بقوم هود حيث قال (ألا بعداً لعاد قوم هود) ولا يوصف الأظهر بالأخفى والأخص بالأعم (ثانيهما) أن قوم هود واحد وعاد ، قيل إنه لفظ يقع على أقوام ولهذا قال تعالى (عاداً الأولى) لأنا نقول : أما قوله تعالى (لعاد قوم هود) فليس ذلك صفة وإنما هو بدل ويجوز فى البدل أن يكون دون المبدل فى المعرفة ، ويجوز أن يبدل عن المعرفة بالنكرة ، وأما عاداً الأولى فقد قدمنا أن ذلك لبيان تقدمهم أى عاداً الذين تقدموا وليس ذلك للتمييز والتعريف كما تقول محمد النبى شفيعى والله الكريم ربى ورب الكعبة المشرفة لبيان الشرف لا لبيانها وتعريفها كما تقول دخلت الدار المعمورة من الدارين وخدمت الرجل الزاهد من الرجلين فتبين المقصود بالوصف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم يقل كذبوا هوداً كما قال (فكذبوا عبدنا) وذلك لوجهين (أحدهما) أن تكذيب نوح كان أبلغ وأشد حيث دعاهم قريباً من ألف سنة وأصروا على التكذيب ، ولهذا ذكر الله تعالى تكذيب نوح فى مواضع ولم يذكر تكذيب غير نوح صريحاً وإن نبه عليه [فى] واحد منها فى الأعراف قال (فنجيناه والذين معه فى الفلك) وقال حكاية عن نوح (قال رب إن قومى كذبون) وقال (إنهم عصونى) وفى هذه المواضع لم يصرح بتكذيب قوم غيره منهم إلا قليلا ولذلك قال تعالى فى مواضع ذكر شعيب فكذبوه (وقال الذين كذبوا شعيباً) وقال تعالى عن قومه (وإنا لنظنك من الكاذبين) لأنه دعا قومه زماناً مديداً (وثانيهما) أن حكاية عاد مذكورة ههنا على سبيل الاختصار فلم يذكر إلا تكذيبهم وتعذيبهم فقال (كذبت عاد) كما قال (كذبت قوم نوح) ولم يذكر دعاءه عليهم وإجابته كما قال فى نوح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) قبل أن بين العذاب . وفى حكاية نوح بين العذاب ، ثم قال (فكيف كان) فما الحكمة فيه ؟ نقول الاستفهام الذى ذكره فى حكاية نوح

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾

مذكور ههنا ، وهو قوله تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) كما قال من قبل ومن بعد فى حكاية ثمود غير أنه تعالى حكى فى حكاية عاد فكيف كان مرتين ، المرة الأولى استفهم ليبين، كما يقول المعلم لمن لا يعرف كيف المسألة الفلانية ليصير المسئول سائلا ، فيقول كيف هى فيقول إنها كذا وكذا فكذلك ههنا قال كذبت عاد فكيف كان عذابى ، فقال السامع بين أنت فإنى لا أعلم فقال (إنا أرسلنا) وأما المرة الثانية فاستفهم للتعظيم كما يقول القائل للعارف المشاهد كيف فعلت وصنعت فيقول نعم ما فعلت و يقول أتيت بعجيبة فيحقق عظمة الفعل بالاستفهام ، وإنما ذكر ههنا المرة الأولى ولم يذكر فى موضع آخر لأن الحكاية ذكرها مختصرة فكان يفوت الاعتبار بسبب الاختصار فقال (كيف كان عذابى) حثاً على التدبر والتفكر ، وأما الاختصار فى حكايتهم فلأن أكثر أمرهم الاستكبار والاعتماد على القوة وعدم الالتفات إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم ، ويدل عليه قوله تعالى (فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة) وذكر استكبارهم كثيراً ، وما كان قوم محمد صلى الله عليه وسلم مبالغين فى الاستكبار وإنما كانت مبالغتهم فى التكذيب ونسبته إلى الجنون ، وذكر حالة نوح على التفصيل فإن قومه جمعوا بين التكذيب والاستكبار ، وكذلك حال صالح عليه السلام ذكرها على التفصيل لشدة مناسبتها بحال محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال تعالى (فكيف كان عذابى) بتوحيد الضمير هناك ولم يقل عذابنا ، وقال ههنا إنا ولم يقل إنى ، والجواب ما ذكرناه فى قوله تعالى (ففتحنا أبواب السماء) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الصرصر فيها وجوه (أحدها) الريح الشديدة الصوت من الصرير والصرة شدة الصياح (ثانيها) دائمة الهبوب من أصر على الشىء إذا دام وثبت ، وفيه بحث وهو أن الأسماء المشتقة هى التى تصلح لأن يوصف بها ، وأما أسماء الأجناس فلا يوصف بها سواء كانت أجراماً أو معانى ، فلا يقال إنسان رجل جاء ولا يقال لون أبيض وإنما يقال إنسان عالم وجسم أبيض . وقولنا أبيض معناه شىء له بياض ، ولا يكون الجسم مأخوذاً فيه ، ويظهر ذلك فى قولنا رجل عالم فإن العالم شىء له علم حتى الحداد والخباز ولو أمكن قيام العلم بهما لكان عالماً ولا يدخل الحى فى المعنى من حيث المفهوم فإنا إذا قلنا عالم يفهم أن ذلك حى لأن اللفظ ما وضع لحى يعلم بل اللفظ وضع لشىء يعلم ويزيده ظهوراً قولنا معلوم فإنه شىء يعلم أو أمر يعلم وإن لم يكن شيئاً، ولو دخل الجسم فى الأبيض لكان قولنا جسم أبيض كقولنا جسم له بياض فيقع الوصف بالجثة ، إذا علمت هذا فن المستفاد بالجنس شىء دون شىء ، فإن قولنا الهندى يقع على كل منسوب إلى الهند وأما المهند فهو سيف منسوب إلى الهند فيصح أن يقال عبد هندى وتمر هندى ولا يصح أن يقال مهند وكذا الأبلق ولون آخر

فى فرس ولا يقال للثوب أبلق ، كذلك الافطس أنف فيه تقعير إذا قال لقائل أنف أفطس فيكون كأنه قال أنف به فطس فيكون وصفه بالجثة وكان ينبغى أن لا يقال فرس أبلق ولا أنف أفطس ولا سيف مهند وهم يقولون ، فما الجواب ؟ وهذا السؤال يرد على الصرصر لأنها الريح الباردة ، فإذا قال ريح صرصر فليس ذلك كقولنا ريح باردة فان الصرصر هى الريح الباردة فحسب ، فكأنه قال ريح باردة فنقول الألفاظ التى فى معانيها أمران فصاعداً ، كقولنا عالم فإنه يدل على شىء له علم ففيه شىء وعلم هى على ثلاثة أقسام (أحدها) أن يكون الحال هو المقصود والمحل تبع كما فى العالم والضارب والأبيض فإن المقاصد فى هذه الألفاظ العلم والضرب والبياض بخصوصها ، وأما المحل فمقصود من حيث إنه على عمومه حتى أن البياض لو كان يبدل بلون غيره اختل مقصوده كالأسود. وأما الجسم الذى هو محل البياض إن أمكن أن يبدل وأمكن قيام البياض بجوهر غير جسم لما اختل الغرض (ثانيها) أن يكون المحل هو المقصود كقولنا الحيوان لأنه اسم لجنس ما له الحياة لا كالحى الذى هو اسم لشىء له الحياة ، فالمقصود هنا المحل وهو الجسم حتى لو وجد حى ليس بجسم لا يحصل مقصود من قال الحيوان ولو حمل اللفظ على الله الحى الذى لا يموت لحصل غرض المتكلم ولو حمل لفظ الحيوان على فرس قائم أو إنسان نائم لم تفارقه الحياة لم يبق للسامع نفع ولم يحصل للمتكلم غرض فان القائل إذا قال لإنسان قائم وهو ميت هذا حيوان ثم بان موته لا يرجع عما قال بل يقول : ما قلت إنه حى بل قلت إنه حيوان فهو حيوان فارقته الحياة (ثالثها) ما يكون الأمران مقصودين كقولنا رجل وامرأة وناقة وجمل فإن الرجل اسم موضوع لإنسان ذكر والمرأة لإنسان أنثى والناقة لبعير أنثى والجمل لبعير ذكر فالناقة إن أطلقت على حيوان فظهر فرساً أو ثوراً اختل الغرض وإن بان جملا كذلك ، إذا علمت هذا ففى كل صورة كان المحل مقصوداً إما وحده وإما مع الحال فلا يوصف به فلا يقال جسم حيوان ولا يقال بعير ناقة وإنما يجعل ذلك جملة ، فيوصف بالجملة ، فيقال جسم هو حيوان وبعير هو ناقة ، ثم إن الأبلق والأفطس شأنه الحيوان من وجه وشأنه العالم من وجه وكذلك المهند لكن دليل ترجيح الحال فيه ظاهر ، لأن المهند لا يذكر إلا لمدح السيف ، والأفطس لا يقال إلا لوصف الأنف لا لحقيقته ، وكذلك الأبلق بخلاف الحيوان فإنه لا يقال لوصفه ، وكذلك الناقة ، إذا علمت هذا فالصرصر يقال لشدة الريح أو لبردها فوجب أن يعمل به ما يعمل بالبارد والشديد لجاز الوصف وهذا بحث عزيز .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى ههنا (إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً) وقال فى الطور (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) فعرف الريح هناك ونكرها هنا لأن العقم فى الريح أظهر من البرد الذى يضر النبات أو الشدة التى تعصف الأشجار لأن الريح العقيم هى التى لا تنشىء سحاباً ولا تلقح شجراً وهى كثيرة الوقوع ، وأما الريح المهلكة الباردة فقلما توجد ، فقال الريح العقيم أى هذا الجنس المعروف ، ثم زاده بياناً بقوله (ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) فتميزت عن

تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾

الرياح العقم ، وأما الصرصر فقليلة الوقوع فلا تكون مشهورة فنكرها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال هنا (فى يوم نحس مستمر) وقال فى السجدة (فى أيام نحسات) وقال فى الحاقة (سبع ليال وثمانية أيام حسوما) والمراد من اليوم هنا الوقت والزمان كما فى قوله تعالى (يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً) وقوله (مستمر) يفيد مايفيده الأيام لأن الاستمرار ينبىء عن إمرار الزمان كما ينبىء عنه الأيام ، وإنما اختلف اللفظ مع اتحاد المعنى ، لأن الحكاية هنا مذكورة على سبيل الاختصار ، فذكر الزمان ولم يذكر مقداره ولذلك لم يصفها ، ثم إن فيه قراءتين : إحداهما (يوم نحس) بإضافة يوم ، وتسكين نحس على وزن نفس، وثانيتهما (يوم نحس) بتنوين الميم وكسر الحاء على وصف اليوم بالنحس ، كما فى قوله تعالى (فى أيام نحسات) فإن قيل أيتهما أقرب ؟ قلنا الإضافة أصح ، وذلك لأن من يقرأ (يوم نحس مستمر) يجعل المستمر صفة ليوم ، ومن يقرأ يوم نحس مستمر يكون المستمر وصفاً لنحس ، فيحصل منه استمرار النحوسة فالأول أظهر وأليق ، فإن قيل من يقرأ يوم نحس بسكون الحاء ، فماذا يقول فى النحس ؟ نقول يحتمل أن يقول هو تخفيف نحس كفخذ وفخذ فى غير الصفات ، ونصر ونصر ورعد ورعد ، وعلى هذا يلزمه أن يقول تقديره : يوم كائن نحس ، كما تقول فى قوله تعالى (بجانب الغربى) ويحتمل أن يقول نحس ليس بنعت ، بل هو اسم معنى أو مصدر ، فيكون كقولهم يوم برد وحر ، وهو أقرب وأصح .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ مامعنى مستمر ؟ نقول فيه وجوه (الأول) ممتد ثابت مدة مديدة من استمر الأمر إذا دام ، وهذا كقوله تعالى (فى أيام نحسات) لأن الجمع يفيد معنى الاستمرار والامتداد ، وكذلك قوله (حسوماً) (الثانى) شديد من المرة كما قلنا من قبل فى قوله (سحر مستمر) وهذا كقولهم أيام الشدائد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (فى أيام نحسات لنذيقهم بعض الذى) فإنه يذيقهم المر المضر من العذاب .

ثم قال تعالى ﴿ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (تنزع الناس) وصف أو حال ؟ نقول يحتمل الأمرين جميعاً ، إذ يصح أن يقال : أرسل ريحاً صرصراً نازعة للناس ، ويصح أن يقال : أرسل الريح نازعة ، فإن قيل كيف يمكن جعلها حالا ، وذو الحال نكرة ؟ نقول الأمر هنا أهون منه فى قوله تعالى (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر) فإنه نكرة ، وأجابوا عنه بأن (ما) موصوفة فتخصصت فحسن جعلها ذات الحال . فكذلك نقول ههنا الريح موصوفة بالصرصر ، والتنكير فيه للتعظيم ، وإلا فهى ثلاثة فلا يبعد جعلها ذات حال ، وفيه وجه آخر ، وهو أنه كلام مستأنف على فعل وفاعل ، كما تقول : جاء زيد جذبنى ، وتقديره : جاء فجذبنى . كذلك ههنا قال (إنا أرسلنا عليهم ريحاً)

فأصبحت (تنزع الناس) ويدل عليه قوله تعالى (فترى القوم فيها صرعى) فالتاء فى قوله (تنزع الناس) إشارة إلى ما أشار إليه بقوله (صرعى وقوله تعالى (كأنهم أعجاز نخل منقعر) فيه وجوه (أحدها) نزعتهم فصرعتهم (كأنهم أعجاز نخل) كما قال (صرعى كأنهم أعجاز نخل) (ثانيها) نزعتهم فهم بعد النزع (كأنهم أعجاز نخل) وهذا أقرب ، لأن الانقعار قبل الوقوع ، فكأن الريح تنزع [الواحد] وتقعر[ه] فينقعر فيقع فيكون صريعاً ، فيخلوا الموضع عنه فيخوى ، وقوله الحاقة (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) إشارة إلى حالة بعد الانقعار الذى هو بعد النزع ، وهذا يفيد أن الحكاية ههنا مختصرة حيث لم يشر إلى صرعهم وخلو منازلهم عنهم بالكلية ، فإن حال الانقعار لا يحصل الخلو التام إذ هو مثل الشروع فى الخروج والأخذ فيه (ثالثها) تنزعهم نزعا بعنف كأنهم أعجاز نخل تقعرهم فينقعروا إشارة إلى قوتهم وثباتهم على الأرض ، وفى المعنى وجوه (أحدها) أنه ذكر ذلك إشارة إلى عظمة أجسادهم وطول أقدامهم (ثانيها) ذكره إشارة إلى ثباتهم فى الأرض ، فكأنهم كانوا يعملون أرجلهم فى الأرض ويقصدون المنع به على الريح و (ثالثها) ذكره إشارة إلى يبسهم وجفافهم بالريح ، فكانت تقتلهم وتحرقهم ببردها المفرط فيقعون كأنهم أخشاب يابسة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال ههنا (منقعر) فذكر النخل ، وقال فى الحاقة (كأنهم أعجاز نخل خاوية) فأنثها ، قال المفسرون : فى تلك السورة كانت أواخر الآيات تقتضى ذلك لقوله (مستمر ، ومنهمر ، ومنتشر) وهو جواب حسن ، فإن الكلام كما يزين بحسن المعنى يزين بحسن اللفظ ، ويمكن أن يقال النخل لفظه لفظ الواحد ، كالبقل والنمل ومعناه معنى الجمع ، فيجوز أن يقال فيه نخل منقعر ومنقعرة ومنقعرات ، ونخل : خاو وخاوية وخاويات . ونخل : باسق وباسقة وباسقات ، فإذا قال قائل منقعر أو خاو أو باسق جرد النظر إلى اللفظ ولم يراع جانب المعنى ، وإذا قال منقعرات أو خاويات أو باسقات جرد النظر إلى المعنى ولم يراع جانب اللفظ ، وإذا قال منقعرة أو خاوية أو باسقة جمع بين الاعتبارين من حيث وحدة اللفظ ، وربما قال منقعرة على الإفراد من حيث اللفظ ، وألحق به تاء التأنيث التى فى الجماعة إذا عرفت هذا فنقول : ذكر الله تعالى لفظ النخل فى مواضع ثلاثة ، ووصفها على الوجوه الثلاثة ، فقال (والنخل باسقات) فإنها حال منها وهى كالوصف ، وقال (نخل خاوية) وقال (نخل منقعر) لحيث قال (منقعر) كان المختار ذلك لأن المنقعر فى حقيقة الأمر كالمفعول ، لأنه الذى ورد عليه القعر فهو مقعور ، والخاو والباسق فاعل ومعناه إخلاء ما هو مفعول من علامة التأنيث أولا ، كما تقول : امرأة كفيل ، وامرأة كفيلة ، وامرأة كبير ، وامرأة كبيرة . وأما الباسقات ، فهى فاعلات حقيقة ، لأن البسوق أمر قام بها ، وأما الخاوية ، فهى من باب حسن الوجه ، لأن الخاوى موضعها ، فكأنه قال : نخل خاوية المواضع ، وهذا غاية الإعجاز حيث أتى بلفظ مناسب للألفاظ السابقة واللاحقة من حيث

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾

اللفظ ، فكان الدليل يقتضى ذلك ، بخلاف الشاعر الذى يختار اللفظ على المذهب الضعيف لأجل الوزن والقافية .

قوله تعالى : ﴿ فكيف كان عذابى نذر، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾
وتفسيره قد تقدم والتكرير للتقرير ، وفى قوله (عذابى ونذر) لطيفة ما ذكرناها ، وهى تثبت بسؤال وجواب لو قال القائل أكثر المفسرين على أن النذر فى هذا الموضع جمع نذير الذى هو مصدر معناه إنذار ، فما الحكمة فى توحيد العذاب حيث لم يقل : فكيف كان أنواع عذابى . ووبال إنذارى ؟ نقول فيه إشارة إلى غلبة الرحمة الغضب ، وذلك لأن الإنذار إشفاق ورحمة ، فقال الإنذارات التى هى نعم ورحمة تواترت ، فلما لم تنفع وقع العذاب دفعة واحدة ، فكانت النعم كثيرة ، والنقمة واحدة . وسنبين هذا زيادة بيان حين نفسر قوله تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) حيث جمع الآلاء وكثر ذكرها وكررها ثلاثين مرة ، ثم بين الله تعالى حال قوم آخرين فقال ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ وقد تقدم تفسيره غير أنه فى قصة عاد قال (كذبت) ولم يقل بالنذر ، وفى قصة نوح قال (كذبت قوم نوح بالنذر) فنقول هذا يؤيد ما ذكرنا من أن المراد بقوله (كذبت قبلهم قوم نوح) إن عادتهم ومذهبهم إنكار الرسل وتكذيبهم فكذبوا نوحا بناء على مذهبهم وإنما صرح ههنا لأن كل قوم يأتون بعد قوم وأتاهما رسولان فالمكذب المتأخر يكذب المرسلين جميعاً حقيقة والأولون يكذبون رسولا واحداً حقيقة ويلزمهم تكذيب من بعده بناء على ذلك لأنهم لما كذبوا من تقدم فى قوله : الله تعالى واحد ، والحشر كائن ، ومن أرسل بعده كذلك قوله ومذهبه لزم منه أن يكذبوه ويدل على هذا أن الله تعالى قال فى قوم نوح (فكذبوه فأنجيناه) وقال فى عاد (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله) وأما قوله تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين) فإشارة إلى أنهم كذبوا وقالوا ما يفضى إلى تكذيب جميع المرسلين . ولهذا ذكره بلفظ الجمع المعرف للاستغراق ، ثم إنه تعالى قال هناك عن نوح (رب إن قومى كذبون) ولم يقل كذبوا رسلك إشارة إلى ما صدر منهم حقيقة لا أن ما ألزمهم لزمه . إذا عرفت هذا فلما سبق قصة ثمود ذكر رسولين ورسولهم ثالثهم قال (كذبت ثمود بالنذر) هذا كله إذا قلنا أن النذر جمع نذير بمعنى منذر ، أما إذا قلنا إنها الإنذارات فنقول قوم نوح وعاد لم تستمر المعجزات التى ظهرت فى زمانهم ، وأما ثمود فأنذروا وأخرج لهم ناقة من صخرة وكانت تدور بينهم وكذبوا فكان تكذيبهم بإنذارات وآيات ظاهرة فصرح بها ، وقوله (فقالوا أبشراً منا

فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ

واحداً نتبعه يؤيد الوجه الأول ، لأن من يقول لاأتبع بشراً مثلي وجميع المرسلين من البشر يكون مكذباً الرسل والباء في قوله بالنذر يؤيد الوجه الثاني لأنا بينا أن الله تعالى في تكذيب الرسل عدى التكذيب بغير حرف فقال : كذبوه وكذبوا رسلنا وكذبوا عبدنا وكذبوني ، وقال (وكذبوا بآيات ربهم ، وبآياتنا) فعدى بحرف لأن التكذيب هو النسبة إلى الكذب والقائل هو الذي يكون كاذباً حقيقة والكلام والقول يقال فيه كاذب مجازاً وتعلق التكذيب بالقائل أظهر فيستغنى عن الحرف بخلاف القول ، وقد ذكرنا ذلك وبيناه بياناً شافياً .

قوله تعالى : ﴿ فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه ﴾ مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ زيداً ضربته وزيد ضربته كلاهما جائز والنصب مختار في مواضع منها هذا الموضع وهو الذي يكون مايرد عليه النصب والرفع بعد حرف الاستفهام ، والسبب في اختيار النصب أمر معقول وهو أن المستفهم يطلب من المسئول أن يجعل ما ذكره بعد حرف الاستفهام مبدأ لكلامه ويخبر عنه ، فاذا قال أزيد عندك معناه أخبرني عن زيد واذكر لي حاله ، فاذا انضم إلى هذه الحالة فعل مذكور ترجح جانب النصب فيجوز أن يقال أزيداً ضربته وإن لم يجب فالأحسن ذلك فان قيل من قرأ (أبشر منا واحداً نتبعه) كيف ترك الأجود ؟ نقول نظرا إلى قوله تعالى (فقالوا) إذ مابعد القول لا يكون إلا جملة والاسمية أولى والأولى أقوى وأظهر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان بشراً منصوباً بفعل ، فما الحكمة في تأخر الفعل في الظاهر ؟ نقول قد تقدم مراراً أن البليغ يقدم في الكلام ما يكون تعلق غرضه به أكثر وهم كانوا يريدون تبيين كونهم محقين في ترك الاتباع فلو قالوا أنتبع بشراً يمكن أن يقال نعم اتبعوه وماذا يمنعكم من اتباعه ، فاذا قدموا حاله وقالوا هو نوعنا بشر ومن صنفنا رجل ليس غريبا نعتقد فيه أنه يعلم مالا نعلم أو يقدر ما لا نقدر وهو واحد وحيد وليس له جند وحشم وخيل وخدم فكيف نتبعه ، فيكونون قد قدموا الموجب لجواز الامتناع من الاتباع ، واعلم أن في هذه الآية إشارات إلى ذلك (أحدها) نكروه حيث قالوا (أبشراً) ولم يقولوا أنتبع صالحاً أو الرجل المدعي النبوة أو غير ذلك من المعرفات والتنكير تحقير (ثانيها) قالوا أبشراً ولم يقولوا أرجلا (ثالثها) قالوا منا وهو يحتمل أمرين أحدهما من صنفنا ليس غريباً ، وثانيهما (منا) أي تبعنا يقول القائل لغيره أنت منا فيتأذى السامع ويقول لا بل أنت منا ولست أنا منكم ، وتحقيقه أن من للتبعيض والبعض تتبع الكل لا الكل يتبع البعض (رابعها) واحداً يحتمل أمرين أيضاً (أحدهما) وحيداً إلى ضعفه (وثانيهما) واحداً أي هو من الآحاد لامن الأكابر المشهورين ، وتحقيق القول في استعمال الآحاد في الأصاغر حيث يقال هو من آحاد الناس هو أن من لايكون مشهوداً بحسب ولا نسب إذا حدث عنه

إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ  أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾

من لا يعرفه فلا يمكن أن يقول عنه قال فلان أو ابن فلان فيقول قال واحد وفعل واحد فيكون ذلك غاية الخمول ، لأن الأرذل لاينضم إليه أحد فيبقى فى أكثر أوقاته واحداً فيقال للأرذال آحاد .

وقوله تعالى عنهم ﴿ إنا إذاً لفى ضلال وسعر ﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكونوا قد قالوا فى جواب من يقول لهم إن لم تتبعوه تكونوا فى ضلال ، فيقولون له لا بل إن تبعناه نكون فى ضلال (ثانيهما) أن يكون ذلك ترتيباً على ما مضى أى حاله ما ذكرنا من الضعف والوحدة فإن اتبعناه نكون فى ضلال وسعر أى جنون على هذا الوجه ، فإن قلنا إن ذلك قالوه على سبيل الجواب فيكون القائل قال لهم إن لم تتبعوه فإنا إذاً فى الحال فى ضلال وفى سعر فى العقبى فقالوا لا بل لو اتبعناه فإنا إذاً فى الحال فى ضلال وفى سعر من الذل والعبودية مجازاً فإنهم ماكانوا يعترفون بالسعير .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ السعير فى الآخرة واحد فكيف جمع ؟ نقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) فى جهنم دركات يحتمل أن تكون كل واحدة سعيراً أو فيها سعير (ثانيها) لدوام العذاب عليهم فانه كلما نضجت جلودهم يبدلهم جلوداً كأنهم فى كل زمان فى سعير آخر وعذاب آخر (ثالثها) لسعة السعير الواحد كأنها سعر يقال للرجل الواحد فلان ليس برجل واحد بل هو رجال .

قوله تعالى : ﴿ أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ﴾ وقد تقدم أن النفى بطريق الاستفهام أبلغ لأن من قال ما أنزل عليه الذكر ربما يعلم أو يظن أو يتوهم أن السامع يكذبه فيه فاذا ذكر بطريق الاستفهام يكون معناه أن السامع يجيبنى بقوله ماأنزل فيجعل الأمر حينئذ منفياً ظاهراً لايخفى على أحد بل كل أحد يقول ما أنزل ، والذكر الرسالة أو الكتاب إن كان ويحتمل أن يراد به مايذكره من الله تعالى كما يقال الحق ويراد به ما يحل من الله وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قولهم أألقى بدل أأنزل وفيه إشارة إلى ماكانوا ينكرونه من طريق المبالغة وذلك لأن الإلقاء إنزال بسرعة والنبى كان يقول جاءنى الوحى مع الملك فى لحظة يسيرة فكأنهم قالوا الملك جسم والسماء بعيدة فكيف ينزل فى لحظة فقالوا أألقى وما قالوا أأنزل ، وقولهم عليه إنكار آخر كأنهم قالوا ما ألقى ذكر أصلا ، قالوا إن ألقى فلا يكون عليه من بيننا وفينا من هو فوقه فى الشرف والذكاء ، وقولهم أألقى بدل عن قولهم أألقى الله للاشارة إلى أن الإلقاء من السماء غير ممكن فضلا عن أن يكون من الله تعالى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ عرفوا الذكر ولم يقولوا أألقى عليه ذكر ، وذلك لأن الله تعالى حكى إنكارهم

سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾

لما لا ينبغى أن ينكر فقال أنكروا الذكر الظاهر المبين الذى لا ينبغى أن ينكر فهو كقول القائل أنكروا المعلوم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ بل يستدعى أمراً مضروباً عنه سابقاً فماذاك ؟ نقول قولهم أألقى للانكار فهم قالوا ماألقى ، ثم إن قولهم أألقى عليه الذكر لا يقتضى إلا أنه ليس بنبى ، ثم قالوا بل هو ليس بصادق .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الكذاب فعال من فاعل للمبالغة أو يقال بل من فاعل كخياط وتمار ؟ نقول الأول هو الصحيح الأظهر على أن الثانى من باب الأولى لأن المنسوب إلى الشىء لابد له من أن يكثر من مزاولة الشىء فان من خاط يوماً ثوبه مرة لا يقال له خياط ، إذا عرفت هذا فنقول المبالغة ، إما فى الكثرة . وإما فى الشدة فالكذاب ، إما شديد الكذب يقول مالا يقبله العقل أو كثير الكذب ، ويحتمل أن يكونوا وصفوه به لاعتقادهم الأمرين فيه وقولهم (أشر) إشارة إلى أنه كذب لا لضرورة وحاجه إلى خلاص كما يكذب الضعيف ، وإنما هو استغنى وبطر وطلب الرياسة عليكم وأراد اتباعكم له فكان كل وصف مانعاً من الاتباع لأن الكاذب لا يلتفت إليه ، ولا سيما إذا كان كذبه لا لضرورة ، وقرىء (اشر) فقال المفسرون هذا على الأصل المرفوض فى الأشر والأخير على وزن أفعل التفضيل ، وإنما رفض الأصل فيه لأن أفعل إذا فسر قد يفسر بأفعل أيضاً والثانى بأفعل ثالث ، مثاله إذا قال مامعنى الأعلم ؟ يقال هو الأكثر علما فإذا قيل الأكثر ماذا ؟ فيقال الأزيد عدداً أو شىء مثله فلابد من أمر يفسر به الأفعل لا من بابه فقالوا أفعل التفضيل والفضيلة أصلها الخير والخير أصل فى باب أفعل فلا يقال فيه أخير ، ثم إن الشر فى مقابلة الخير يفعل به ما يفعل بالخير فيقال هو شر من كذا وخير من كذا والأشر فى مقابلة الأخير ، ثم إن خيراً يستعمل فى موضعين : (أحدهما) مبالغة الخير بفعل أو أفعل على اختلاف يقال هذا خير وهذا أخير ويستعمل فى مبالغة خير على المشابهة لا على الأصل فمن يقول (أشر) يكون قد ترك الأصل المستعمل لأنه أخذ فى الأصل المرفوض بمعنى هو شر من غيره وكذا معنى الأعلم أن علمه خير من علم غيره ، أو هو خير من غرة الجهل كذلك القول فى الأضعف وغيره .

ثم قال تعالى ﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ فإن قال قائل سيعلم للاستقبال ووقت إنزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم كانوا قد علموا ، لأن بعد الموت تتبين الأمور وقد عاينوا ماعاينوا فكيف القول فيه ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) ان يكون هذا القول مفروض الوقوع فى وقت قولهم بل هو كذاب أشر ، فكأنه تعالى قال يوم قالوا بل هو كذاب أشر (سيعلمون غداً) (وثانيهما) أن هذا التهديد بالتعذيب لا بحصول العلم بالعذاب الأليم وهو عذاب جهنم لا عذاب القبر فهم سيعذبون يوم القيامة وهو مستقبل وقوله تعالى (غداً) لقرب الزمان فى الإمكان والأذهان

إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾

ثم إن قلنا إن ذلك للتهديد بالتعذيب لا للتكذيب فلا حاجة إلى تفسيره بل يكون ذلك إعادة لقولهم من غير قصد إلى معناه ، وإن قلنا هو للرد والوعد ببيان انكشاف الأمر فقوله تعالى (سيعلمون غداً) معناه سيعلمون غداً أنهم الكاذبون الذين كذبوا لا لحاجة وضرورة ، بل بطروا وأشروا لما استغنوا ، وقوله تعالى (غداً) يحتمل أن يكون المراد يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون المراد يوم العذاب وهذا على الوجه الأول .

قوله تعالى : ﴿ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قوله (إنا مرسلوا الناقة) بمعنى الماضى أو بمعنى المستقبل ، إن كان بمعنى الماضى فكيف يقول (فارتقبهم واصطبر) وإن كان بمعنى المستقبل فما الفرق بين حكاية عاد وحكاية ثمود حيث قال هناك (إنا أرسلنا) وقال ههنا (إنا مرسلوا الناقة) بمعنى إنا نرسل ؟ نقول هو بمعنى المستقبل ، وما قبله وهو قوله (سيعلمون غداً) يدل عليه ، فان قوله (إنا مرسلوا الناقة) كالبيان له ، كأنه قال : (سيعلمون) حيث (نرسل الناقة) وما بعده من قوله (فارتقبهم) ونبئهم أيضاً يقتضى ذلك ، فإن قيل قوله تعالى (فنادوا) دليل على أن المراد الماضى قلنا سنجيب عنه فى موضعه ، وأما الفارق فنقول حكاية ثمود مستقصاة فى هذا الموضع حيث ذكر تكذيب القوم بالنذر وقولهم لرسولهم وتصديق الرسل بقوله (سيعلمون) وذكر المعجزة وهى الناقة وما فعلوه بها والعذاب والهلاك بذكر حكاية على وجه الماضى والمستقبل ليكون وصفه للنبى ﷺ كأنه حاضرها فيقتدى بصالح فى الصبر والدعاء إلى الحق ويثق بربه فى النصر على الأعداء بالحق فقال إنى مؤيدك بالمعجزة القاطعة ، واعلم أن الله تعالى ذكر فى هذه السورة خمس قصص ، وجعل القصة المتوسطة مذكورة على أتم وجه لأن حال صالح كان أكثر مشابهة بحال محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه أتى بأمر عجيب أرضى كان أعجب مما جاء به الأنبياء ، لأن عيسى عليه السلام أحيا الميت لكن الميت كان محلا للحياة فأثبت بإذن الله الحياه فى محل كان قابلا لها ، وموسى عليه السلام انقلبت عصاه ثعباناً فأثبت الله له فى الخشبة الحياة لكن الخشبة نبات كان له قوة فى النماء يشبه الحيوان فى النمو فهو أعجب ، وصالح عليه السلام كان الظاهر فى يده خروج الناقة من الحجر والحجر جماد لا محل للحياة ولا محل للنمو فيه والنبى ﷺ أتى بأعجب من الكل وهو التصرف فى جرم السماء الذى يقول المشرك لا وصول لأحد إلى السماء ولا إمكان لشقه وخرقه ، وأما الأرضيات فقالوا إنها أجسام مشتركة المواد يقبل كل واحد منها صورة الأخرى ، والسموات لا تقبل ذلك فلما أتى بما عرفوا فيه أنه لا يقدر على مثله آدمى كان أتم وأبلغ من معجزة صالح عليه السلام التى هى أتم معجزة من معجزات من كان من الأنبياء غير محمد ﷺ (وفيه لطيفة) وهو أن اسم الفاعل إذا كان بمعنى

الماضي . وذكر معه مفعوله فالواجب الإضافة تقول وحشى قاتل عم النبي صلى الله عليه وسلم . فإن قلنا قاتل عم النبي بالإعمال فلا بد من تقدير الحكاية في الحال كما في قوله تعالى (وكلبهم باسط ذراعيه) على أنه يحكى القصة في حال وقوعها تقول خرجت أمس فإذا زيد ضارب عمراً كما تقول يضرب عمراً ، وإن كان الضرب قد مضى ، وإذا كان بمعنى المستقبل فالأحسن الإعمال تقول إني ضارب عمراً غداً ، فإن قلت إني ضارب عمرو غداً حيث كان الأمر وقع وكان جاز لكنه غير الأحسن ، والتحقيق فيه أن قولنا ضارب وسارق وقاتل أسماء في الحقيقة غير أن لها دلالة على الفعل فإذا كان الفعل تحقق في الماضي فهو قد عدم حقيقة فلا وجود للفعل في الحقيقة ولا في التوقع فيجب الحمل على ما للاسم من الإضافة وترك ما للفعل من الأعمال لغلبة الإسمية وفقدان الفعل بالماضي ، وإذا كان الفعل حاضراً أو متوقعاً في الاستقبال فله وجود حقيقة أو في التوقع فتجوز الإضافة لصورة الاسم ، والإعمال لتوقع الفعل أو لوجوده ولكن الإعمال أولى لأن في الاستقبال لن يضرب يفيد لا يكون ضارباً فلا ينبغي أن يضاف ، أما الإعمال فهو ينبىء عن توقع الفعل أو وجوده ، لأنه إذا قال زيد ضارب عمراً فالسامع إذا سمع بضرب عمرو علم أنه يفعل فإذا لم يره في الحال يتوقعه في الاستقبال غير أن الإضافة تفيد تخفيفاً حيث سقط بها التنوين والنون فتختار لفظاً لا معنى ، إذا عرفت هذا فنقول (مرسلوا الناقة) مع ما فيه من التخفيف فيه تحقيق الأمر وتقديره كأنه وقع وكان بخلاف ما لو قيل إنا نرسل الناقة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فتنة مفعول له فتكون الفتنة هي المقصودة من الإرسال لكن المقصود منه تصديق النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو صالح عليه السلام لأنه معجزة فما التحقيق في تفسيره ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) أن المعجزة فتنة لأن بها يتميز حال من يثاب ممن يعذب ، لأن الله تعالى بالمعجزة لا يعذب الكفار إلا إذا كان ينبئهم بصدقه من حيث نبوته فالمعجزة ابتلاء لأنها تصديق، وبعد التصديق يتميز المصدق عن المكذب (وثانيهما) وهو أدق أن إخراج الناقة من الصخرة كان معجزة وإرسالها إليهم ودورانها فيما بينهم وقسمة الماء كان فتنة ولهذا قال (إنا مرسلوا الناقة فتنة) ولم يقل إنا مخرجوا الناقة فتنة ، والتحقيق في الفتنة والابتلاء والامتحان قد تقدم مراراً وإليه إشارة خفية وهي أن الله تعالى يهدي من يشاء وللهداية طرق ، منها ما يكون على وجه يكون للانسان مدخل فيه بالكسب ، مثاله يخلق شيئاً دالا ويقع تفكر الإنسان فيه ونظره إليه على وجه يترجح عنده الحق فيتبعه وتارة يلجئه إليه ابتداء ويصونه عن الخطأ من صغره فإظهار المعجز على يد الرسول أمر يهدى به من يشاء اهتداء مع الكسب وهداية الأنبياء من غير كسب منهم بل يخلق فيهم علوما غير كسبية فقوله (إنا مرسلوا الناقة فتنة) إشارة إليهم ، ولهذا قال لهم ومعناه على وجه يصلح لأن يكون فتنة وعلى هذا كل من كانت معجزته أظهر يكون ثواب قومه أقل ، وقوله تعالى (فارتقبهم) أي فارتقبهم بالعذاب ، ولم يقل فارتقب العذاب إشارة إلى حسن الأدب والاجتناب عن طلب الشر وقوله تعالى

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾

(واصطبر) يؤيد ذلك بمعنى إن كانوا يؤذونك فلا تستعجل لهم العذاب ، ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى قرب الوقت إلى أمرهما والأمر بحيث يعجز عن الصبر .

ثم قال تعالى ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴾ أى مقسوم وصف بالمصدر مراداً به المشتق منه كقوله ماء ملح وقول زور وفيه ضرب من المبالغة يقال للكريم كرم كأنه هو عين الكرم ويقال فلان لطف محض ، ويحتمل أن تكون القسمة وقعت بينهما لأن الناقة كانت عظيمة وكانت حيوانات القوم تنفر منها ولا ترد الماء وهى على الماء ، فصعب عليهم ذلك فجعل الماء بينهما يوماً للناقة ويوماً للقوم ، ويحتمل أن تكون لقلة الماء فشربه يوما للناقة ويوماً للحيونات ، ويحتمل أن يكون الماء كانَ بينهم قسمة يوم لقوم ويوم لقوم ولما خلق الله الناقة كانت ترد الماء يوم فكان الذين لهم الماء فى غير يوم ورودها يقولون الماء كله لنا فى هذا اليوم ويومكم كان أمس والناقة ما أخرت شيئاً فلا نمكنكم من الورود أيضاً فى هذا اليوم فيكون النقصان وارداً على الكل وكانت الناقة تشرب الماء بأسره وهذا أيضاً ظاهر ومنقول والمشهور هنا الوجه الأوسط ، ونقول إن قوماً كانوا يكتفون بلبنها يوم ورودها الماء والكل ممكن ولم يرد فى شيء خبر متواتر (والثالث) قطع وهو من القسمة لأنها مثبتة بكتاب الله تعالى أما كيفية القسمة والسبب فلا وقوله تعالى (كل شرب محتضر مما يؤيد الوجه الثالث أى كل شرب محتضر للقوم بأسرهم لأنه لو كان ذلك لبيان كون الشرب محتضراً للقوم أو الناقة فهو معلوم لأن الماء ما كان يترك من غير حضور وإن كان لبيان أنه تحضره الناقة يوماً والقوم يوماً فلا دلالة فى اللفظ عليه ، وأما إذا كانت العادة قبل الناقة على أن يرد الماء قوم فى يوم وآخرون فى يوم آخر ، ثم لما خلقت الناقة كانت تنقص شرب البعض وتترك شرب الباقين من غير نقصان ، فقال (كل شرب محتضر) كم أيها القوم فردوا كل يوم الماء وكل شرب ناقص تقاسموه وكل شرب كامل تقاسموه .

ثم قال تعالى ﴿ فنادوا صاحبهم ﴾ نداء المستغيث كأنهم قالوا ياقدار للقوم ، كما يقول القائل بالله للمسلمين وصاحبهم قدار وكان أشجع وأهجم على الأمور ويحتمل أن يكون رئيسهم .

وقوله تعالى ﴿ فتعاطى فعقر ﴾ يحتمل وجوها (الأول) تعاطى آلة العقر فعقر (الثانى) تعاطى الناقة فعقرها وهو أضعف (الثالث) التعاطى يطلق ويراد به الإقدام على الفعل العظيم والتحقيق هو أن الفعل العظيم يقدم كل أحد فيه صاحبه ويبرىء نفسه منه فمن يقبله ويقدم عليه يقال تعاطاه كأنه كان فيه تدافع فأخذه هو بعد التدافع (الرابع) أن القوم جعلوا له على عمله جعلا فتعاطاه وعقر الناقة

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾

ثم قال تعالى ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ وقد تقدم بيانه وتفسيره غير أن هذه الآية ذكرها في ثلاثة مواضع ذكرها في حكاية نوح بعد بيان العذاب ، وذكرها ههنا قبل بيان العذاب ، وذكرها في حكاية عاد قبل بيانه وبعد بيانه ، فحيث ذكر قبل بيان العذاب ذكرها للبيان كما تقول ضربت فلاناً أي ضرب وأيما ضرب ، وتقول ضربته وكيف ضربته أي قوياً ، وفي حكاية عاد ذكرها مرتين للبيان والاستفهام وقد ذكرنا السبب فيه ، ففي حكاية نوح ذكر الذي للتعظيم وفي حكاية ثمود ذكر الذي للبيان لأن عذاب قوم نوح كان بأمر عظيم عام وهو الطوفان الذي عم العالم ولا كذلك عذاب قوم هود فإنه كان مختصاً بهم .

قوله تعالى : ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾ سمعوا صيحة فماتوا وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ كان في قوله فكانوا من أي الأقسام ؟ نقول قال النحاة تجيء تارة بمعنى صار وتمسكوا بقول القائل :

بتيماء قفر والمطي كأنها قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

بمعنى صارت فقال بعض المفسرين في هذا موضع إنها بمعنى صار . والتحقيق أن كان لا تخالف غيرها من الأفعال الماضية اللازمة التي لا تتعدى والذي يقال إن كان تامة وناقصة وزائدة وبمعنى صار فليس ذلك يوجب اختلاف أحوالها اختلافا يفارق غيرها من الأفعال وذلك لأن كان بمعنى وجد أو حصل أو تحقق غير أن الذي وجد تارة يكون حقيقة الشيء وأخرى صفة من صفاته فإذا قلت كانت الكائنة وكن فيكون جعلت الوجود والحصول للشيء في نفسه فكأنك قلت وجدت الحقيقة الكائنة وكن أي احصل فيوجد في نفسه وإذا قلت كان زيد عالماً أي وجد علم زيد ، غير أنا نقول في وجد زيد عالماً إن عالماً حال . وفي كان زيد عالما نقول إنه خبر كقولنا حصل زيد عالما غير أن قولنا وجد زيد عالما ربما يفهم منه أن الوجود والحصول لزيد في تلك الحال كما تقول قام زيد منتحياً حيث يكون القيام لزيد في تلك الحال ، وقولنا كان زيد عالما ليس معناه كان زيد وفي تلك الحال هو عالم . لكن هذا لا يوجب أن كان على خلاف غيره من الأفعال اللازمة التي لها بالحال تعلق شديد ، لأن من يفهم من قولنا حصل زيد اليوم على أحسن حال ما نفهمه من قولنا خرج زيد اليوم في أحسن زي لا يمنعه مانع من أن يفهم من قولنا كان زيد على أحسن حال مثل ما فهم هناك ، إذا عرفت هذا فنقول الفعل الماضي يطلق تارة على ما يوجد في الزمان المتصل

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾

بالحاضر، كقولنا قام زيد فى صباه، ويطلق تارة على مايوجد فى الزمان الحاضر كقولنا قام زيد فقم وقم فان زيداً قام، وكذلك القول فى كان ربما يقال كان زيد قائماً عام كذا وربما يقال كان زيد قائماً الآن كما فى قام زيد فقوله تعالى (فكانوا) فيه استعمال الماضى فيما اتصل بالحال فهو كقولك أرسل عليهم صيحة فماتوا أى متصلا بتلك الحال، نعم لو استعمل فى هذا الموضع صار يجوز لكن كان وصار كل واحد بمعنى فى نفسه وليس وإنما يلزم حمل كان على صار إذا لم يمكن أن يقال هو كذا كما فى البيت حيث لا يمكن أن يقال البيوض فراخ ، وأما هنا يمكن أن يقال هم كهشيم ولولا الكاف لأمكن أن يقال يجب حمل كان على صار إذا كان المراد أنهم انقلبوا هشيما كما يقلب الممسوخ وليس المراد ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الهشيم ؟ نقول هو المهشوم أى المكسور وسمى هاشم هاشما لهشمه الثريد فى الجفان غير أن الهشيم استعمل كثيراً فى الحطب المتكسر اليابس ، فقال المفسرون كانوا كالحشيش الذى يخرج من الحظائر بعد البلا بتفتت ، واستدلوا عليه بقوله تعالى (هشيما تذروه الرياح) وهو من باب إقامة الصفة مقام الموصوف كما يقال رأيت جريحاً ومثله السعير .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لماذا شبههم به ؟ قلنا يحتمل أن يكون التشبيه بكونهم يابسين كالحشيش بين الموتى الذين ماتوا من زمان وكأنه يقول سمعوا الصيحة فكانوا كأنهم ماتوا من أيام ، ويحتمل أن يكون لأنهم انضموا بعضهم إلى بعض كما ينضم الرفقاء عند الخوف داخلين بعضهم فى بعض فاجتمعوا بعضهم فوق بعض كحطب الحاطب الذى يصفه شيئاً فوق شىء منتظراً حضور من يشترى منه شيئاً فان الحطاب الذى عنده الحطب الكثير يجعل منه كالحظيرة ، ويحتمل أن يكون ذلك لبيان كونهم فى الجحيم أى كانوا كالحطب اليابس الذى الوقيد فهو محقق لقوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) وقوله تعالى (فكانوا لجهنم حطباً) وقوله (أغرقوا فأدخلوا ناراً) كذلك ماتوا فصاروا كالحطب الذى لا يكون إلا للاحراق لأن الهشيم لا يصلح للبناء .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن الذكر فهل من مدكر ﴾ والتكرار للتذكار .

ثم بين حال قوم آخرون وهم قوم لوط فقال ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ﴾ .

ثم بين عذابهم وإهلاكهم ، فقال ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ الحاصب فاعل من حصب إذا رمى الحصباء وهى اسم الحجارة والمرسل عليهم

هو نفس الحجارة قال الله تعالى (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) وقال تعالى عن الملائكة (لنرسل عليهم حجارة من طين) فالمرسل عليهم ليس بحاصب فكيف الجواب عنه ؟ نقول الجواب من وجوه (الأول) أرسلنا عليهم ريحاً حاصباً بالحجارة التي هي الحصباء وكثر استعمال الحاصب في الريح الشديدة فأقام الصفة مقام الموصوف ، فان قيل : هذا ضعيف من حيث اللفظ والمعنى ، أما اللفظ فلأن الريح مؤنثة قال تعالى (بريح صرصر عاتية ، بريح طيبة) وقال تعالى (إنا سخرنا له الريح تجرى بأمره) وقال تعالى (غدوها شهر) وقال تعالى في ([وأرسلنا] الرياح لواقح) وما قال لقاحا ولا لقحة ، وأما المعنى فلأن الله تعالى بين أنه أرسل عليهم حجارة من سجيل مسومة عليها علامة كل واحد وهي لا تسمى حصباء ، وكان ذلك بأيدي الملائكة لا بالريح ، نقول : تأنيث الريح ليس حقيقة ولها أصناف الغالب فيها التذكير كالإعصار ، قال تعالى (فأصابها إعصار فيه نار) ولما كان حاصب حجارة كان كالذي فيه نار ، وأما قوله كان الرمي بالسجيل لا بالحصباء ، وبأيدي الملائكة لا بالريح ، فنقول كل ريح يرمى بحجارة يسمى حاصباً ، وكيف لا والسحاب الذي يأتي بالبرد يسمى حاصباً تشبيهاً للبرد بالحصباء ، فكيف لا يقال في السجيل . وأما الملائكة فإنهم حركوا الريح وهي حصبت الحجارة عليهم (الجواب الثاني) المراد عذاب حاصب وهذا أقرب لتناوله الملك والحساب والريح وكل ما يفرض (الجواب الثالث) قوله (حاصباً) هو أقرب من الكل لأن قوله (إنا أرسلنا) يدل على مرسل هو مرسل الحجارة وحاصبها ، فان قيل كان ينبغي أن يقول حاصبين ، نقول لما لم يذكر الموصوف رجح جانب اللفظ كأنه قال شيئاً حاصباً إذ المقصود بيان جنس العذاب لا بيان من على يده العذاب ، وهذا وارد على من قال الريح مؤنث لأن ترك التأنيث هناك كترك علامة الجمع هنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما رتب الإرسال على التكذيب بالفاء فلم يقل (كذبت قوم لوط بالنذر) فأرسلنا كما قال (ففتحنا أبواب السماء) لأن الحكاية مسوقة على مساق ما تقدم من الحكايات ، فكأنه قال (فكيف كان عذابي ونذر) كما قال من قبل ثم قيل لا علم لنا به وإنما أنت العليم فأخبرنا ، فقال (إنا أرسلنا) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما الحكمة في ترك العذاب حيث لم يقل (فكيف كان عذابي) كما قال في الحكايات الثلاث ، نقول لأن التكرار ثلاث مرات بالغ ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « ألا هل بلغت ثلاثاً » وقال صلى الله عليه وسلم « فنكاحها باطل باطل باطل » والإذكار تكرر ثلاث مرات فبثلاث مرار حصل التأكيد وقد بينا أنه تعالى ذكر (فكيف كان عذابي) في حكاية نوح للتعظيم . وفي حكاية ثمود للبيان وفي حكاية عاد أعادها مرتين للتعظيم والبيان جميعا واعلم أنه تعالى ذكر (فكيف كان عذابي) في ثلاث حكايات أربع مرات فالمرة الواحدة للانذار ، والمرات الثلاث للاذكار ، لأن المقصود حصل بالمرة الواحدة ، وقوله تعالى (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ذكره مرة للبيان وأعادها ثلاثين مرة غير المرة الأولى كما أعاد (فكيف كان عذابي ونذر) ثلاث مرات غير المرة

الأولى فكان ذكر الآلاء عشرة أمثال ذكر العذاب إشارة إلى الرحمة التى قال فى بيانها (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) وسنبين ذلك فى سورة (الرحمن).

﴿ المسألة الرابعة ﴾ (إلا آل لوط) استثناء مما ذا ؟ إن كان من الذين قال فيهم (إنا أرسلنا عليهم حاصباً) فالضمير فى عليهم عائد إلى قوم لوط وهم الذين قال فيهم (كذبت قوم لوط) ثم قال(إنا أرسلنا عليهم) لكن لم يستثن عند قوله (كذبت قوم لوط) وآله من قومه فيكون آله قد كذبوا ولم يكن كذلك ؟ الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الاستثناء ممن عاد إليهم الضمير فى عليهم وهم القوم بأسرهم غير أن قوله كذبت قوم لوط لا يوجب كون آله مكذبين ، لأن قول القائل عصى أهل بلدة كذا يصح وإن كان فيها شرذمة قليلة يطيعون فكيف إذا كان فيهم واحد أو اثنان من المطيعين لا غير ، فإن قيل ماله حاجة إلى الاستثناء لأن قوله (إنا أرسلنا عليهم) يصح وإن نجا منهم طائفة يسيرة نقول الفائدة لما كانت لا تحصل إلا ببيان إهلاك من كذب وإنجاء من آمن فكان ذكر الإنجاء مقصودا ، وحيث يكون القليل من الجمع الكثير مقصوداً لا يجوز التعميم والاطلاق من غير بيان حال ذلك المقصود بالاستثناء أو بكلام منفصل مثاله (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس) استثنى الواحد لأنه كان مقصوداً ، وقال تعالى (وأوتيت من كل شيء) ولم يستثن إذ المقصود بيان أنها أوتيت ، لا بيان أنها ما أوتيت ، وفى حكاية إبليس كلاهما مراد ليعلم أن من تكبر على آدم عوقب ومن تواضع أثيب كذلك القول ههنا ، وأما عند التكذيب فكأن المقصود ذكر المكذبين فلم يستثن (الجواب الثانى) أن الاستثناء من كلام مدلول عليه ، كأنه قال (إنا أرسلنا عليهم حاصباً) فما أنجينا من الحاصب إلا آل لوط ، وجاز أن يكون الإرسال عليهم والإهلاك يكون عاما كما فى قوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) فكان الحاصب أهلك من كان الإرسال عليه مقصوداً ومن لم يكن كذلك كأطفالهم ودوابهم ومساكنهم فما نجا منهم أحد إلا آل لوط . فان قيل إذا لم يكن الاستثناء من قوم لوط بل كان من أمر عام فيجب أن يكن لوط أيضاً مستثنى ؟ نقول هو مستثنى عقلا لأن من المعلوم أنه لا يجوز تركه وإنجاء أتباعه والذى يدل عليه أنه مستثنى قوله تعالى عن الملائكة (نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته) فى جوابهم لإبراهيم عليه السلام حيث قال(إن فيها لوطاً)فإن قيل قوله فى سورة الحجر(إلا آل لوط إنا لمنجوهم) استثناء من المجرمين وآل لوط لم يكونوا مجرمين فكيف استثنى منهم ؟ والجواب مثل ماذكرنا فأحد الجوابين إنا أرسلنا إلى قوم يصدق عليهم إنهم مجرمون وإن كان فيهم من لم يجرم (ثانيهما) إلى قوم مجرمين بإهلاك يعم الكل إلا آل لوط ، وقوله تعالى (نجيناهم بسحر) كلام مستأنف لبيان وقت الإنجاء أو لبيان كيفية الاستثناء لأن آل لوط كان يمكن أن يكونوا فيهم ولا يصيبهم الحاصب كما فى عاد كانت الريح تقلع الكافر ولا يصيب المؤمن منها مكروه أو يجعل لهم مدفعاً كما فى قوم نوح ، فقال (نجيناهم بسحر) أى أمرناهم بالخروج من القرية فى آخر الليل والسحر قبيل الصبح وقيل هو السدس الأخير من الليل

نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾

ثم قال تعالى ﴿ نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر ﴾ أى ذلك الإنجاء كان فضلا منا كما أن ذلك الإهلاك كان عدلا ولو أهلكوا لكان ذلك عدلا ، قال تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) قال الحكماء العضو الفاسد يقطع ولا بد أن يقطع معه جزء من الصحيح ليحصل استئصال الفساد ، غير أن الله تعالى قادر على التمييز التام فهو مختار إن شاء أهلك من آمن وكذب ، ثم يثبت الذين أهلكهم من المصدقين فى دار الجزاء وإن شاء أهلك من كذب ، فقال نعمة من عندنا إشارة إلى ذلك وفى نصبها وجهان (أحدهما) أنه مفعول له كأنه قال : نجيناهم نعمة منا (ثانيهما) على أنه مصدر ، لأن الإنجاء منه إنعام فكأنه تعالى قال أنعمنا عليهم بالإنجاء إنعاما وقوله تعالى (كذلك نجزى من شكر) فيه وجهان (أحدهما) ظاهر وعليه أكثر المفسرين وهو أنه من آمن كذلك ننجيه من عذاب الدنيا ولا نهلكه وعداً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنين بأنه يصونهم عن الإهلاكات العامة والسيئات المطبقة الشاملة (وثانيهما) وهو الأصح أن ذلك وعدلهم وجزاؤهم بالثواب فى دار الآخرة كأنه قال كما نجيناهم فى الدنيا ، أى كما أنعمنا عليهم ننعم عليهم يوم الحساب والذى يؤيد هذا أن النجاة من الإهلاكات فى الدنيا ليس بلازم ، ومن عذاب الله فى الآخرة لازم بحكم الوعيد ، وكذلك ينجى الله الشاكرين من عذاب النار ويذر الظالمين فيه ، ويدل عليه قوله تعالى (من يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين) وقوله تعالى (فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) والشاكر محسن فعلم أن المراد جزاؤهم فى الآخرة .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ﴾ وفيه تبرئة لوط عليه السلام وبيان أنه أتى بما عليه فانه تعالى لما رتب التعذيب على التكذيب وكان من الرحمة أن يؤخره ويقدم عليه الإنذارات البالغة بين ذلك فقال أهلكناهم وكان قد أنذرهم من قبل ، وفى قوله (بطشتنا) وجهان (أحدهما) المراد البطشة التى وقعت وكان يخوفهم بها ، ويدل عليه قوله تعالى (إنا أرسلنا عليهم حاصباً) فكأنه قال : إنا أرسلنا عليهم ماسبق ، ذكرها للانذار بها والتخويف (وثانيهما) المراد بها ما فى الآخرة كما فى قوله تعالى (يوم نبطش البطشة الكبرى) وذلك لأن الرسل كلهم كانوا ينذرون قومهم بعذاب الآخرة كما قال تعالى (فأنذرتكم ناراً تلظى) وقال (وأنذرهم يوم الآزفة) وقال تعالى (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً) إلى غير ذلك ، وعلى ذلك ففيه لطيفة وهى أن الله تعالى قال (إن بطش ربك لشديد) وقال ههنا (بطشتنا) ولم يقل بطشنا وذلك لأن قوله تعالى (إن بطش

وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾

ربك لشديد) بيان لجنس بطشه ، فاذا كان جنسه شديداً فكيف الكبرى منه ، وأما لوط عليه السلام فذكر لهم البطشة الكبرى لئلا يكون مقصراً فى التبليغ ، وقوله تعالى (فتماروا بالنذر) يدل على أن النذر هى الإنذارات .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذقوا عذابى ونذر ﴾ والمراودة من الرود ، ومنه الإرادة وهى قريبة من المطالبة غير أن المطالبة تستعمل فى العين يقال طالب زيد عمراً بالدراهم ، والمراودة لاتستعمل إلا فى العمل يقال راوده عن المساعدة ، ولهذا تعدى المراوردة إلى مفعول ثان بعن ، والمطالبة بالباء ، وذلك لأن الشغل منوط باختيار الفاعل ، والعين قد توجد من غير اختيار منه وهذا فرق الحال ، فاذا قلت أخبرنى بأمره تعين عليه الخبر العين ، بخلاف ما إذا قيل عن كذا ، ويزيد هذا ظهوراً قول القائل أخبرنى زيد عن مجىء فلان ، وقوله أخبرنى بمجيئه فان من قال عن مجيئه ربما يكون الإخبار عن كيفية المجىء لا عن نفسه وأخبرنى بمجيئه لا يكون إلا عن نفس المجىء والضيف يقع على الواحد والجماعة ، وقد ذكرناه فى سورة الذاريات وكيفية المراودة مذكورة فيما تقدم ، وهى أنهم كانوا مفسدين وسمعوا بضيف دخلوا على لوط فراودوه عنهم . وقوله (فطمسنا أعينهم) نقول إن جبريل كان فيهم فضرب ببعض جناحه على وجوههم فأعماهم ، وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ الضمير فى راودوه إن كان عائداً إلى قوم لوط فما فى قوله (أعينهم) أيضاً عائداً إليهم فيكون قد طمس أعين قوم ولم يطمس إلا أعين قليل منهم وهم الذين دخلوا دار لوط ، وإن كان عائداً إلى الذين دخلوا الدار فلا ذكر لهم فكيف القول فيه ؟ نقول المراودة حقيقة حصلت من جمع منهم لكن لما كان الأمر من القوم وكان غيرهم ذلك مذهبه أسندها إلى الكل ثم بقوله راودوه حصل قوم هم المراودون حقيقة فعاد الضمير فى أعينهم إليهم مثاله قول القائل الذين آمنوا صلوا فصحت صلاتهم فيكون هم فى صلاتهم عائداً إلى الذين صلوا بعد ما آمنوا ولا يعود إلى مجرد الذين آمنوا لأنك لو اقتصرت على الذين آمنوا فصحت صلاتهم لم يكن كلاماً منظوماً ولو قلت الذين صلوا فصحت صلاتهم صح الكلام ، فعلم أن الضمير عائد إلى ما حصل بعد قوله (راودوه) والضمير فى راودوه عائد إلى المنذرين المتمارين بالنذر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال ههنا (فطمسنا أعينهم) وقال فى يس (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) فما الفرق ؟ نقول هذا مما يؤيد قول ابن عباس فإنه نقل عنه أنه قال المراد من الطمس الحجب عن الإدراك فما جعل على بصرهم شىء غير أنهم دخلوا ولم يروا هناك شيئاً فكانوا كالمطموسين ، وفى يس أراد أنه لو شاء لجعل على بصرهم غشاوة ، أى ألزق أحد الجفنين بالآخر فيكون على

العين جلدة فيكون قد طمس عليها ، وقال غيره إنهم عموا وصارت عينهم مع وجههم كالصفحة الواحدة ، ويؤيده قوله تعالى (فذوقوا عذابى) لأنهم إن بقوا مصرين ولم يروا شيئاً هناك لا يكون ذلك عذاباً والطمس بالمعنى الذى قاله غير ابن عباس عذاب ، فنقول الأولى أن يقال إنه تعالى حكى ههنا ما وقع وهو طمس العين وإذهاب ضوئها وصورتها بالكلية حتى صارت وجوههم كالصفحة الملساء ولم يمكنهم الإنكار لأنه أمر وقع ، وأما هناك فقد خوفهم بالممكن المقدور عليه فاختار ما يصدقه كل أحد ويعرف به وهو الطمس على العين ، لأن إطباق الجفن على العين أمر كثير الوقوع وهو بقدرة الله تعالى وإرادته فقال (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) وما شققنا جفنهم عن عينهم وهو أمر ظاهر الإمكان كثير الوقوع والطمس على ماوقع لقوم لوط نادر ، فقال هناك على أعينهم ليكون أقرب إلى القبول .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (فذوقوا عذابى ونذر) خطاب بمن وقع ومع من وقع ؟ قلنا فيه وجوه (أحدها) فيه إضمار تقديره فقلت على لسان الملائكة ذوقوا عذابى (ثانيها) هذا خطاب مع كل مكذب تقديره كنتم تكذبون فذوقوا عذابى فإنهم لما كذبوا ذاقوه (ثالثها) أن هذا الكلام خرج مخرج كلام الناس فإن الواحد من الملوك إذا أمر بضرب مجرم وهو شديد الغضب فإذا ضرب ضرباً مبرحا وهو يصرخ والملك يسمع صراخه يقول عند سماع صراخه ذق إنك مجرم مستأهل ويعلم الملك أن المعذب لايسمع كلامه ويخاطب بكلامه المستغيث الصارخ . وهذا كثير فكذلك لما كان كل أحد بمرأى من الله تعالى يسمع إذا عذب معانداً كان قد سخط الله عليه يقول (ذق إنك أنت العزيز الكريم) (ذوقوا لقاء يومكم هذا) (فذوقوا عذابى) ولا يكون به مخاطباً لمن يسمع ويجيب ، وذلك إظهار العدل أى لست بغافل عن تعذيبك فتتخلص بالصراخ والضراعة ، وإنما أنا بك عالم وأنت له أهل لما قد صدر منك ، فان قيل هذا وقع بغير الفاء ، وأما بالفاء فلا تقول و بالفاء فإنه ربما يقول كنتم تكذبون فذوقوا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ النذر كيف يذاق ؟ نقول معناه ذق فعلك أى مجازاة فعلك وموجبه ويقال ذق الألم على فعلك وقوله (فذوقوا عذابى) كقولهم ذق الألم ، وقوله (ونذر) كقولهم ذق فعلك أى ذق مالزم من إنذارى ، فان قيل فعلى هذا لا يصح العطف لأن قوله (فذوقوا عذابى) ومالزم من إنذارى وهو العذاب يكون كقول القائل ذوقوا عذابى وعذابى ؟ نقول قوله تعالى (فذوقوا عذابى) أى العاجل منه ، وما لزم من إنذارى وهو العذاب الآجل ، لأن الإنذار كان به على ماتقدم بيانه ، فكأنه قال : ذوقوا عذابى العاجل وعذابى الآجل ، فإن قيل هما لم يكونا فى زمان واحد ، فكيف يقال ذوقوا ، نقول العذاب الآجل أوله متصل بآخر العذاب العاجل ، فهما كالواقع فى زمان واحد وهو كقوله تعالى (أغرقوا فأدخلوا ناراً) .

وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾

ثم قال تعالى ﴿ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ أى العذاب الذى عم القوم بعد الخاص الذى طمس أعين البعض ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (صبحهم) فيه دلالة على الصبح ، فما معنى (بكرة) ؟ نقول فائدته تبيين انطراقه فيه ، فقوله (بكرة) يحتمل وجهين (أحدهما) أنها منصوبة على أنها ظرف ، ومثله نقول فى قوله تعالى (أسرى بعبده ليلا) وفيه بحث ، وهو أن الزمخشرى قال : ما الفائدة فى قوله (ليلا) وقال جواباً فى التنكير دلالة على أنه كان فى بعض الليل ، وتمسك بقراءة من قرأ (من الليل) وهو غير ظاهر ، والأظهر فيه أن يقال بأن الوقت المبهم يذكر لبيان أن تعيين الوقت ليس بمقصود المتكلم وأنه لايريد بيانه ،كما يقول : خرجنا فى بعض الأوقات ، مع أن الخروج لا بد من أن يكون فى بعض الأوقات ، فإنه لايريد بيان الوقت المعين ، ولو قال خرجنا ، فربما يقول السامع متى خرجتم ، فإذا قال فى بعض الأوقات أشار إلى أن غرضه بيان الخروج لا تعيين وقته ، فكذلك قوله تعالى (صبحهم بكرة) أى بكرة من البكر (وأسرى بعبده ليلا) أى ليلا من الليالى فلا أبينه ، فإن المقصود نفس الإسراء ، ولو قال أسرى بعبده من المسجد الحرام ، لكان للسامع أن يقول إيما ليلة ؟ فإذا قال ليلة من الليالى قطع سؤاله وصار كأنه قال لا أبينه ، وإن كان القائل ممن يجوز عليه الجهل ، فإنه يقول لا أعلم الوقت ، فهذا أقرب فإذا علمت هذا فى أسرى ليلا ، فاعلم مثله فى (صبحهم بكرة) ويحتمل أن يقال على هذا الوجه (صبحهم) بمعنى قال لهم . عموا صباحاً استهزاء بهم ،كما قال (فبشرهم بعذاب أليم) فكأنه قال : جاءهم العذاب بكرة كالمصبح ، والأول أصح ، ويحتمل فى قوله تعالى (صبحهم بكرة) على قولنا إنها منصوبة على الظرف ما لا يحتمله قوله تعالى (أسرى بعبده ليلا) وهو أن (صبحهم) معناه أتاهم وقت الصبح ، لكن التصبيح يطلق على الإتيان فى أزمنة كثيرة من أول الصبح إلى ما بعد الإسفار ، فإذا قال (بكرة) أفاد أنه كان أول جزء منه ، وما أخر إلى الإسفار ، وهذا أوجه وأليق . لأن الله تعالى أوعدهم به وقت الصبح ، بقوله (إن موعدهم الصبح) وكان من الواجب بحكم الإخبار تحققه بمجيء العذاب فى أول الصبح ، ومجرد قراءة (صبحهم) ما كان يفيد ذلك ، وهذا أقوى لأنك تقول : صبيحة أمس بكرة واليوم بكرة ، فيأتى فيه ماذكرنا من أن المراد بكرة من البكر (الوجه الثانى) أنها منصوبة على المصدر من باب ضربته سوطاً ضرباً فإن المنصوب فى ضربته ضرباً على المصدر ، وقد يكون غير المصدر كما فى ضربته سوطاً ضرباً ، لا يقال ضرباً سوطاً بين أحد أنواع الضرب ، لأن الضرب قد يكون بسوط وقد يكون بغيره ، وأما (بكرة) فلا يبين ذلك ، لأنا نقول قد بينا أن بكرة تبين ذلك ، لأن الصبح قد يكون بالإتيان وقت الإسفار ، وقد يكون بالإتيان بالأبكار ، فإن قيل مثله يمكن أن يقال فى

فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِئَايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾

(أسرى بعبده ليلا) قلنا نعم ، فإن قيل ليس هناك بيان نوع من أنواع الإسراء ، نقول هو كقول القائل : ضربته شيئاً ، فإن شيئاً لا بد منه فى كل ضرب ، ويصح ذلك على أنه نصب على المصدر ، وفائدته ما ذكرنا من بيان عدم تعلق الغرض بأنواعه ، وكأن القائل يقول . إنى لا أبين ما ضربته به ، ولا أحتاج إلى بيانه لعدم تعلق المقصود به ليقطع سؤال السائل : بماذا ضربه بسوط أو بعصا ، فكذلك القول فى (أسرى بعبده ليلا) يقطع سؤال السائل عن الإسراء ، لأن الإسراء هو السير أول الليل ، والسرى هو السير آخر الليل أو غير ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (مستقر) يحتمل وجوهاً (أحدها) عذاب لا مدفع له ، أى يستقر عليهم ويثبت ، ولا يقدر أحد على إزالته ورفعه . أو إحالته ودفعه (ثانيها) دائم ، فإنهم لما أهلكوا نقلوا إلى الجحيم ، فكأن ما أتاهم عذاب لا يندفع بموتهم ، فإن الموت يخلص من الألم الذى يجده المضروب من الضرب والمحبوس من الحبس ، وموتهم ما خلصهم (ثالثها) عذاب مستقر عليهم لا يتعدى غيرهم ، أى هو أمر قد قدره الله عليهم وقرره فاستقر ، وليس كما يقال إنه أمر أصابهم إتفاقاً كالبرد الذى يضر زرع قوم دون قوم ، ويظن به أنه أمر اتفاقى ، وليس لو خرجوا من أما كنهم لنجوا كما نجا آل لوط ، بل كان ذلك يتبعهم ، لأنه كان أمراً قد استقر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الضمير فى (صبحهم) عائد إلى الذين عاد إليهم الضمير فى أعينهم فيعود لفظاً إليهم للقرب ، ومعنى إلى الذين تماروا بالنذر ، أو الذين عاد إليهم الضمير فى قوله (ولقد أنذرهم بطشتنا) .

ثم قال تعالى ﴿ فذوقوا عذابى ونذر ﴾ مرة أخرى ، لأن العذاب كان مرتين (أحدهما) خاص بالمراودين ، والآخر عام .

وقوله تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ قد فسرناه مراراً وبينا ما لأجله تكراراً ثم قال تعالى ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الفائدة فى لفظ (آل فرعون) بدل قوم فرعون ؟ نقول القوم أعم من الآل ، فالقوم كل من يقوم الرئيس بأمرهم أو يقومون بأمره ، والآل كل من يؤول إلى

الرئيس خيرهم وشرهم أو يؤول إليهم خيره وشره ، فالبعيد الذى لا يعرفه الرئيس ولا يعرف هو عين الرئيس وإنما يسمع اسمه ، فليس هو بآله ، إذا عرفت الفرق ، نقول قوم الأنبياء الذين هم غير موسى عليهم السلام ، لم يكن فيهم قاهر يقهر الكل ويجمعهم على كلمة واحدة ، وإنما كانوا هم رؤساء وأتباعاً ، والرؤساء إذا كثروا لا يبقى لأحد منهم حكم نافذ على أحد ، أما على من هو مثله فظاهر ، وأما على الأراذل فلأنهم يلجئون إلى واحد منهم ويدفعون به الآخر ، فيصير كل واحد برأسه ، فكأن الإرسال إليهم جميعاً ، وأما فرعون فكان قاهراً يقهر الكل ، وجعلهم بحيث لا يخالفونه فى قليل ولا كثير ، فأرسل الله إليه الرسول وحده ، غير أنه كان عنده جماعة من التابعين المقربين مثل قارون تقدم عنده لماله العظيم ، وهامان لدهائه ، فاعتبرهم الله فى الإرسال ، حيث قال فى مواضع (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه) وقال تعالى (بآياتنا إلى فرعون وهامان وقارون) وقال فى العنكبوت (وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى) لأنهم إن آمنوا آمن الكل بخلاف الأقوام الذين كانوا قبلهم وبعدهم ، فقال (ولقد جاء آل فرعون النذر) وقال كثيراً مثل هذا كما فى قوله (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) ، (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) وقال بلفظ الملأ أيضاً كثيراً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (ولقد جاء) ولم يقل فى غيرهم جاء لأن موسى عليه السلام ما جاءهم ، كما جاء المرسلون أقوامهم ، بل جاءهم حقيقة حيث كان غائباً عن القوم فقدم عليهم ، ولهذا قال تعالى (فلما جاء آل لوط المرسلون) وقوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) حقيقة أيضاً لأنه جاءهم من الله من السموات بعد المعراج ، كما جاء موسى قومه من الطور حقيقة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ النذر إن كان المراد منها الإنذارات وهو الظاهر ، فالكلام الذى جاءهم على لسان موسى ويده تلك ، وإن كان المراد الرسل فهو لأن موسى وهرون عليهما السلام جاءه وكل مرسل تقدمهما جاء لأنهم كلهم قالوا ما قالا من التوحيد وعبادة الله وقوله بعد ذلك (كذبوا بآياتنا) من غير فاء تقتضى ترتب التكذيب على المجىء فيه وجهان (أحدهما) أن الكلام تم عند قوله (ولقد جاء آل فرعون النذر) وقوله (كذبوا) كلام مستأنف والضمير عائد إلى كل من تقدم ذكرهم من قوم نوح إلى آل فرعون (ثانيهما) أن الحكاية مسوقة على سياق ما تقدم ، فكأنه قال : (فكيف كان عذابى ونذر) وقد كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم ، وعلى الوجه الأول آياتنا كلها ظاهرة ، وعلى الوجه الثانى المراد آياته التى كانت مع موسى عليه السلام وهى التسع فى قول أكثر المفسرين ، ويحتمل أن يقال المراد أنهم كذبوا بآيات الله كلها السمعية والعقلية فإن فى كل شىء له آية تدل على أنه واحد .
وقوله تعالى (فأخذناهم) إشارة إلى أنهم كانوا كالآبقين أو إلى أنهم عاصون يقال أخذ الأمير فلاناً إذا حبسه ، وفى قوله (عزيز مقتدر) لطيفة وهى أن العزيز المراد منه الغالب لكن العزيز قد يكون [الذى] يغلب على العدو ويظفر به وفى الأول يكون غير متمكن من أخذه لبعده إن كان هارباً ولمنعته إن

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾

كان محارباً ، فقال أحد غالب لم يكن عاجزاً وإنما كان ممهلا .

ثم قال تعالى ﴿أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر﴾ تنبيهاً لهم لئلا أمنوا العذاب فإنهم ليسوا بخير من أولئك الذين أهلكوا وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ الخطاب مع أهل مكة فينبغى أن يكون كفارهم بعضهم وإلا لمال أنتم خير من أولئكم ، وإذا كان كفارهم بعضهم فكيف قال (أم لكم براءة) ولم يقل أم لهم كما يقول القائل جاءنا الكرماء فأكرمناهم ، ولا يقول فأكرمناكم ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المراد منه أكفاركم المستمرون على الكفر الذين لا يرجعون وذلك لأن جمعاً عظيما ممن كان كافراً من أهل مكة يوم الخطاب آمنوا بوقوع ذلك ، والعذاب لا يقع إلا بعد العلم بأنه لم يبق من القوم من يؤمن فقال : الذين يصرون منكم على الكفر بأهل مكة خير ، أم الذين أصروا من قبل ؟ فيصح كون التهديد مع بعضهم ، وأما قوله تعالى (أم لكم براءة) ففيه وجهان (أحدهما) أم لكم لعمومكم براءة فلا يخاف المصر منكم لكونه فى قوم لهم براءة (وثانيهما) أم لكم براءة إن أصررتم فيكون الخطاب عاما والتهديد كذلك ، فالشرط غير مذكور وهو الإصرار .

﴿المسألة الثانية﴾ ما المراد بقوله خير ، وقول القائل خير يقتضى اشتراك أمرين فى صفة محمودة مع رجحان أحدهما على الآخر ولم يكن فيهم خير ولا صفة محمودة ؟ نقول : الجواب عنه من وجوه (أحدها) منع اقتضاء الاشتراك يدل عليه قول حسان :

[أتهجوه ولست له بكفء] فشركما لخيركما الفداء

مع اختصاص الخير بالنبى عليه السلام والشر بمن هجاه وعدم اشتراكهما فى شيء منهما (ثانيها) أن ذلك عائد إلى ما فى زعمهم أى . أيزعم كفاركم أنهم خير من الكفار المتقدمين الذين أهلكوا وهم كانوا يزعمون فى أنفسهم الخير ، وكذا فيمن تقدمهم من عبدة الأوثان ومكذبى الرسل وكانوا يقولون إن الهلاك كان بأسباب سماوية من اجتماع الكواكب على هيئة مذمومة (ثالثها) المراد : أكفاركم أشد قوة ، فكأنه قال أكفاركم خير فى القوة ؟ والقوة محمودة فى العرف (رابعها) أن كل موجود ممكن ففيه صفات محمودة وأخرى غير محمودة فاذا نظرت إلى المحمودة فى الموضعين وقابلت إحداهما بالأخرى ، تستعمل فيها لفظ الخير ، وكذلك فى الصفات المذمومة تستعمل فيها لفظ الشر ؟ فاذا نظرت إلى كافرين وقلت أحدهما خير من الآخر فلك حينئذ أن تريد أحدهما خير من الآخر فى الحسن والجمال ، وإذا نظرت إلى مؤمنين بؤذيانك قلت أحدهما شر من الآخر ، أى فى الأذية لا الإيمان فكذلك ههنا أكفاركم خير لأن النظر وقع على ما يصلح خلاصاً لهم من العذاب ، فهو كما يقال أكفاركم فيهم شيء مما يخلصهم لم يكن فى غيرهم فهم خير أم لا شيء فيهم يخلصهم لكن الله بفضله أمنهم لا بخصال فيهم .

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أم لكم براءة إشارة إلى سبب آخر من أسباب الخلاص ، وذلك لأن الخلاص إما أن يكون بسبب أمر فيهم أو لا يكون كذلك ، فإن كان بسبب أمر فيهم وذلك السبب لم يكن فى غيرهم من الذين تقدموهم فيكونون خيراً منهم وإن كان لا بسبب أمر فيهم فيكون بفضل الله ومسامحته إياهم وإيمانه إياهم من العذاب فقال لهم أنتم خير منهم فلا تهلكون أم لستم بخير منهم لكن الله آمنكم وأهلكهم وكل واحد منهما منتف فلا تأمنوا ، وقوله تعالى (أم لكم براءة فى الزبر) إشارة إلى لطيفة وهى أن العاقل لا يأمن إلا إذا حصل له الجزم بالأمن أو صار له آيات تقرب الأمر من القطع ، فقال لكم براءة يوثق بها وتكون متكررة فى الكتب ، فإن الحاصل فى بعض الكتب ربما يحتمل التأويل أو يكون قد تطرق إليه التحريف والتبديل كما فى التوراة والإنجيل ، فقال هل حصل لكم براءة متكررة فى كتب تأمنون بسببها العذاب فإن لم يكن كذلك لا يجوز الأمن لكن البراءة لم تحصل فى كتب ولا كتاب واحد ولا شبه كتاب ، فيكون أمنهم من غاية الغفلة . وعند هذا تبين فضل المؤمن ، فإنه مع ما فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، من الوعد لا يأمن وإن بلغ درجة الأولياء والأنبياء ، لما فى آيات الوعيد من احتمال التخصيص ، وكون كل واحد ممن يستثنى من الأمة ويخرج عنها فالمؤمن خائف والكافر آمن فى الدنيا ، وفى الآخرة الأمر على العكس .

ثم قال تعالى ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ تتميما لبيان أقسام الخلاص وحصره فيها ، وذلك لأن الخلاص إما أن يكون لاستحقاق من يخلص عن العذاب كما أن الملك إذا عذب جماعة ورأى فيهم من أحسن إليه فلا يعذبه ، وإما أن يكون لأمر فى المخلص كما إذا رأى فيهم من له ولد صغير أو أم ضعيفة فيرحمه وإن لم يستحق ويكتب له الخلاص ، وإما أن لا يكون فيه ما يستحق الخلاص بسببه ولا فى نفس المعذب مما يوجب الرحمة لكنه لا يقدر عليه بسبب كثرة أعوانه وتعصب إخوانه ، كما إذا هرب واحد من الملك والتجأ إلى عسكر يمنعون الملك عنه ، فكما نفى القسمين الأولين كذلك نفى القسم الثالث وهو التمنع بالأعوان وتحزب الإخوان ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى حسن الترتيب وذلك لأن المستحق لذاته أقرب إلى الخلاص من المرحوم ، فإن المستحق لم يوجد فيه سبب العذاب والمرحوم وجد فيه ذلك ، ووجد المانع من العذاب . وما لاسبب له لا يتحقق أصلا ، وماله مانع ربما لا يقوى المانع على دفع السبب ، وما فى نفس المعذب من المانع أقوى من الذى بسبب الغير ، لأن الذى من عنده يمنع الداعيه ولا يتحقق الفعل عند عدم الداعيه ، والذى من الغير بسبب التمنع لا يقطع قصده بل يجتهد وربما يغلب فيكون تعذيبه أضعاف ما كان من قبل ، بخلاف من يرق له قلبه وتمنعه الرحمة فإنها وإن لم تمنعه

سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾

لكن لا يزيد فى حمله وحبسه وزيادته فى التعذيب عند القدرة ، فهذا ترتيب فى غاية الحسن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ جميع فيه فائدتان إحداهما الكثرة والأخرى الاتفاق . كأنه قال نحن كثير متفقون فلنا الانتصار ولا يقوم غير هذه اللفظة مقامها من الألفاظ المفردة ، إنما قلنا إن فيه فائدتين لأن الجمع يدل على الجماعة بحروفه الأصلية من ج م ع وبوزنه وهو فعيل بمعنى مفعول على أنهم جمعوا جمعيتهم العصبية ، ويحتمل أن يقال معناه نحن الكل لا خارج عنا إشارة إلى أن من اتبع النبى صلى الله عليه وسلم لا اعتداد به قال تعالى فى نوح (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) (إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) وعلى هذا جميع يكون التنوين فيه لقطع الإضافة كأنهم قالوا نحن جمع الناس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما وجه إفراد المنتصر مع أن نحن ضمير الجمع ؟ نقول على الوجه الأول ظاهر لأنه وصف الجزء الآخر الواقع خبراً فهو كقول القائل : أنتم جنس منتصر وهم عسكر غالب والجميع كالجنس لفظه لفظ واحد ، ومعناه جمع فيه الكثرة ، وأما على الوجه الثانى فالجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المعنى وإن كان جميع الناس لا خارج عنهم إلا من لا يعتد به ، لكن لما قطع ونون صار كالمنكر فى الأصل فجاز وصفه بالمنكر نظراً إلى اللفظ فعاد إلى الوجه الأول (وثانيهما) أنه خبر بعد خبر ، ويجوز أن يكون أحد الخبرين معرفة والآخرين نكرة ، قال تعالى (وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد) وعلى هذا فقوله (نحن جميع منتصر) أفرده لمجاورته جميع ، ويحتمل أن يقال معنى (نحن جميع منتصر) أن جميعاً بمعنى كل واحد كأنه قال نحن كل واحد منا منتصر ، كما تقول هم جميعهم أقوياء بمعنى أن كل واحد منهم قوى ، وهم كلهم علماء أى كل واحد عالم فترك الجمع واختار الإفراد لعود الخبر إلى كل واحد فإنهم كانوا يقولون كل واحد منا يغلب محمداً صلى الله عليه وسلم كما قال أبى بن خلف الجمحى . وهذا فيه معنى لطيف وهو أنهم ادعوا أن كل واحد غالب ، والله رد عليهم بأجمعهم بقوله :

﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ وهو أنهم ادعوا القوة العامة بحيث يغلب كل واحد منهم محمداً صلى الله عليه وسلم والله تعالى بين ضعفهم الظاهر الذى يعمهم جميعهم بقوله (ويولون الدبر) وحينئذ يظهر سؤال وهو أنه قال (يولون الدبر) ولم يقل : يولون الأدبار . وقال فى موضع آخر (يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون) وقال (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار) وقال فى موضع آخر (فلا تولوهم الأدبار) فكيف تصحيح الإفراد وما الفرق بين المواضع ؟ نقول أما التصحيح فظاهر لأن قول القائل فعلوا كقوله فعل هذا وفعل ذاك وفعل الآخر . قالوا وفى الجمع تنوب مناب الواوات التى فى العطف ، وقوله (يولون) بمثابة يولى هذا

بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾

الدبر ، ويولى ذاك ويولى الآخر أى كل واحد يولى دبره ، وأما الفرق فنقول اقتضاء أواخر الآيات حسن الإفراد ، فقوله (يولون الدبر) إفراده إشارة إلى أنهم فى التولية كنفس واحدة ، فلا يتخلف أحد عن الجمع ولا يثبت أحد للزحف فهم كانوا فى التولية كدبر واحد ، وأما فى قوله (فلا تولوهم الأدبار) أى كل واحد يوجد به ينبغى أن يثبت ولا يولى دبره ، فليس المنهى هناك توليتهم بأجمعهم بل المنهى أن يولى واحد منهم دبره ، فكل أحد منهى عن تولية دبره ، فجعل كل واحد برأسه فى الخطاب ثم جمع الفعل بقوله (فلا تولوهم) ولا يتم إلا بقوله (الأدبار) وكذلك فى قوله (ولقد كانوا عاهدوا الله) أى كل واحد قال أنا أثبت ولا أولى دبرى ، وأما فى قوله (ليولن الأدبار) فإن المراد المنافقون الذين وعدوا اليهود وهم متفرقون بدليل قوله تعالى (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) ، وأما فى هذا الموضع فهم كانوا يداً واحدة على من سواهم .

ثم قال تعالى ﴿ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾ إشارة إلى أن الأمر غير مقتصر على انهزامهم وإدبارهم بل الأمر أعظم منه فإن الساعة موعدهم فإنه ذكر ما يصيبهم فى الدنيا من الدبر ، ثم بين ما هو منه على طريقة الإصرار ، هذا قول أكثر المفسرين ، والظاهر أن الانذار بالساعة عام لكل من تقدم ، كأنه قال أهلكنا الذين كفروا من قبلك وأصروا وقوم محمد عليه السلام ليسوا بخير منهم فيصيبهم ما أصابهم إن أصروا ، ثم إن عذاب الدنيا ليس لإتمام المجازاة فإتمام المجازاة بالأليم الدائم . وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الحكمة فى كون اختصاص الساعة موعدهم مع أنها موعد كل أحد ؟ نقول الموعد الزمان الذى فيه الوعد والوعيد والمؤمن موعود بالخير ومأمور بالصبر فلا يقول هو متى يكون ، بل يفوض الأمر إلى الله ، وأما الكافر فغير مصدق فيقول متى يكون العذاب ؟ فيقال له اصبر فإنه آت يوم القيامة ، ولهذا كانوا يقولون (عجل لنا قطنا) وقال (ويستعجلونك بالعذاب)

﴿ المسألة الثانية ﴾ أدهى من أى شىء ؟ نقول يحتمل وجهين (أحدهما) ما مضى من أنواع عذاب الدنيا (ثانيهما) أدهى الدواهى فلا داهية مثلها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما المراد من قوله (وأمر) ؟ قلنا فيه وجهان (أحدهما) هو مبالغة من المر وهو مناسب لقوله تعالى (فذوقوا عذابى) وقوله (ذوقوا مس سقر) وعلى هذا فأدهى أى أشد وأمر أى آلم ، والفرق بين الشديد والأليم أن الشديد يكون إشارة إلى أنه لا يطيقه أحد لقوته ولا يدفعه أحد بقوته ، مثاله ضعيف ألقى فى ماء يغلبه أو نار لا يقدر على الخلاص منها ، وقوى ألقى فى بحر أو نار عظيمة يستويان فى الألم والعذاب ويتساويان فى الإيلام لكن يفترقان فى الشدة فان نجاة الضعيف من الماء الضعيف بإعانة معين ممكن ، ونجاة القوى من البحر العظيم غير ممكن (ثانيهما) أمر مبالغة

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾

فى النار إذ هى أكثر مروراً بهم إشارة إلى الدوام ، فكأنه يقول أشد وأدوم ، وهذا مختص بعذاب الآخرة ، فان عذاب الدنيا إن اشتد قتل المعذب وزال فلا يدوم وإن دام بحيث لا يقتل فلا يكون شديداً (ثالثها) أنه المرير وهو من المرة التى هى الشدة . وعلى هذا فإما أن يكون الكلام كما يقول القائل فلان نحيف نحيل وقوى شديد ، فيأتى بلفظين مترادفين إشارة إلى التأكيد وهو ضعيف ، وإما أن يكون أدهى مبالغة من الداهية التى هى اسم الفاعل من دهاه أمر كذا إذا أصابه ، وهو أمر صعب لأن الداهية صارت كالإسم الموضوع للشديد على وزن الباطية والسائبة التى لا تكون من أسماء الفاعلين ، وإن كانت الداهية أصلها ذلك ، غير أنها استعملت استعمال الأسماء وكتبت فى أبوابها وعلى هذا يكون معناه ألزم وأضيق ، أى هى بحيث لا تدفع .

ثم قال تعالى ﴿ إن المجرمين فى ضلال وسعر ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ فيمن نزلت الآية فى حقهم ؟ أكثر المفسرين اتفقوا على انها نازلة فى القدرية روى الواحدى فى تفسيره . قال سمعت الشيخ رضى الدين المؤيد الطوسى بنيسابور ، قال سمعت عبد الجبار قال أخبرنا الواحدى قال أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد السراج قال أخبرنا أبو محمد عبد الله الكعبى ، قال حدثنا حمدان بن صالح الأشج حدثنا عبد الله بن عبد العزيز بن أبى داود ، حدثنا سفيان الثورى عن زياد بن اسماعيل المخزومى عن محمد بن عباد بن جعفر عن أبى هريرة قال جاء مشركوا قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القدر ، فأنزل الله تعالى (إن المجرمين فى ضلال وسعر) إلى قوله (إنا كل شىء خلقناه بقدر) وكذلك نقل عن النبى صلى الله عليه وسلم أن هذه الآية نزلت فى القدرية . وروى عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « مجوس هذه الأمة القدرية » وهم المجرمون الذين سماهم الله تعالى فى قوله (إن المجرمين فى ضلال وسعر) وكثرت الأحاديث فى القدرية . وفيها مباحث (الأول) فى معنى القدرية الذين قال النبى صلى الله عليه وسلم نزلت الآية فيهم ، فنقول كل فريق فى خلق الأعمال يذهب إلى أن القدرى خصمه ، فالجبرى يقول القدرى من يقول الطاعة والمعصية ليستا بخلق الله وقضائه وقدره ، فهم قدرية لأنهم ينكرون القدر . والمعتزلى يقول ، القدرى هو الجبرى الذى يقول حين يزنى ويسرق الله قدرنى فهو قدرى لإثباته القدر ، وهما جميعاً يقولان لأهل السنة الذى يعترف بخلق الله وليس من العبد إنه قدرى ، والحق أن القدرى الذى نزل فيه الآية هو الذى ينكر القدر ويقول بأن الحوادث كلها حادثة بالكواكب واتصالاتها ويدل عليه قوله جاء مشركوا قريش يحاجون رسول الله صلى

الله عليه وسلم فى القدر فإن مذهبهم ذلك ، وما كانوا يقولون مثل مايقول المعتزلة إن الله خلق لى سلامة الأعضاء وقوة الإدراك ومكننى من الطاعة والمعصية ، والله قادر على أن يخلق فى الطاعة إلجاء والمعصية إلجاء ، وقادر على أن يطعم الفقير الذى أطعمه أنا بفضل الله ، والمشركون كانوا يقولون (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) منكرين لقدرة الله تعالى على الإطعام ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم « مجوس هذه الأمة هم القدرية » فنقول المراد من هذه الأمة ، إما الأمة التى كان محمد صلى الله عليه وسلم مرسلا إليهم سواء آمنوا به أو لم يؤمنوا كلفظ القوم ، وإما أمته الذين آمنوا به فإن كان المراد الأول فالقدرية فى زمانه هم المشركون الذين أنكروا قدرة الله على الحوادث فلا يدخل فيهم المعتزلة ، وإن كان المراد هو الثانى فقوله «مجوس هذه الأمة» يكون معناه الذين نسبتهم إلى هذه الأمة كنسبة المجوس إلى الأمة المتقدمة ، لكن الأمة المتقدمة أكثرهم كفرة . والمجوس نوع منهم أضعف شبهة وأشد مخالفة للعقل فكذلك القدرية فى هذه الأمة تكون نوعاً منهم أضعف دليلا ولا يقتضى ذلك الجزم بكونهم فى النار فالحق أن القدرى هو الذى ينكر قدرة الله تعالى ، إن قلنا إن النسبة للنفى أو الذى يثبت قدرة غير الله تعالى على الحوادث إن قلنا إن النسبة للاثبات وحينئذ يقطع بكونه (فى ضلال وسعر) وإنه ذائق مس سقر .

﴿ البحث الثانى ﴾ فى بيان من يدخل فى القدرية التى فى النص ممن هو منتسب إلى أنه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، إن قلنا القدرية سموا بهذا الاسم لنفيهم قدرة الله تعالى فالذى يقول لا قدرة لله على تحريك العبد بحركة هى الصلاة وحركة هى الزنا مع أن ذلك أمر ممكن لا يبعد دخوله فيهم ، وأما الذى يقول بأن الله قادر غير أنه لم يجبره وتركه مع داعية العبد كالوالد الذى يجرب الصبى فى حمل شىء تركه معه لا لعجز الوالد بل للابتلاء والامتحان ، لا كالمفلوج الذى لا قوة له إذا قال لغيره احمل هذا فلا يدخل فيهم ظاهراً وإن كان مخطئاً ، وإن قلنا أن القدرية سموا بهذا الاسم لإثباتهم القدرة على الحوادث لغير الله من الكواكب ، والجبرى الذى قال هو الحائط الساقط الذى لا يجوز تكليفه بشىء لصدور الفعل من غيره وهم أهل الإباحة ، فلا شك فى دخوله فى القدرية فإنه يكفر بنفيه التكليف . وأما الذى يقول خلق الله تعالى فينا الأفعال وقدرها وكائنا ، و (لا يسأل عما يفعل) فما هو منهم .

﴿البحث الثالث﴾ اختلف القائلون فى التعصب أن الاسم بالمعتزلة أحق أم بالأشاعرة ؟ فقالت المعتزلة الاسم بكم أحق لأن النسبة تكون للاثبات لا للنفى ، يقال للدهرى دهرى لقوله بالدهر ، وإثباته ، وللمباحى إباحى لإثباته الإباحة وللثنوية ثنوية لإثباتهم الإثنين ، هما النور والظلمة ، وكذلك أنتم لأنكم تثبتون القدر ، وقالت الأشاعرة النصوص تدل على أن القدرى من ينفى قدرة الله تعالى ومشركوا قريش ما كانوا قدرية إلا لإثباتهم قدرة لغير الله ، قالت المعتزلة إنما سمى المشركون قدرية لأنهم قالوا إن كان قادرا على الحوادث كما تقول يا محمد فلو شاء الله لهدانا ولو شاء

لأطعم الفقير ، فاعتقدوا أن من لوازم قدرةالله تعالى على الحوادث خلقه الهداية فيهم إن شاء ، وهذا مذهبكم أيها الأشاعرة ، والحق الصراح أن كل واحد من المسلمين الذين ذهبوا إلى المذهبين خارج عن القدرية ، ولا يصير واحد منهم قدرياً إلا إذا صار النافى نافياً للقدرة والمثبت منكراً للتكليف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المجرمون هم المشركون ههنا كما فى قوله تعالى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم) وقوله (يود المجرم لو يفتدى) وفى قوله (يعرف المجرمون بسيماهم) فالآية عامة ، وإن نزلت فى قوم خاص . وجرمهم تكذيب الرسل والنذر بالإشراك وإنكار الحشر وإنكار قدرة الله تعالى على الإحياء بعد الإماتة ، وعلى غيره من الحوادث .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (فى ضلال وسعر) يحتمل وجوهاً ثلاثة (أحدها) الجمع بين الأمرين فى الدنيا أى هم فى الدنيا فى ضلال وجنون لا يعقلون ولا يهتدون ، وعلى هذا فقوله (يسحبون) بيان حالهم فى تلك الصورة وهو أقرب (ثانيها) الجمع فى الآخرة أى هم فى ضلال الآخرة وسعر أيضاً . أما السعر فكونهم فيها ظاهر ، وأما الضلال فلا يجدون إلى مقصدهم أو إلى ما يصلح مقصداً وهم متحيرون سبيلا ، فإن قيل الصحيح هو الوجه الأخير لا غير لأن قوله تعالى (يوم يسحبون) ظرف القول أى يوم يسحبون يقال لهم ذوقوا ، وسنبين ذلك فنقول (يوم يسحبون) يحتمل أن يكون منصوباً بعامل مذكور أو مفهوم غير مذكور ، والاحتمال الأول له وجهان (أحدهما) العامل سابق وهو معنى كائن ومستقر غير أن ذلك صار نسياً منسياً (ثانيهما) العامل متأخر وهو قوله (ذوقوا) تقديره : ذوقوا مس سقر يوم يسحب المجرمون ، والخطاب حينئذ مع من خوطب بقوله (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة) (والاحتمال الثانى) أن المفهوم هو أن يقال لهم يوم يسحبون ذوقوا ، وهذا هو المشهور ، وقوله تعالى (ذوقوا) استعارة وفيه حكمة وهو أن الذوق من جملة الإدراكات فإن المذوق إذا لاقى اللسان يدرك أيضاً حرارته وبرودته وخشونته وملاسته ، كما يدرك سائر أعضائه الحسية ويدرك أيضاً طعمه ولا يدكه غير اللسان ، فإدراك اللسان أتم ، فإذا تأذى من نار تأذى بحرارته ومرارته إن كان الحار أو غيره لا يتأذى إلا بحرارته . فإذن الذوق إدراك لمسى أتم من غيره فى الملموسات فقال (ذوقوا) إشارة إلى أن إدراكهم بالذوق أتم الإدراكات فيجتمع فى العذاب شدته وإيلامه بطول مدته ودوامه ، ويكون المدرك له لا عذر له يشغله وإنما هو على أتم ما يكون من الإدراك فيحصل الألم العظيم . وقد ذكرنا أن على قول الأكثرين يقال لهم أو نقول مضمر . وقد ذكرنا أنه لا حاجة إلى الإضمار إذا كان الخطاب مع غير من قيل فى حقهم (إن المجرمين فى ضلال) فإنه يصير كأنه قال : ذوقوا أيها المكذبون بمحمد صلى الله عليه وسلم مس سقر يوم يسحب المجرمون المتقدمون فى النار .

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

ثم قال تعالى ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ المشهور أن قوله (إنا كل شيء) متعلق بما قبله كأنه قال ذوقوا فإنا كل شيء خلقناه بقدر ، أي هو جزاء لمن أنكر ذلك ، وهو كقوله تعالى (ذق إنك أنت العزيز الكريم) والظاهر أنه ابتداء كلام وتم الكلام عند قوله (ذوقوا مس سقر) ثم ذكر بيان العذاب لأن عطف (وما أمرنا إلا واحدة) يدل على أن قوله (إنا كل شيء خلقناه بقدر) ليس آخر الكلام . ويدل عليه قوله تعالى (ألا له الخلق والأمر) وقد ذكر في الآية الأولى الخلق بقوله (إنا كل شيء خلقناه) فيكون من اللائق أن يذكر الأمر فقال (وما أمرنا إلا واحدة) وأما ما ذكر من الجدل فنقول النبي صلى الله عليه وسلم تمسك عليهم بقوله (إن المجرمين في ضلال) إلى قوله (ذوقوا مس سقر) وتلا آية أخرى على قصد التلاوة ، ولم يقرأ الآية الآخيرة اكتفاء بعلم من علم الآية كما تقول في الاستدلالات (لا تأكلوا أموالكم) الاية (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) الآية (وإذا تداينتم) الآية إلى غير ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كل قرىء بالنصب وهو الأصح المشهور ، وبالرفع فمن قرأ بالنصب فنصبه بفعل مضمر يفسره الظاهر كقوله (والقمر قدرناه) وقوله (والظالمين أعد لهم) وذلك الفعل هو خلقناه وقد فسره قوله (خلقناه) كأنه قال : إنا خلقنا كل شيء بقدر ، وخلقناه على هذا لا يكون صفة لشيء كما في قوله تعالى (ومن كل شيء خلقنا زوجين) غير أن هناك يمنع من أن يكون صفة كونه خالياً عن ضمير عائد إلى الموصوف ، وههنا لم يوجد ذلك المانع ، وعلى هذا فالآية حجة على المعتزلة لأن أفعالنا شيء فتكون داخلة في كل شيء فتكون مخلوقة لله تعالى ، ومن قرأ بالرفع لم يمكنه أن يقول كما يقول في قوله (وأما ثمود فهديناهم) حيث قرىء بالرفع لأن كل شيء نكرة فلا يصح مبتدأ فيلزمه أن يقول كل شيء خلقناه فهو بقدر ، كقوله تعالى (وكل شيء عنده بمقدار) في المعنى ، وهذان الوجهان ذكرهما ابن عطية في تفسيره وذكر أن المعتزلي يتمسك بقراءة الرفع ويحتمل أن يقال القراءة الأولى وهو النصب له وجه آخر ، وهو أن يقال نصبه بفعل معلوم لا بمضمر مفسر وهو قدرنا أو خلقنا ، كأنه قال إنا خلقنا كل شيء خلقناه بقدر ، أو قدرنا كل شيء خلقناه بقدر ، وإنما قلنا إنه معلوم لأن قوله (ذلكم الله ربكم خالق كل شيء) دل عليه ، وقوله (وكل شيء بمقدار) دل على أنه قدر وحينئذ لا يكون في الآية دلالة على بطلان قول المعتزلي وإنما يدل على بطلان قوله (الله خالق كل شيء) وأما على القراءة الثانية وهي الرفع ، فنقول جاز أن يكون كل شيء مبتدأ وخلقناه بقدر خبره وحينئذ تكون الحجة قائمة عليهم بأبلغ وجه ، وقوله (كل شيء) نكرة فلا يصلح مبتدأ ضعيف لأن قوله كل شيء عم الأشياء كلها بأسرها ، فليس فيه

المحذور الذى فى قولنا رجل قائم ، لأنه لا يفيد فائدة ظاهرة ، وقوله كل شيء يفيد ما يفيد زيد خلقناه وعمرو خلقناه مع زيادة فائدة ، ولهذا جوزوا ما أحد خير منك لأنه أفاد العموم ولم يحسن قول القائل أحد خير منك حيث لم يفد العموم .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ ما معنى القدر ؟ قلنا فيه وجوه (أحدها) المقدار كما قال تعالى (وكل شيء عنده بمقدار) وعلى هذا فكل شيء مقدر فى ذاته وفى صفاته . أما المقدر فى الذات فالجسم وذلك ظاهر فيه وكذلك القائم بالجسم من المحسوسات كالبياض والسواد ، وأما الجوهر الفرد مالا مقدار له والقائم بالجوهر مالا مقدار له بمعنى الامتداد كالعلم والجهل وغيرهما ، فنقول ههنا مقادير لا بمعنى الامتداد ، أما الجواهر الفرد فإن الإثنين منه أصغر من الثلاثة ، ولولا أن حجماً يزداد به الامتداد ، وإلا لما حصل دون الامتداد فيه . وأما القائم بالجوهر فله نهاية وبداية ، فمقدار العلوم الحادثة والقدر المخلوقة متناهية ، وأما الصفة ولأن لكل شيء ابتداء زماناً فله مقدار فى البقاء لكون كل شيء حادثاً . فإن قيل الله تعالى وصف به ، ولا مقدار له ولا ابتداء لوجوده ، نقول المتكلم إذا كان موصوفاً بصفة أو مسمى باسم ، ثم ذكر الأشياء المسماه بذلك الإسم أو الأشياء الموصوفة بتلك الصفة ، وأسند فعلا من أفعاله إليه يخرج هو عنه ، كما يقول القائل : رأيت جميع من فى هذا البيت فرأيتهم كلهم أكرمنى ، ويقول ما فى البيت أحد إلا وضربنى أو ضربته يخرج هو عنه لا لعدم كونه مقتضى الاسم ، بل بما فى التركيب من الدليل على خروجه عن الإرادة ، فكذلك قوله (خلقناه) و (خالق كل شيء) يخرج عنه لا بطريق التخصيص ، بل بطريق الحقيقة إذا قلنا إن التركيب وضعى ، فإن هذا التركيب لم يوضع حينئذ إلا لغير المتكلم (ثانيها) القدر التقدير ، قال الله تعالى (فقدرنا فنعم القادرون) وقال الشاعر :

وقد قدر الرحمن ما هو قادر

أى قدر ماهو مقدر ، وعلى هذا فالمعنى أن الله تعالى لم يخلق شيئاً من غير تقدير ، كما يرمى الرامى السهم فيقع فى موضع لم يكن قد قدره ، بل خلق الله كما قدر بخلاف قول الفلاسفة إنه فاعل لذاته والاختلاف للقوابل ، فالذى جاء قصيراً أو صغيراً فلاستعداد مادته ، والذى جاء طويلا أو كبيراً فلاستعداد آخر ، فقال تعالى (كل شيء خلقناه بقدر) منا فالصغير جاز أن يكون كبيراً ، والكبير جاز خلقه صغيراً (ثالثها) (بقدر) هو مايقال مع القضاء ، يقال بقضاء الله وقدره ، وقالت الفلاسفة فى القدر الذى مع القضاء : إن مايقصد إليه فبقضاء وما يلزمه فقدر ، فيقولون خلق النار حارة بقضاء وهو مقضى به لأنها ينبغى أن تكون كذلك ، لكن من لوازمها أنها إذا تعلقت بقطن عجوز أو وقعت فى قصب صعلوك تحرقه ، فهو (بقدر) لا بقضاء ، وهو كلام فاسد ، بل القضاء ما فى العلم والقدر ما فى الإرادة فقوله (كل شيء خلقناه بقدر) أى بقدره مع إرادته ، لا على ما يقولون إنه موجب، رداً على المشركين .

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾

ثم قال تعالى ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾

أى إلا كلمة واحدة ، وهو قوله له (كن) هذا هو المشهور الظاهر ، وعلى هذا فالله إذا أراد شيئاً قال له (كن) فهناك شيئان : الإرادة والقول ، فالإرادة قدر ، والقول قضاء ، وقوله (واحدة) يحتمل أمرين (أحدهما) بيان أنه لا حاجة إلى تكرير القول إشارة إلى نفاذ الأمر (ثانيهما) بيان عدم اختلاف الحال ، فأمره عند خالق العرش العظيم كأمره عند خالق النمل الصغير ، فأمره عند الكل واحد وقوله (كلمح بالبصر) تشبيه الكون لا تشبيه الأمر ، فكأنه قال : أمرنا واحدة ، فإذن المأمور كائن كلمح بالبصر ، لأنه لو كان راجعاً إلى الأمر لا يكون ذلك صفة مدح يليق به ، فإن كلمة (كن) شىء أيضاً يوجد (كلمح بالبصر) هذا هو التفسير الظاهر المشهور ، وفيه وجه ظاهر ذهب إليه الحكماء ، وهى أن مقدورات الله تعالى هى الممكنات يوجدها بقدرته ، وفى عدمها خلاف لا يليق بيانه بهذا الموضع لطوله لا لسبب غيره ، ثم إن الممكنات التى يوجدها الله تعالى قسمان (أحدهما) أمور لها أجزاء ملتئمة عند التئامها يتم وجودها ، كالإنسان والحيوان والأجسام النباتية والمعدنية . وكذلك الأركان الأربعة ، والسموات ، وسائر الأجسام . وسائر ما يقوم بالأجسام من الأعراض ، فهى كلها مقدرة له وحوادث ، فإن أجزاءها توجد أولا ، ثم يوجد فيها التركيب والالتئام بعينها ، ففيها تقديرات نظراً إلى الأجزاء والتركيب والأعراض (وثانيهما) أمور ليس لها أجزاء ومفاصل ومقادير امتدادية ، وهى الأرواح الشريفة المنورة للأجسام ، وقد أثبتها جميع الفلاسفة إلا قليلا منهم ، ووافقهم جمع من المتكلمين ، وقطع بها كثير ممن له قلب من أصحاب الرياضات وأرباب المجاهدات ، فتلك الأمور وجودها واحد ليس يوجد أولا أجزاء ، وثانياً تتحقق تلك الأجزاء بخلاف الأجسام والأعراض القائمة بها ، إذا عرفت هذا قالوا . الأجسام خلقية قدرية ، والأرواح إبداعية أمرية ، وقالوا إليه الإشارة بقوله تعالى (ألا له الخلق والأمر) فالخلق فى الأجسام والأمر فى الأرواح ثم قالوا لا ينبغى أن يظن بهذا الكلام أنه على خلاف الأخبار فإنه صلى الله عليه وسلم قال أول ما خلق الله العقل ، وروى عنه عليه السلام أنه قال « خلق الله الأرواح قبل الأجسام بألفى عام » وقال تعالى (الله خالق كل شىء) فالخلق أطلق على إيجاد الأرواح والعقل لأن إطلاق الخلق على ما يطلق عليه الامر جائز ، وإن العالم بالكلية حادث وإطلاق الخلق بمعنى الإحداث جائز ، وإن كان فى حقيقة الخلق تقدير فى أصل اللغة ولا كذلك فى الأحداث ، ولولا الفرق بين العبارتين وإلا لاستقبح الفلسفى من أن يقول المخلوق قديم كما يستقبح من أن المحدث قديم ، فإذن قوله صلى الله عليه وسلم خلق الله الأرواح بمعنى أحدثها بأمره ، وفى هذا الإطلاق فائدة عظيمة وهى أنه صلى الله عليه وسلم لو غير العبارة وقال فى الأرواح أنها موجودة

والأمر والأجسام بالخلق لظن الذى لم يرزقه الله العلم الكثير أن الروح ليست بمخلوقة بمعنى ليست بحدثة فكان يضل والنبى صلى الله عليه وسلم بعث رحمة ، وقالوا إذا نظرت إلى قوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) وإلى قوله تعالى (خلق السموات والأرض فى ستة أيام) وإلى قوله تعالى (خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما) تجد التفاوت بين الأمر والخلق والأرواح والأشباح حيث جعل لخلق بعض الأجسام زماناً ممتداً هو ستة أيام وجعل لبعضها تراخياً وترتيباً بقوله (ثم خلقنا) وبقوله (فخلقنا) ولم يجعل للروح ذلك ، ثم قالوا ينبغى أن لا يظن بقولنا هذا أن الأجسام لابد لها من زمان ممتد وأيام حتى يوجدها الله تعالى فيه ، بل الله مختار إن أراد خلق السموات والأرض والإنسان والدواب والشجر والنبات فى أسرع من لمح البصر لخلقها كذلك ، ولكن مع هذا لا تخرج عن كونها موجودات حصلت لها أجزاء ووجود أجزائها قبل وجود التركيب فيها ووجودها بعد وجود الأجزاء والتركيب فيها فهى ستة ثلاثة فى ثلاثة كما يخلق الله الكسر والانكسار فى زمان واحد ولهما ترتيب عقلىّ . فالجسم إذن كيفما فرضت خلقه ففيه تقدير وجودات كلها بإيجاد الله على الترتيب والروح لها وجود واحد بإيجاد الله تعالى . هذا قولهم . ولنذكر مافى الخلق والأمر من الوجود المنقولة والمعقولة(أحدها)ماذكرنا أن الأمر هو كلمة (كن) والخلق هو مابالقدرة والإرادة (ثانيها) ماذكروا فى الأجسام أن منها الأرواح (ثالثها) هو أن الله له قدرة بها الإيجاد وإرادة بها التخصيص ، وذلك لأن المحدث له وجود مختص بزمان وله مقدار معين فوجوده بالقدرة واختصاصه بالزمان بالإرادة فالذى بقدرته خلق والذى بالإرادة أمر حيث يخصصه بأمره بزمان ويدل عليه المنقول والمعقول ، أما المنقول فقوله تعالى (إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) جعل كن لتعلق الإرادة ، واعلم أن المراد من (كن) ليس هو الحرف والكلمة التى من الكاف والنون ، لأن الحصول أسرع من كلمة كن إذا حملتها على حقيقة اللفظ فان الكاف والنون لا يوجد من متكلم واحد إلا الترتيب فى كن لفظ زمان والكون بعد بدليل قوله تعالى (فيكون) بالفاء فإذن لو كان المراد بكن حقيقة الحرف والصوت لكان الحصول بعده بزمان وليس كذلك ، فان قال قائل يمكن أن يوجد الحرفان معاً وليس كلام الله تعالى ككلامنا يحتاج إلى الزمان قلنا قد جعل له معنى غير ما نفهمه من اللفظ . وأما المعقول فلأن الاختصاص بالزمان ليس لمعنى وعلة وإن كان بعض الناس ذهب إلى أن الخلق والإيجاد لحكمة وقال بأن الله خلق الأرض لتكون مقر الناس أو مثل هذا من الحكم ولم يمكنه أن يقول خلق الأرض فى الزمان المخصوص لتكون مقراً لهم لأنه لو خلقها فى غير ذلك لكانت أيضاً مقراً لهم فإذن التخصيص ليس لمعنى فهو لمحض الحكمة فهو يشبه أمر الملك الجبار الذى يأمر ولا يقال له لم أمرت ولم فعلت ولا يعلم مقصود الآمر إلا منه (رابعها) هو أن الأشياء المخلوقة لا تنفك عن أوصاف ثلاثة أو عن وصفين متقابلين ، مثاله الجسم لابد له بعد خلقه أن يكون متحيزاً ولا بد له من أن يكون

سا كنأ أو متحركا فإيجاده أولا بخلقه وما هو عليه بأمره يدل عليه قوله تعالى (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) إلى أن قال(مسخرات بأمره) فجعل مالها بعدخلقهامن الحركة والسكون وغيرهما بأمره . ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « أول ماخلق الله تعالى العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر » جعل الخلق فى الحقيقة والأمر فى الوصف ، وكذلك قوله تعالى (خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام) ثم قال (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره) وقد ذكرنا تفسيره (خامسها) مخلوقات الله تعالى على قسمين (أحدهما) خلقه الله تعالى فى أسرع ما يكون كالعقل ، غيره (وثانيهما) خلقه بمهلة كالسموات والإنسان والحيوان والنبات ، فالمخلوق سريعاً أطلق عليه الأمر والمخلوق بمهلة أطلق عليه الخلق ، وهذا مثل الوجه الثانى (سادسها) ماقاله فخر الدين الرازى فى تفسير قوله تعالى (فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً) وهو أن الخلق هو التقدير والإيجاد بعده بعدية ترتيبية لازمانية ففى علم الله تعالى أن السموات تكون سبع سموات فى يومين تقديرية فهو قدر خلقه كما علم وهو إيجاد فالأول خلق والثانى وهو الإيجاد أمر وأخذ هذا من المفهوم اللغوى قال الشاعر :

وبعض الناس يخلق ثم لا يفرى

أى يقدر ولا يقطع ولا يفصل كالخياط الذى يقدر أولا وقطع ثانياً وهو قريب إلى اللغة لكنه بعيد الاستعمال فى القرآن ، لأن الله تعالى حيث ذكر الخلق أراد الإيجاد منه قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق) ومنه قوله تعالى (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة) وليس المراد أنا قدرنا أنه سيوجد منها إلى غير ذلك (سابعها) الخلق هو الإيجاد ابتداء والأمر هو مابه الإعادة فان الله خلق الخلق أولا بمهلة ثم يوم القيامة يبعثهم فى أسرع من لحظة ، فيكون قوله (وما أمرنا إلا واحدة) كقوله تعالى (فإنما هى زجرة واحدة) وقوله (صيحة واحدة) ، (ونفخة واحدة) وعلى هذا فقوله (إنا كل شىء خلقناه بقدر) إشارة إلى الوحدانية . وقوله تعالى (وما أمرنا إلا واحدة) إلى الحشر فكأنه بين الأصل الأول والأصل الآخر بالآيات (ثامنها) الإيجاد خلق والإعدام أمر ، يعنى يقول الملائكة الغلاظ الشداد أهلكوا وافعلوا فلا يعصون الله ما أمرهم ولا يوقفون الامتثال على إعادة الأمر مرة أخرى فأمره مرة واحدة يعقبه العدم والهلاك .

﴿ وفيه لطيفة ﴾ وهى أن الله تعالى جعل الإيجاد الذى هو من الرحمة بيده ، والإهلاك يسلط عليه رسله وملائكته ، وجعل الموت بيد ملك الموت ولم يجعل الحياة بيد ملك ، وهذا مناسب لهذا الموضع لأنه بين النعمة بقوله (إنا كل شىء خلقناه بقدر) وبين قدرته على النقمة فقال (وما أمرنا إلا واحدة) . (وإنا على ذهاب به لقادرون) وهو كقوله (إذا جاء أمرنا وفار التنور) عند العذاب ، وقوله تعالى (فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً) وقوله تعالى (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) وكما ذكر فى هذه الحكايات العذاب بلفظ الأمر وبين الإهلاك به كذلك هنا

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾

ولا سيما إذا نظرت إلى ما تقدم من الحكايات ووجدتها عين تلك الحكايات يقوي هذا القول وكذلك قوله تعالى (ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر) يدل على صحة هذا القول (تاسعها) فى معنى اللمح بالبصر وجهان (أحدهما) النظر بالعين يقال لمحته ببصرى كما يقال نظرت إليه بعينى والباء حينئذ كما يذكر فى الآيات فيقال كتبت بالقلم ، واختار هذا المثال لأن النظر بالعين أسرع حركة توجد فى الإنسان لأن العين وجد فيها أمور تعين على سرعة الحركة (أحدها) قرب المحرك منها فإن المحرك العصبية ومنبتها الدماغ والعين فى غاية القرب منه (ثانيها) صغر حجمها فإنها لا تعصى على المحرك ولا تثقل عليه بخلاف العظام (ثالثها) استدارة شكلها فإن دحرجة الكرة أسهل من دحرجة المربع والمثلث (رابعها) كونها فى رطوبة مخلوقة فى العضو الذى هو موضعها وهذه الحكمة فى أن المرئيات فى غاية الكثرة بخلاف المأكولات والمسموعات والمقاصد التى تقصد بالأرجل والمذوقات ، فلولا سرعة حركة الآلة التى بها إدراك المبصرات لما وصل إلى الكل إلا بعد طول زمان (وثانيهما) اللمح بالبصر معناه البرق يخطف بالبصر ويمر به سريعاً والباء حينئذ للالصاق لا للاستعانة كقوله مررت به وذلك فى غاية السرعة ، وقوله (بالبصر) فيه فائدة وهى غاية السرعة فإنه لو قال كلمح البرق حين برق ويبتدىء حركته من مكان وينتهى إلى مكان آخر فى أقل زمان يفرض لصح ، لكن مع هذا فالقدر الذى مروره يكون بالبصر أقل من الذى يكون من مبتداه إلى منتهاه ، فقال (كلمح) لا كما قيل من المبدأ إلى المنتهى بل القدر الذى يمر بالبصر وهو غاية القلة ونهاية السرعة .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر ﴾ والأشياع الأشكال ، وقد ذكرنا أن هذا يدل على أن قوله (وما أمرنا إلا واحدة) تهديد بالإهلاك والثانى ظاهر .

وقوله تعالى ﴿ وكل شىء فعلوه فى الزبر ﴾ إشارة إلى أن الأمر غير مقتصر على إهلاكهم بل الإهلاك هو العاجل والعذاب الآجل الذى هو معد لهم على ما فعلوه ، مكتوب عليهم ، والزبر هى كتب الكتبة الذين قال تعالى فيهم (كلا بل تكذبون بالدين ، وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين) و (فعلوه) صفة شىء والنكرة توصف بالجمل .

وقوله تعالى ﴿ وكل صغير وكبير مستطر ﴾ تعميم للحكم أى ليست الكتابة مقتصرة على ما فعلوه بل ما فعله غيرهم أيضاً مسطور فلا يخرج عن الكتب صغيرة ولا كبيرة ، وقد ذكرنا فى قوله تعالى (لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾

إلا فى كتاب) أن فى قوله أكبر فائدة عظيمة وهى أن من يكتب حساب إنسان فإنما يكتبه فى غالب الأمر لئلا ينسى فإذا جاء بالجملة العظيمة التى يأمن نسيانها ربما يترك كتابتها ويشتغل بكتابة ما يخاف نسيانه ، فلما قال (ولا أكبر من ذلك) أشار إلى الأمور العظام التى يؤمن من نسيانها أنها مكتوبة أى ليست كتابتنا مثل كتابتكم التى يكون المقصود منها الأمن من النسيان ، فكذلك نقول ههنا وفى قوله تعالى (مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) وفى جميع هذه المواضع قدم الصغيرة لأنها أليق بالتثبت عند الكتابة فيبتدىء بها حفظاً عن النسيان فى عادة الخلق فأجرى الله الذكر على عادتهم ، وهذا يؤيد ما ذكرنا من قبل أن كلا وإن كان نكرة يحسن الابتداء به للعموم وعدم الإبهام .

ثم قال تعالى ﴿ إن المتقين فى جنات ونهر ﴾ قد ذكرنا تفسير المتقين والجنات فى سور منها (الطور) وأما النهر ففيه قراءات فتح النون والهاء كحجر وهو اسم جنس ويقوم مقام الأنهار . وهذا هو الظاهر الأصح . وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لا شك أن كان اللذة بالبستان أن يكون الإنسان فيه ، وليس من اللذة بالنهر أن يكون الإنسان فيه ، بل لذته أن يكون فى الجنة عند النهر ، فما معنى قوله تعالى (ونهر) ؟ نقول قد أجبنا عن هذا فى تفسير قوله تعالى (إن المتقين فى جنات وعيون) فى سورة الذاريات ، وقلنا المراد فى خلال العيون ، وفيما بينها من المكان وكذلك فى جنات لأن الجنة هى الأشجار التى تستر شعاع الشمس ، ولهذا قال تعالى (فى ظلال وعيون) . وإذا كانت الجنة هى الأشجار الساترة فالإنسان لا يكون فى الأشجار وإنما يكون بينها أو خلالها ، فكذلك النهر ، ونزيد ههنا (وجها آخر) وهو أن المراد فى جنات وعند نهر لكون المجاورة تحسن إطلاق اللفظ الذى لا يحسن إطلاقه عند عدم المجاورة كما قال : « علفتها تبناً وماء بارداً »

وقالوا : تقلدت سيفاً ورمحاً ، والماء لا يعلف والرمح لا يتقلد ولكن لمجاورة التبن والسيف حسن الإطلاق فكذلك هنا لم يأت فى الثانى بما أتى به فى الأول من كلمة فى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ وحد النهر مع جمع الجنات وجمع الأنهار وفى كثير من المواضع كما فى قوله تعالى (تجرى من تحتها الأنهار) إلى غيره من المواضع فما الحكمة فيه ؟ نقول أما على الجواب الأول فنقول لما بين أن معنى فى نهر فى خلال فلم يكن للسامع حاجة إلى سماع الأنهار ، لعلمه بأن النهر الواحد لا يكون له خلال . وأما فى قوله تعالى (تجرى من تحتها الأنهار) فلو لم يجمع الأنهار لجاز أن يفهم أن فى الجنات كلها نهراً واحداً كما فى الدنيا فقد يكون نهر واحد ممتد جار فى جنات كثيرة وأما على الثانى فنقول : الإنسان يكون فى جنات لأنا بينا أن الجمع فى جنات إشارة إلى سعتها وكثرة

أشجارها وتنوعها والتوحيد عند ما قال (مثل الجنة) وقال (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) لاتصال أشجارها ولعدم وقوع القيعان الخربة بينها ، وإذا علمت هذا فالإنسان فى الدنيا إذا كان فى بيت فى دار وتلك الدار فى محلة ، وتلك المحلة فى مدينة ، يقال إنه فى بلدة كذا ، وأما القرب فإذا كان الإنسان فى الدنيا بين نهرين بحيث يكون قربه منهما على السواء يقال إنه جالس عند نهرين ، فإذا قرب من أحدهما يقال من عند أحد نهرين دون الآخر ، لكن فى دار الدنيا لا يمكن أن يكون عند ثلاثة أنهار وإنما يمكن أن يكون عند نهرين ، والثالث منه أبعد من النهرين ، فهو فى الحقيقة ليس يكون فى زمان واحد عند أنهار والله تعالى يذكر أمر الآخرة على ما نفهمه فى الدنيا ، فقال عند نهر لما بينا أن قوله (ونهر) وإن كان يقتضى فى نهر لكن ذلك للمجاورة كما فى : تقلدت سيفاً ورمحاً ، وأما قوله (تجرى من تحتها الأنهار) فحقيقته مفهومة عندنا لأن الجنة الواحدة قد يجرى فيها أنهار كثيرة أكثر من ثلاثة وأربعة ، فهذا ما فيه مع أن أواخر الآيات يحسن فيها التوحيد دون الجمع ، ويحتمل أن يقال ونهر التنكير للتعظيم ، وفى الجنة نهر وهو أعظم الأنهر وأحسنها ، وهو الذى من الكوثر ، ومن عين الرضوان وكان الحصول عنده شرفاً وغبطة وكل أحد يكون له مقعد عنده وسائر الأنهار تجرى فى الجنة ويراها أهلها ولا يرون القاعد عندها فقال (فى جنات ونهر) أى ذلك النهر الذى عنده مقاعد المؤمنين ، وفى قوله تعالى (إن الله مبتليكم بنهر) لكونه غير معلوم لهم ، وفى هذا وجه حسن أيضاً ولا يحتاج على الوجهين أن نقول نهر فى معنى الجمع لكونه اسم جنس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ههنا (فى نهر) وقال فى الذاريات (وعيون) فما الفرق بينهما ؟ نقول إنا إن قلنا فى نهر معناه فى خلال فالإنسان يمكن أن يكون فى الدنيا فى خلال عيون كثيرة تحيط به إذا كان على موضع مرتفع من الأرض والعيون تنفجر منه وتجرى فتصير أنهاراً عند الامتداد ولا يمكن أن يكون وفى خلال أنهار وإنما هى نهران فحسب ، وأما إن قلنا أن المراد عند نهر فكذلك وإن قلنا : رأى عظيم عليه مقاعد ، فنقول يكون ذلك النهر ممتداً واصلا إلى كل واحد وله عنده مقعد عيون كثيرة تابعة ، فالنهر للتشريف والعيون للتفرج والتنزه مع أن النهر العظيم يجتمع مع العيون الكثيرة فكان النهر مع وحدته يقوم مقام العيون مع كثرتها وهذا كله مع النظر إلى أواخر الآيات ههنا وهناك يحسن ذكر لفظ الواحد ههنا والجمع هناك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرىء (فى جنات ونهر) على أنها جمع نهار إذ لا ليل هناك ، وعلى هذا فكلمة فى حقيقة فيه فقوله (فى جنات) ظرف مكان ، وقوله (ونهر) أى وفى نهر إشارة إلى ظرف زمان ، وقرىء ونهر بسكون الهاء وضم النون على أنه جمع نهر كأسد فى جمع أسد نقله الزمخشرى ، ويحتمل أن يقال نهر بضم الهاء جمع نهر كثمر فى جمع ثمر .

فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى مقعد صدق ، كيف مخرجه ؟ نقول يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون على صورة بدل كما يقول القائل فلان فى بلدة كذا فى دار كذا . وعلى هذا يكون مقعد من جملة الجنات موضعاً مختاراً له مزية على ما فى الجنات من المواضع وعلى هذا قوله (عند مليك) لأنا بينا فى أحد الوجوه أن المراد من قوله (فى جنات ونهر) فى جنات عند نهر فقال (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) ويحتمل أن يقال (عند مليك) صفة مقعد صدق تقول درهم فى ذمة ملىء خير من دينار فى ذمة معسر ، وقليل عند أمين أفضل من كثير عند خائن فيكون صفة وإلا لما حسن جعله مبتدأ (ثانيهما) أن يكون (فى مقعد صدق) كالصفة لجنات ونهر أى فى جنات ونهر موصوفين بأنهما فى مقعد صدق ، تقول : وقفة فى سبيل الله أفضل من كذا و (عند مليك) صفة بعد صفة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فى مقعد صدق) يدل على لبث لا يدل عليه المجلس ، وذلك لأن قعد وجلس ليسا على ما يظن أنهما بمعنى واحد لا فرق بينهما بل بينهما فرق ولكن لا يظهر إلا للبارع ، والفرق هو أن القعود جلوس فيه مكث حقيقة واقتضاء ، ويدل عليه وجوه (الأول) هو أن الزمن يسمى مقعداً ولا يسمى مجلساً لطول المكث حقيقة . ومنه سمى قواعد البيت . والقواعد من النساء قواعد ولا يقال لهن جوالس لعدم دلالة الجلوس على المكث الطويل فذكر القواعد فى الموضعين لكونه مستقراً بين الدوام والثبات على حالة واحدة ويقال للمركوب من الإبل قعود لدوام اقتعاده اقتضاء ، وإن لم يكن حقيقة فهو لصونه عن الحمل واتخاذه للركوب كأنه وجد فيه نوع قعود دائم اقتضى ذلك ولم يرد للاجلاس (الثانى) النظر إلى تقاليب الحروف فإنك إذا نظرت إلى ق ع د وقلبتها تجد معنى المكث فى الكل فإذا قدمت القاف رأيت قعد وقدع بمعنى ومنه تقادع الفراش بمعنى تهافت ، وإذا قدمت العين رأيت عقد وعدق بمعنى المكث فى غاية الظهور وفى عدق لخفاء يقال أعدق بيدك الدلو فى البئر إذا أمره بطلبه بعد وقوعه فيها والعودقة خشبة عليها كلاب يخرج معه الدلو الواقع فى البئر ، وإذا قدمت الدال رأيت دقع ودعق والمكث فى الدقع ظاهر والدقعاء هى التراب الملتصق بالأرض والفقر المدقع هو الذى يلصق صاحبه بالتراب . وفى دعق أيضاً إذ الدعق مكان تطؤه الدواب بحوافرها فيكون صلباً أجزاؤه متداخل بعضها ببعض لا يتحرك شىء منها عن موضعه (الوجه الثالث) الاستعمالات فى القعود إذا اعتبرت ظهر ما ذكرنا قال تعالى (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر) والمراد الذى لا يكون بعده اتباع وقال تعالى (مقاعد للقتال) مع أنه تعالى قال (إن الله

يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) فأشار إلى الثبات العظيم . وقال تعالى (إذا لقيتم فئة فاثبتوا)فالمقاعدإذن هى المواضع التى يكون فيها المقاتل بثبات ومكث و إطلاق مقعدة على العضو الذى عليه القعود أيضاً يدل عليه ، إذا عرفت هذا الفرق بين الجلوس و القعود حصل لك فوائد منها ههنا فإنه يدل على دوام المكث وطول اللبث ، ومنها فى قوله تعالى (عن اليمين وعن الشمال قعيد) فإن القعيد بمعنى الجليس والنديم ، ثم إذا عرف هذا و قيل للمفسرين الظاهرين فما الفائدة فى اختيار لفظ القعيد بدل لفظ الجليس مع أن الجليس أشهر ؟ يكون جوابهم أن آخر الآيات من قوله (حبل الوريد) (ولدى عتيد) وقوله (بجبار عنيد) يناسب القعيد ، ولا الجليس وإعجاز القرآن ليس فى السجع ، وإذا نظرت إلى ماذكر تبين لك فائدة جليلة معنوية حكمية فى وضع اللفظ المناسب لأن القعيد دل على أنهما لا يفارقانه ويداومان الجلوس معه ، وهذا هو المعجز وذلك لأن الشاعر يختار اللفظ الفاسد لضرورة الشعر والسجع ويجعل المعنى تبعاً للفظ ، والله تعالى بين الحكمة على ما ينبغى وجاء باللفظ على أحسن ماينبغى ، وفائدة أخرى فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا) فإن قوله (فافسحوا) إشارة إلى الحركة ، وقوله (فانشزوا) إشارة إلى ترك الجلوس فذكر المجلس إشارة إلى أن ذلك موضع جلوس فلا يجب ملازمته وليس بمقعد حتى لا يفارقونه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى مقعد صدق وجهان (أحدهما) مقعد صدق ، أى صالح يقال رجل صدق للصالح ورجل سوء للفاسد ، وقد ذكرناه فى سورة (إنا فتحنا) فى قوله تعالى (وظننتم ظن السوء) ، (وثانيهما) الصدق المراد منه ضد الكذب ، وعلى هذا ففيه وجهان (الأول) مقعد صدق من أخبر عنه وهو الله ورسوله (الثانى) مقعد ناله من صدق فقال بأن الله واحد وأن محمداً رسوله ، ويحتمل أن يقال المراد أنه مقعد لا يوجد فيه كذب لأن الله تعالى صادق ويستحيل عليه الكذب ومن وصل إليه امتنع عليه الكذب لأن مظنة الكذب الجهل والواصل إليه ، يعلم الأشياء كما هى ويستغنى بفضل الله عن أن يكذب ليستفيد بكذبه شيئاً فهو مقعد صدق وكلمة (عند) قد عرفت معناها والمراد منه قرب المنزلة والشأن لا قرب المعنى والمكان،وقوله تعالى(مليك مقتدر) لأن القربة من الملوك لذيذة كلما كان الملك أشد اقتداراً كان المتقرب منه أشد التذاذاً وفيه إشارة إلى مخالفة معنى القرب منه من معنى القرب من الملوك ، فإن الملوك يقربون من يكون ممن يحبونه وممن يرهبونه ، مخافة أن يعصوا عليه وينحازوا إلى عدوه فيغلبونه ، والله تعالى قال (مقتدر) لايقرب أحداً إلا بفضله .

والحمد لله وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وآله وصحبه وسلامه .

٥٤ — سورة القمر

(مكية وهى خمس وخمسون آية)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ ٥٤ القمر

وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴿٢﴾ ٥٤ القمر

وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣﴾ ٥٤ القمر

﴿ سورة القمر مكية إلا الآيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ فمدنية وآياتها خمس وخمسون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (اقتربت الساعة وانشق القمر) روى أن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر قال ابن عباس رضى الله عنهما انفلق فلقتين فلقة ذهبت وفلقة بقيت وقال ابن مسعود رأيت حراء بين فلقتى القمر وعن عثمان بن عطاء عن أبيه أن معناه سينشق
٢ يوم القيامة ويرده قوله تعالى (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) فإنه ناطق بأنه قد وقع وأنهم قد شاهدوه بعد مشاهدة نظائره وقرىء وقد انشق القمر أى اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق ومعنى الاستمرار الاطراد أو الاستحكام أى وإن يروا آية من آيات الله يعرضوا عن التأمل فيها ليقفوا على حقيتها وعلو طبقتها ويقولوا سحر مطرد دائم يأتى به محمد على مر الزمان لايكاد يختلف بحال كسائر أنواع السحر أو قوى مستحكم لا يمكن إزالته وقيل مستمر ذاهب يزول ولا يبقى تمنية لأنفسهم وتعليلا وهو الأنسب بغلوهم فى العناد والمكابرة ويؤيده ماسيأتى
٣ لرده وقرىء وإن يروا على البناء للمفعول من الإراءة (وكذبوا) أى بالنبى صلى الله عليه وسلم وما عاينوه مما أظهره الله تعالى على يده من المعجزات (واتبعوا أهواءهم) التى زينها الشيطان لهم أو كذبوا الآية التى هى انشقاق القمر واتبعوا أهواءهم وقالوا سحر القمر أو سحر أعيننا والقمر بحاله وصيغة الماضى للدلالة على التحقق وقوله تعالى (وكل أمر مستقر) استئناف مسوق لإقناطهم عما علقوا به أمانيهم الفارغة من عدم استقرار أمره عليه الصلاة والسلام حسبما قالوا سحر مستمر ببيان ثباته ورسوخه أى وكل أمر من الأمور مستقر أى منته إلى غاية يستقر عليها لامحالة ومن جملتها أمر النبى صلى الله عليه وسلم فسيصير إلى غاية يتبين عندها حقيته وعلو شأنه وإبهام المستقر عليه للتنبيه على كمال ظهور الحال وعدم الحاجة إلى التصريح به وقيل المعنى كل أمر من أمرهم وأمره عليه الصلاة والسلام مستقر أى سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة فى الدنيا وشقاوة أو سعادة فى الآخرة وقرىء بالفتح على أنه مصدر أو اسم مكان أو اسم زمان أى ذو استقرار أو ذو موضع استقرار أو ذو زمان استقرار

وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾	٥٤ القمر
حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾	٥٤ القمر
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾	٥٤ القمر
خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾	٥٤ القمر
مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾	٥٤ القمر
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾	٥٤ القمر

٤ وبالكسر والجر على أنه صفة أمر وكل عطف على الساعة أى اقتربت الساعة وكل أمر مستقر (ولقد
٥ جاءهم) أى فى القرآن وقوله تعالى (من الأنباء) أى أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة متعلق بمحذوف
٥ هو حال مما بعده أى وبالله لقد جاءهم كائناً من الأنباء (مافيه مزدجر) أى ازدجار من تعذيب أو وعيد
أو موضع ازدجار على أن تجريدية والمعنى أنه فى نفسه موضع ازدجار وتاء الافتعال تقلب دالا مع
٥ الدال والذال والزاى للتناسب وقرىء مزجر بقلبها زاء وإدغامها (حكمة بالغة) غايتها لاخلل فيها
وهى بدل ما أو خبر لمحذوف وقرىء بالنصب حالا منها فإنها موصولة أو موصوفة تخصصت بصفتها فساغ
٥ نصب الحال عنها (فما تغنى النذر) نفى للإغناء أو إنكار له والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجىء الحكمة
البالغة مع كونه مظنة للإغناء وصيغة المضارع للدلالة على تجدد عدم الإغناء واستمراره حسب تجدد
مجىء الزواجر واستمراره وما على الوجه الثانى منصوبة أى فأى إغناء تغنى النذر وهو جمع نذير بمعنى
٦ المنذر أو مصدر بمعنى الإنذار (فتول عنهم) لعلمك بأن الإنذار لايؤثر فيهم البتة (يوم يدع الداع)
منصوب بيخرجون أو باذكر والداعى إسرافيل عليه السلام ويجوز أن يكون الدعاء فيه كالأمر فى
٥ قوله تعالى كن فيكون وإسقاط الياء للاكتفاء بالكسر تخفيفاً (إلى شىء نكر) أى منكر فظيع تنكره
٧ النفوس لعدم العهد بمثله وهو هول القيامة وقرىء نكر بالتخفيف ونكر بمعنى أنكر (خشعاً أبصارهم)
٥ حال من فاعل (يخرجون) والتقديم لأن العامل متصرف أى يخرجون (من الأجداث) أذلة أبصارهم
من شدة الهول وقرىء خاشعاً والإفراد والتذكير لأن فاعله ظاهر غير حقيقى التأنيث وقرىء خاشعة
٥ على الأصل وقرىء خشع أبصارهم على الابتداء والخبر على أن الجملة حال (كأنهم جراد منتشر) فى
٨ الكثرة والتموج والتفرق فى الأقطار (مهطعين إلى الداع) مسرعين مادى أعناقهم إليه أو ناظرين
٥ إليه (يقول الكافرون) استئناف وقع جواباً عما نشأ من وصف اليوم والأهوال وأهله بسوء الحال
٥ كأنه قيل فماذا يكون حينئذ فقيل يقول الكافرون (هذا يوم عسر) أى صعب شديد وفى إسناد القول
٩ المذكور إلى الكفار تلويح بأن المؤمنين ليسوا فى تلك المرتبة من الشدة (كذبت قبلهم قوم نوح) شروع

فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ٥٤ القمر

فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ٥٤ القمر

وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ٥٤ القمر

وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ٥٤ القمر

تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ٥٤ القمر

فى تعداد بعض ماذكر من الأنباء الموجبة للإزدجار ونوع تفصيل لها وبيان لعدم تأثرهم بها تقريراً لفحوى قوله تعالى فما تغنى النذر أى فعل التكذيب قبل تكذيب قومك قوم نوح وقوله تعالى (فكذبوا * عبدنا) تفسير لذلك التكذيب المبهم كما فى قوله تعالى ونادى نوح ربه فقال رب الخ وفيه مزيد تقرير وتحقيق للتكذيب وقيل معناه كذبوه تكذيباً إثر تكذيب كلما خلا منهم قرن مكذب جاء عقيبه قرن آخر مكذب مثله وقيل كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا لانه من جملتهم وفى ذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم له عليه الصلاة والسلام ورفع لمحله وزيادة تشنيع لمكذبيه (وقالوا مجنون) أى لم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه إلى الجنون * (وازدجر) عطف على قالوا أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذية وقيل هو من جملة ماقالوه أى هو * مجنون وقد ازدجرته الجن وتخبطته (فدعا ربه أنى) أى بأنى وقرىء بالكسر على إرادة القول (مغلوب) ١٠ أى من جهة قومى مالى قدرة على الانتقام منهم (فانتصر) أى فانتقم لى منهم وذلك بعد تقرر يأسه منهم * بعد اللتيا والتى فقد روى أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشياً عليه ويقول اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) منصب وهو تمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها ١١ وقرىء ففتحنا بالتشديد لكثرة الأبواب (وفجرنا الأرض عيوناً) أى جعلنا الأرض كلها كأنها عيون ١٢ متفجرة وأصله وفجرنا عيون الأرض فغير قضاء لحق المقام (فالتقى الماء) أى ماء السماء وماء الأرض * والإفراد لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة والتقارب بل بطريق الاختلاط والاتحاد وقرىء الماءان لاختلاف النوعين والماوان بقلب الهمزة واو (على أمر قد قدر) أى كائناً على حال * قد قدرها الله تعالى من غير تفاوت أو على حال قدرت وسويت وهو أن قدر ماأنزل على قدر ماأخرج أو على أمر قدره الله تعالى وهو هلاك قوم نوح بالطوفان (وحملناه) أى نوحا عليه السلام (على ذات ١٣ ألواح) أى أخشاب عريضة (ودسر) ومسامير جمع دسار من الدسر وهو الدفع وهى صفة للسفينة * أقيمت مقامها من حيث أنها كالشرح لها تؤدى مؤداها (تجرى بأعيننا) بمرأى منا أى محفوظة بحفظنا ١٤

وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ٥٤ القمر

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ٥٤ القمر

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ٥٤ القمر

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ٥٤ القمر

إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ٥٤ القمر

* (جزاء لمن كان كفر) أى فعلنا ذلك جزاء لنوح عليه السلام لأنه كان نعمة كفروها فإن كل نبى نعمة من الله تعالى على أمته ورحمة وأى نعمة وأى رحمة وقد جوز أن يكون على حذف الجار وإيصال ١٥ الفعل إلى الضمير واستتاره فى الفعل بعد انقلابه مرفوعا وقرىء لمن كفر أى للكافرين (ولقد تركناها) * أى السفينة أو الفعلة (آية) يعتبر بها من يقف على خبرها وقال قتادة أبقاها الله تعالى بأرض الجزيرة * وقيل على الجودى دهراً طويلا حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة (فهل من مدكر) أى معتبر بتلك ١٦ الآية الحقيقة بالاعتبار وقرىء مذتكر على الأصل ومذكر بقلب التاء ذالا والإدغام فيها (فكيف كان عذابى ونذر) استفهام تعظيم وتعجيب أى كانا على كيفية هائلة لايحيط بها الوصف والنذر جمع ١٧ نذير بمعنى الإنذار (ولقد يسرنا القرآن) الخ جملة قسمية وردت فى أواخر القصص الأربع تقريراً لمضمون ماسبق من قوله تعالى ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغنى النذر وتنبيهاً على أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الادكار كافية فى الازدجار ومع ذلك لم تقع واحدة فى حيز الاعتبار أى وبالله ولقد سهلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم وشحناه بأنواع المواعظ والعبر وصرفنا فيه * من الوعيد والوعد (للذكر) أى للتذكر والاتعاظ (فهل من مدكر) إنكار ونفى للمتعظ على أبلغ وجه وآكده حيث يدل على أنه لايقدر أحد أن يجيب المستفهم بنعم وحمل تيسيره على تسهيل حفظه ١٨ بجزالة نظمه وعذوبة ألفاظه وعباراته مما لا يساعده المقام (كذبت عاد) أى هوداً عليه السلام ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم له روما للاختصار ومسارعة إلى بيان مافيه الازدجار من العذاب وقوله * تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) لتوجيه قلوب السامعين نحو الإصغاء إلى مايلقى إليهم قبل ذكره لا لتهويله وتعظيمه وتعجيبهم من حاله بعد بيانه كما قبله وما بعده كأنه قيل كذبت عاد فهل سمعتم أو ١٩ فاسمعوا كيف كان عذابى وإنذاراتى لهم وقوله تعالى (إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً) استئناف ببيان * ما أجمل أولا أى أرسلنا عليهم ريحاً باردة أو شديدة الصوت (فى يوم نحس) شؤم (مستمر) أى شؤمه أو مستمر عليهم إلى أن أهلكهم أو شامل لجميعهم كبيرهم وصغيرهم أو مشتد مرارته وكان يوم الأربعاء آخر الشهر .

تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ٥٤ القمر

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ٥٤ القمر

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ٥٤ القمر

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ٥٤ القمر

فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ٥٤ القمر

أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ٥٤ القمر

سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ٥٤ القمر

---

٢٠ (تنزع الناس) تقلعهم روى أنهم دخلوا الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح وصرعتهم موتى (كأنهم أعجاز نخل منقعر) أى منقلع عن مغارسه قيل شبهوا بأعجاز النخل وهى أصولها بلا فروع * لأن الريح كانت تقلع رؤسهم فتبقى أجساداً وجثثاً بلا رؤس وتذكير صفة نخل للنظر إلى اللفظ كما أن تأنيثها فى قوله تعالى أعجاز نخل خاوية للنظر إلى المعنى وقوله تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) تهويل ٢١ لهما وتعجيب من أمرهما بعد بيانهما فليس فيه شائبة تكرار وما قيل من أن الأول لما حاق بهم فى الدنيا والثانى لما يحيق بهم فى الآخرة يرده ترتيب الثانى على العذاب الدنيوى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل ٢٢ من مدكر) الكلام فيه كالذى مر فيما سبق (كذبت ثمود بالنذر) أى الإنذارات والمواعظ التى سمعوها ٢٣ من صالح أو بالرسل عليهم السلام فإن تكذيب أحدهم تكذيب للكل لاتفاقهم على أصول الشرائع (فقالوا أبشراً منا) أى كائناً من جنسنا وانتصابه بفعل يفسره مابعده (واحداً) أى منفرداً لا تبع ٢٤ له أو واحداً من آحادهم لامن أشرافهم وهو صفة أخرى لبشراً وتأخيره عن الصفة المؤولة للتنبيه على أن كلا من الجنسية والوحدة مما يمنع الاتباع ولو قدم عليها لفاتت هذه النكتة وقرىء أبشر منا واحد على الابتداء وقوله تعالى (نتبعه) خبره والأول أوجه للاستفهام (إنا إذاً) أى على تقدير اتباعنا * له وهو منفرد ونحن أمة جمة (لفى ضلال) عن الصواب (وسعر) أى جنون فإن ذلك بمعزل من مقتضى * العقل وقيل كان يقول لهم إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق وسعر أى نيران جمع سعير فعكسوا عليه عليه السلام لغاية عتوهم فقالوا إن اتبعناك كنا إذن كما تقول (أألقى الذكر) أى الكتاب والوحى ٢٥ (عليه من بيننا) وفينا من هو أحق منه بذلك (بل هو كذاب أشر) أى ليس الأمر كذلك بل هو * كذا وكذا حمله بطره على الترفع علينا بما ادعاه وقوله تعالى (سيعلمون غداً من الكذاب الأشر) حكاية ٢٦ لما قاله تعالى لصالح عليه السلام وعداً له ووعيداً لقومه والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده والمراد

إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾	٥٤ القمر
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾	٥٤ القمر
فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾	٥٤ القمر
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾	٥٤ القمر
إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾	٥٤ القمر
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾	٥٤ القمر
كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾	٥٤ القمر
إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾	٥٤ القمر
نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾	٥٤ القمر

بالغد وقت نزول العذاب أى سيعلمون البتة عن قريب من الكذاب الأشر الذى حمله أشره وبطره على الترفع أصالح هو أم من كذبه وقرىء ستعلمون على الالتفات لتشديد التوبيخ أو على حكاية ما أجابهم به صالح وقرىء الأشر كقولهم حذر فى حذر وقرىء الأشر أى الأبلغ فى الشرارة وهو أصل مرفوض

٢٧ كالأخير وقيل المراد بالغد يوم القيامة ويأباه قوله تعالى (إنا مرسلوا الناقة) الخ فإنه استئناف مسوق

* لبيان مبادى الموعود حتما أى مخرجوها من الهضبة حسبما سألوا (فتنة لهم) أى امتحاناً (فارتقبهم)

٢٨ أى فانتظرهم وتبصر مايصنعون (واصطبر) على أذيتهم (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم) مقسوم لها يوم

٢٩ ولهم يوم وبينهم لتغليب العقلاء (كل شرب محتضر) يحضره صاحبه فى نوبته (فنادوا صاحبهم) هو

* قدار بن سلف أحيمر ثمود (فتعاطى فعقر) فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث له فأحدث العقر بالناقة وقيل فتعاطى الناقة فعقرها أو فتعاطى السيف فقتلها والتعاطى تناول الشىء بتكلف

٣٠، ٣١ (فكيف كان عذابى ونذر) الكلام فيه كالذى مر فى صدر قصة عاد (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة)

* هى صيحة جبريل عليه السلام (فكانوا) أى فصاروا (كهشيم المحتظر) أى كالشجر اليابس الذى يتخذه من يعمل الحظيرة لأجلها أو كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء

٣٢ وقرىء بفتح الظاء أى كهشيم الحظيرة أو الشجرة المتخذها (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)

٣٣، ٣٤ (كذبت قوم لوط بالنذر) (إنا أرسلنا عليهم حاصباً) أى ريحاً تحصبهم أى ترميهم بالحصباء (إلا

٣٥ آل لوط نجيناهم بسحر) فى سحر وهو آخر الليل وقيل هو السدس الأخير منه أى ملتبسين بسحر (نعمة

وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾	٥٤ القمر
وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾	٥٤ القمر
وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾	٥٤ القمر
فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾	٥٤ القمر
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾	٥٤ القمر
وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾	٥٤ القمر
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾	٥٤ القمر
أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾	٥٤ القمر

من عندنا) أى إنعاماً منا وهو علة لنجينا (كذلك) أى مثل ذلك الجزاء العجيب (نجزى من شكر) *
نعمتنا بالإيمان والطاعة (ولقد أنذرهم) لوط عليه السلام (بطشتنا) أى أخذتنا الشديدة بالعذاب ٣٦
(فتماروا) فكذبوا (بالنذر) متشاكين (ولقد راودوه عن ضيفه) قصدوا الفجور بهم (فطمسنا ٣٧
أعينهم) فمسحناها وسويناها كسائر الوجه روى أنه لما دخلوا داره عنوة صفقهم جبريل عليه السلام
صفقة فتركهم يترددون لايهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط عليه السلام (فذوقوا عذابى ونذر) *
أى فقلنا لهم ذوقوا على ألسنة الملائكة أو ظاهر الحال والمراد به الطمس فإنه من جملة ما أنذروه
من العذاب (ولقد صبحهم بكرة) وقرىء بكرة غير مصروفة على أن المراد بها أول نهار مخصوصة ٣٨
(عذاب مستقر) لايفارقهم حتى يسلموا إلى النار وفى وصفه بالاستقرار إيماء إلى أن ماقبله من عذاب *
الطمس ينتهى إليه (فذوقوا عذابى ونذر) حكاية لما قيل حينئذ من جهته تعالى تشديداً للعذاب ٣٩
(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) مر ما فيه من الكلام (ولقد جاء آل فرعون النذر) ٤٠،٤١
صدرت قصتهم بالتوكيد القسمى لإبراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عظم مافيها من الآيات وكثرتها وهول
ما لاقوه من العذاب وقوة إيجابها للاتعاظ والاكتفاء بذكر آل فرعون للعلم بأن نفسه أولى بذلك
أى وبالله لقد جاءهم الإنذارات وقوله تعالى (كذبوا بآياتنا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية ٤٢
مجىء النذر كأنه قيل فماذا فعلوا حينئذ فقيل كذبوا بجميع آياتنا وهى الآيات التسع (فأخذناهم أخذ *
عزيز) لايغالب (مقتدر) لايعجزه شىء (أكفاركم) يامعشر العرب (خير) قوة وشدة وعدة وعدة أو ٤٣
مكانة (من أولئكم) الكفار المعدودين والمعنى أنه أصابهم ما أصابهم مع ظهور خيريتهم منكم فيما ذكر *

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ — ٥٤ القمر

سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ — ٥٤ القمر

بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ — ٥٤ القمر

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ — ٥٤ القمر

يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ — ٥٤ القمر

إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ — ٥٤ القمر

من الأمور فهل تطمعون أن لا يصيبكم مثل ذلك وأنتم شر منهم مكاناً وأسوأ حالا وقوله تعالى
* (أم لكم براءة فى الزبر) إضراب وانتقال من التبكيت بوجه آخر أى بل ألكم براءة وأمن من
تبعات ماتعملون من الكفر والمعاصى وغوائلهما فى الكتب السماوية فلذلك تصرون على ماأنتم عليه
٤٤ وقوله تعالى (أم يقولون نحن جميع منتصر) إضراب من التبكيت والالتفات للإيذان باقتضاء حالهم
للإعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية قبائحهم لغيرهم أى بل أيقولون واثقين بشوكتهم
نحن أولو حزم ورأى أمرنا مجتمع لانرام ولانضام أومنتصر من الأعداء لانغلب أومتناصر ينصر
٤٥ بعضنا بعضاً والإفراد باعتبار لفظ الجميع وقوله تعالى (سيهزم الجمع) رد وإبطال لذلك والسين للتأكيد
* أى يهزم جمعهم البتة (ويولون الدبر) أى الأدبار وقد قرىء كذلك والتوحيد لإرادة الجنس أو إرادة أن
كل واحد منهم يولى دبره وقد كان كذلك يوم بدر قال سعيد بن المسيب سمعت عمر بن الخطاب رضى
الله عنه يقول لما نزلت سيهزم الجمع ويولون الدبر كنت لا أدرى أى جمع يهزم فلما كان يوم بدر
رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر فعرفت تأويلها
٤٦ وقرىء سيهزم الجمع أى الله عز وعلا (بل الساعة موعدهم) أى ليس هذا تمام عقوبتهم بل الساعة موعد
* أصل عذابهم وهذا من طلائعه (والساعة أدهى وأمر) أى فى أقصى غاية من الفظاعة والمرارة والداهية
٤٧ الأمر الفظيع الذى لايهتدى إلى الخلاص عنه وإظهار الساعة فى موقع إضمارها لتربية تهويلها (إن
* المجرمين) من الأولين والآخرين (فى ضلال وسعر) أى فى هلاك ونيران مسعرة وقيل فى ضلال
٤٨ عن الحق فى الدنيا ونيران فى الآخرة وقوله تعالى (يوم يسحبون) الخ منصوب إما بما يفهم من قوله
* تعالى فى ضلال أى كائنون فى ضلال وسعر يوم يجرون (فى النار على وجوههم) وإما بقول مقدر
* بعده أى يوم يسحبون يقال لهم (ذوقوا مس سقر) أى قاسوا حرها وألمها وسقر علم جهنم ولذلك
لم يصرف من سقرته النار وصقرته إذا لوحته والقول المقدر على الوجه الأول حال من ضمير يسحبون
٤٩ (إنا كل شىء) من الأشياء (خلقناه بقدر) أى ملتبساً بقدر معين اقتضته الحكمة التى عليها يدور

وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ — ٥٤ القمر

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ — ٥٤ القمر

وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ — ٥٤ القمر

وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ — ٥٤ القمر

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ — ٥٤ القمر

فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ — ٥٤ القمر

أمر التكوين أو مقدراً مكتوباً فى اللوح قبل وقوعه وكل شىء منصوب بفعل يفسره مابعده وقرىء
بالرفع على أنه مبتدأ وخلقناه خبره (وما أمرنا إلا واحدة) أى كلمة واحدة سريعة التكوين وهو ٥٠
قوله تعالى كن أو إلا فعلة واحدة هو الإيجاد بلامعالجة (كلمح بالبصر) فى اليسر والسرعة وقيل معناه *
قوله تعالى وما أمر الساعة إلا كلمح البصر (ولقد أهلكنا أشياعكم) أى أشباهكم فى الكفر من الأمم ٥١
وقيل أتباعكم (فهل من مدكر) يتعظ بذلك (وكل شىء فعلوه) من الكفر والمعاصى مكتوب على التفصيل ٥٢
(فى الزبر) أى فى ديوان الحفظة (وكل صغير وكبير) من الأعمال (مستطر) مسطور فى اللوح ٥٣
المحفوظ بتفاصيله ولما كان بيان سوء حال الكفرة بقوله تعالى إن المجرمين الخ مما يستدعى بيان حسن
حال المؤمنين ليتكافأ الترهيب والترغيب بين ما لهم من حسن الحال بطريق الإجمال فقيل (إن المتقين) ٥٤
أى من الكفر والمعاصى (فى جنات) عظيمة الشأن (ونهر) أى أنهار كذلك والإفراد للاكتفاء *
باسم الجنس مراعاة للفواصل وقرىء نهر جمع نهر كأسد وأسد (فى مقعد صدق) فى مكان مرضى وقرىء ٥٥
فى مقاعد صدق (عند مليك مقتدر) أى مقربين عند مليك لايقادر قدر ملكه وسلطانه فلا شىء إلا *
وهو تحت ملكوته سبحانه ما أعظم شأنه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القمر فى
كل غب بعثه الله تعالى يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر .

﴿ سورة القمر ﴾

وتسمى أيضا (اقتربت) وعن ابن عباس أنها تدعى فى التوراة المبيضة تبيض وجه صاحبها يوم تسود الوجوه ، أخرجه عنه البيهقى فى شعب الايمان لكن قال : إنه منكر ﴿ وهى مكية ﴾ فى قول الجمهور ، وقيل: مما نزل يوم بدر، وقال مقاتل : مكية إلا ثلاث آيات (أم يقولون) إلى (وأمر) واقتصر بعضهم على استثناء (سيهزم الجمع) الخ ، ورد بما أخرجه ابن أبى حاتم . والطبرانى فى الاوسط . وابن مردويه عن أبى هريرة قال: أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة قبل يوم بدر (سيهزم الجمع ويولون الدبر) وقال عمر بن الخطاب : قلت : يارسول الله أى جمع يهزم ؟ فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله ﷺ فى آثارهم مصلتاً بالسيف وهو يقول:(سيهزم الجمع ويولون الدبر) فكانت ليوم بدر ، وفى الدر المنثور : أخرج البخارى عن عائشة قالت : « نزل على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة وإنى لجارية ألعب (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) » ويرد به وبما قبله ماحكى عن مقاتل أيضا ، وقيل : (إلا أن المتقين) الآيتين وآيها خمس وخمسون بالاجماع ، ومناسبة أولها لآخر السورة التى قبلها ظاهرة فقد قال سبحانه : (ثم أزفت الآزفة) وهنا (اقتربت الساعة) وقال الجلال السيوطى : لايخفى مافى توالى هاتين السورتين من حسن التناسق

للتناسب فى التسمية لما بين ـ النجم ، والقمر ـ من الملابسة ، وأيضا إن هذه بعد تلك ـ كالاعراف بعد الانعام، وكالشعراء بعد الفرقان ، وكالصافات بعد يس ـ فى أنها تفصيل لاحوال الامم المشار إلى إهلاكهم فى قوله تعالى: (وأنه أهلك عاداً الاولى وثمود فما أبقى وقوم نوح) إلى قوله سبحانه : (والمؤتفكة أهوى) ﴿

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ أى قربت جداً ﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ١ ﴾ انفصل بعضه عن بعض وصار فرقتين وذلك على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل الهجرة بنحو خمس سنين فقد صح من رواية الشيخين . وابن جرير عن أنس أن أهل مكة سألوه عليه الصلاة والسلام أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما ، وخبر أبى نعيم من طريق الضحاك عن ابن عباس ـ أن أحبار اليهود سألوا آية فأراهم الله تعالى القمر قد انشق ـ لا يعوّل عليه ، وفى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود «انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرقتين فرقة على الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا» ومن حديثه أيضاً «انشق القمر على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة فقال رجل: انتظروا ما يأتيكم به السفار فان محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فجاء السفار فأخبروهم بذلك» رواه أبو داود . والطيالسى ، وفى رواية البيهقى « فسألوا السفار وقد قدموا من كل وجه فقالوا : رأيناه » فأنزل الله تعالى: (اقتربت الساعة وانشق القمر) ﴿

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس من وجه ضعيف قال: «اجتمع المشركون على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منهم الوليد بن المغيرة . وأبو جهل بن هشام . والعاص بن وائل . والعاص بن هشام . والاسود بن عبد يغوث . والاسود بن المطلب . وربيعة بن الاسود . والنضر بن الحرث فقالوا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين نصفاً على أبى قبيس ونصفاً على قينقاع فقال لهم النبى ﷺ : «إن فعلت تؤمنوا؟ قالوا: نعم وكانت ليلة بدر فسأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ربه عز وجل أن يعطيه ماسألوا فأمسى القمر قد مثل نصفاً على أبى قبيس ونصفاً على قينقاع ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينادى يا أبا سلمة بن عبد الاسد . والأرقم بن الأرقم اشهدوا» ﴿

والاحاديث الصحيحة فى الانشقاق كثيرة ، واختلف فى تواتره فقيل : هو غير متواتر ، وفى شرح المواقف الشريفى أنه متواتر وهو الذى اختاره العلامة ابن السبكى قال فى شرحه لمختصر ابن الحاجب : الصحيح عندى أن انشقاق القمر متواتر منصوص عليه فى القرآن مروى فى الصحيحين وغيرهما من طرق شتى بحيث لا يمترى فى تواتره انتهى باختصار ، وقد جاءت أحاديثه فى روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة منهم على كرم الله تعالى وجهه . وأنس . وابن مسعود . وابن عباس . وحذيفة . وجبير بن مطعم . وابن عمر . وغيرهم ، نعم إن منهم من لم يحضر ذلك كابن عباس فانه لم يكن مولوداً إذ ذاك وكأنس فانه كان ابن أربع أو خمس بالمدينة ، وهذا لا يطعن فى صحة الخبر كما لا يخفى ، ووقع فى رواية البخارى . وغيره عن ابن مسعود « كنا مع رسول الله صلى تعالى الله عليه وسلم بمنى فانشق القمر » ولا يعارض ماصح عن أنس أن ذلك كان بمكة لأنه لم يصرح بأنه عليه الصلاة والسلام كان ليلتئذ بمكة ، فالمراد أن الانشاق كان والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذ ذاك مقيم بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، ووقع فى نظم السيرة للحافظ أبى الفضل العراقى ما هو نص فى وقوع الانشقاق مرتين . وظاهر فى أنه مجمع على وقوعه كذلك حيث قال: وانشق مرتين بالاجماع ، وكأن مستند الاول ما أخرجه

عبد بن حميد، والحاكم وصححه، وابن مردويه . والبيهقى فى الدلائل من طريق مجاهد عن أبى معمر عن ابن مسعود قال: رأيت القمر منشقا شقتين مرتين بمكة قبل مخرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الحديث ، وأما الاجماع فغير مسلم ، وفى المواهب قال الحافظ ابن حجر : أظن أن قوله: بالاجماع يتعلق ـ بانشق ـ لا بمرتين فانى لا أعلم من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشقاق فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم، ولعل قائل مرتين أراد فرقتين، وهذا الذى لا يتجه غيره جمعاً بين الروايات انتهى، ولا يخفى أن هذا التأويل مع بعده لا يتسنى فى خبر ابن مسعود المذكور آنفا لمكان شقتين وهى بمعنى فرقتين ومرتين معاً ، والذى عندى فى تأويل ذلك أن مرتين فى كلام ابن مسعود قيد للرؤية وتعددها لا يقتضى تعدد الانشقاق بأن يكون رآه منشقا فصرف نظره عنه ثم أعاده فرآه كذلك لم يتغير ففيه إشارة إلى أنها رؤية لاشبهة فيها وقد فعل نحو ذلك الكفرة ، أخرج أبو نعيم من طريق عطاء عن ابن عباس قال : انتهى أهل مكة إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : هل من آية نعرف بها أنك رسول الله؟ فهبط جبريل عليه السلام فقال : يا محمد قل لاهل مكة أن يجتمعوا هذه الليلة يروا آية فأخبرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمقالة جبريل عليه السلام فخرجوا ليلة أربع عشرة فانشق القمر نصفين نصفاً على الصفا ونصفاً على المروة فنظروا ثم قالوا بأبصارهم فمسحوها ثم أعادوا النظر فنظروا ثم مسحوا أعينهم ثم نظروا فقالوا ماهذا إلا سحر فأنزل الله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر)فلو قال أحد هؤلاء رأيت القمر منشقاً ثلاث مرات على معنى تعدد الرؤية صح بلا غبار ولم يقتض تعدد الانشقاق فليخرج كلام ابن مسعود على هذا الطرز ليجمع بين الروايات ، ثم هذا الحديث إن صح كان دليلا لما أشار اليه البوصيرى فى قوله :

شق عن صدره وشق له البد ر ومن شرط كل شرط جزاء

من أن الشق كان ليلة أربع عشرة لأن البدر هو القمر ليلة أربع عشرة ويعلم من ذلك ما فى قول العلامة ابن حجر الهيتمى فى شرحه : ظاهر التعبير بالبدر دون القمر أن الشق كان ليلة أربع عشرة ولم أر له فى ذلك سلفا ، ولعله أراد بالبدر مطلق القمر ، ويؤيد كونه ليلة البدر ما أخرجه الطبرانى ، وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : كسف القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : سحر القمر فنزلت (اقتربت الساعة) إلى (مستمر) فان الكسوف وإن جاز عادة أن يكون ليلة الثالث عشر وليلة الخامس عشر إلا أن الأغلب كونه ليلة الرابع عشر ولا ضرورة إلى حمل الكسوف فى هذا الخبر على الانشقاق إذ لا مانع كما فى البداية والنهاية أن يكون قد حصل للقمر مع انشقاقه كسوف ، نعم ذكر فيها أن سياق الخبر غريب.

ثم إن القمر بعد انشقاقه لم تفارق قطعتاه السماء بل بقيتا فيها متباعدتين تباعداً مّا لحظة ثم اتصلتا، ومايذكره بعض القصاص من أنه دخل فى جيب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وخرج من كمه فباطل لا أصل له كما حكاه الشيخ بدر الدين الزركشى عن شيخه العماد بن كثير ولعنة الله تعالى على من وضعه . ومافى خبر أبى نعيم - الذى أخرجه من طريق الضحاك عن ابن عباس من أنه انشق فصار قمرين أحدهما على الصفا والآخر على المروة قدر مابين العصر إلى الليل ينظرون اليه ثم غاب ـ لا يعول عليه، كيف وقد تضمن ذلك الخبر أن الانشقاق وقع لطلب أحبار اليهود وأن القائل (هذا سحر مستمر) هم ، وهو مخالف لما نطقت به الاخبار الصحيحة الكثيرة كما لا يخفى على المتتبع ، وقد شاع « أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أشار إلى القمر بسبابته الشريفة فانشق» ولم أره فى خبر صحيح والله تعالى أعلم.

وأنكر الفلاسفة أصل الانشقاق بناءاً على زعمهم استحالة الخرق والالتئام على الاجرام العلوية ودليلهم على ذلك أوهن من بيت العنكبوت وقد خرق بأدنى نسمة من نسمات أفكار أهل الحق العلويين خرقا لا يقبل الالتئام كما بين فى موضعه ، وقال بعض الملاحدة : لو وقع لنقل متواتراً واشترك أهل الارض كلهم فى معرفته ولم يختص بها أهل مكة لأنه أمر محسوس مشاهد والناس فيه شركاء والطباع حريصة على رواية الغريب ونقل مالم يعهد ، ولا أغرب من انشقاق هذا الجرم العظيم ولم يعهد أصلا فى الزمن القديم ولو كان له أصل لخلد أيضا فى كتب التسيير والتنجيم ولذكره أهل الارصاد فقد كانت موجودة قبل البعثة بكثير وإطباقهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره مما لا تجوزه العادة، وايضا لا يعقل سبب لخرق هذا الجرم العظيم وأيضاً خرقه يوجب صوتا هائلا أشد من أصوات الصواعق المهلكة بأضعاف مضاعفة لا يبعد هلاك أكثر أهل الأرض منه ، وأيضاً متى خرق وصار قطعتين ذهبت منه قوة التجاذب كالجبل إذا انشق فيلزم بقاؤه منشقاً ولا أقل من أن يبقى كذلك سنين كثيرة ، والجواب عن ذلك أنه وقع فى الليل وزمان الغفلة وكان فى زمان قليل ورؤية القمر فى بلد لا تستلزم رؤيته فى جميع البلاد ضرورة اختلاف المطالع فقد يكون القمر طالعاً على قوم غائباً عن آخرين ومكسوفا عند قوم غير مكسوف عند آخرين والاعتناء بأمر الارصاد لم يكن بمثابته اليوم وغفلة أهلها لحظة غير مستبعد والانشقاق لا تختلف به منازله ولا يتغير به سيره غاية ما فى الباب أن يحدث فى القطعة الشرقية قوة سير لتلحق أختها الغربية، وأى مانع من أن يخلق الله تعالى فيها من السرعة نحو ما خلق الله سبحانه فى ضوء الشمس فقد قال أهل الحكمة الجديدة: إن بين الأرض والشمس ثلثمائة ألف فرسخ وأربعون ألف فرسخ وأن ضوءها ليصل إلى الأرض فى مدة ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية فيقطع الضوء فى كل ثانية سبعين ألف فرسخ ولا يلزم أن يعلم سبب كل حادث بل كثير من الحوادث المتكررة المشاهدة لم يوقف على أسبابها كرؤية الكواكب قريبة مع بعدها المفرط فقد ذكروا أنهم لم يقفوا على سببه ويكفى فى ذلك عدم وقوفهم على سبب الإبصار بالعين على الحقيقة ولو أخبرهم مخبر بفرض إن لم يكن لهم أبصار بخواص البصر مع كونه قطعة شحم صغيرة معروفة أحوالها عند أهل التشريح لأنكروا عليه غاية الانكار وكذبوه غاية التكذيب ونسبوه إلى الجنون ،

ومن سلم تأثير النفوس إلى حد أن يصرع الشخص آخر بمجرد النظر إليه وتوجيه نفسه نحوه لم يستبعد أن يكون هناك سبب نحو ذلك ، وقد صح فى إصابة العين أن بعض الاعراب ممن له عين صائبة يفلق سنام الناقة فلقتين ، وربما تصور له من رمل فينظر إليه ويفلقه فينفلق سنامها مع عدم رؤيته لها نفسها وهذا كله من باب المماشاة وإلا فإرادة الله تعالى كافية فى الانشقاق وكذا فى كل المعجزات وخوارق العادات ولو كان لكل حادث سبب لزم التسلسل وقد قامت الادلة على بطلانه ، وكون الخرق يوجب صوتاً هائلا ممنوع فيما نحن فيه ومثله ذهاب التجاذب والاجسام مختلفة من حيث الخواص فلا يلزم اتحاد جرم القمر والارض فيها ويمكن أن يكون إحدى القطعتين كالجبل العظيم بالنسبة إلى الارض إذا ارتفع عنها بقاسر مثلا جذبته إليه إذا لم يخرج عن حد جذبها على ما زعموه ويلتزم فى تلك القطعة عدم الخروج عن حد الجذب على أنا فى غنى عن كل ذلك أيضا بعد إثبات الامكان ل قدرته عز وجل وأنه سبحانه فعال لما يريد *

والحاصل أنه ليس عند المنكر سوى الاستبعاد ولا يستطيع أن يأتى بدليل على الاستحالة الذاتية ولو انشق، والاستبعاد فى مثل هذه المقامات قريب من الجنون عند من له عقل سليم ، وروى عن الحسن أنه قال : هذا

الانشقاق بعد النفخة الثانية، والتعبير بالماضى لتحقق الوقوع، وروى ذلك عن عطاء أيضاً، ويؤيده ماتقدم الذى عليه الاكثرون قراءة حذيفة وقد انشق القمر فان الجملة عليها حالية فتقتضى المقارنة لاقتراب الساعة ووقوع الانشاق قبل يوم القيامة، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ فانه يقتضى أن الانشقاق آية رأوها وأعرضوا عنها، وزعم بعضهم أن انشقاق القمر عبارة عن انشقاق الظلمة عند طلوعه وهذا كما يسمى الصبح فلقاً عند انفلاق الظلمة عنه وقد يعبر عن الانفلاق بالانشقاق كما فى قوله النابغة :

فلما أدبروا ولهم دوى   دعانا عند (شق) الصبح داعى

وزعم آخر أن معنى انشق القمر وضح الامر وظهر وكلا الزعمين مما لايعول عليه ولا يلتفت اليه ولاأظن الداعى اليهما عند من يقر بالساعة التى هى أعظم من الانشقاق ويعترف بالعقائد الاسلامية التى وقع عليها الاتفاق سوى عدم ثبوت الاخبار فى وقوع ذلك على عهده عليه الصلاة والسلام عنده، ومنشأ ذلك القصور التام والتمسك بشبه هى على طرف الثمام، ومع هذا لا يكفر المنكر بناءاً على عدم الاتفاق على تواتر ذلك وعدم كون الآية نصاً فيه، والاخراج من الدين أمر عظيم فيحتاط فيه مالايحتاط فى غيره والله تعالى الموفق *

والظاهر أن المراد باقتراب الساعة القرب الشديد بالزمانى، وكل آت قريب، وزمان العالم مديد، والباقى بالنسبة إلى الماضى شئ يسير، ومال الامام إلى ان المراد به قربها فى العقول والاذهان، وحاصله أنها ممكنة إمكانا قريبا لاينبغى لاحد إنكارها، واستعمال الاقتراب مع أنه أمر مقطوع به كاستعمال (لعل) فى قوله تعالى : (لعل الساعة تكون قريباً) مع أن الامر معلوم عند الله تعالى وانشقاق القمر آية ظاهرة على هذا القرب، وعلى الاول قيل : هو آية لاصل الامكان الذى يقتضيه قرب الوقوع، وقيل : هو آية لقرب الوقوع ومعجزة للنبى ﷺ باعتبار أن الله تعالى مخبر فى كتبه السالفة بأنه إذا قربت الساعة انشق القمر معجزة وكلاهما كما ترى، واختار بعضهم أنه آية لصدق النبى عليه الصلاة والسلام فى جميع مايقول ويبلغ ربه سبحانه لانه معجزة له ﷺ ومنه دعوى الرسالة والاخبار باقتراب الساعة وغير ذلك، و(آية) نكرة فى سياق الشرط فتعم، فالمعنى (وإن يروا كل آية يعرضوا) عن التأمل فيها ليقفوا على وجه دلالتها وعلو طبقتها ﴿ وَيَقُولُوا سِحْرٌ ﴾ أى هذا أو هو أى مانراه سحر ﴿ مُسْتَمِرٌ ٢ ﴾ أى مطرد دائم يأتى به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم على مر الزمان وهو ظاهر فى ترادف الآيات وتتابع المعجزات *

وقال أبو العالية . والضحاك : (مستمر) محكم موثق من المرة بالفتح أو الكسر بمعنى القوة وهو فى الأصل مصدر مررت الحبل مرة إذا فتلته فتلا محكما فأريد به مطلق المحكم مجازاً مرسلا، وقال أنس . ويمان . ومجاهد . والكسائى . والفراء ـ واختاره النحاس ـ مستمر أى مار ذاهب زائل عن قريب عللوا بذلك أنفسهم ومنوها بالأمانى الفارغة كأنهم قالوا : إن حاله عليه الصلاة والسلام وما ظهر من معجزاته سبحانه

* سحابة صيف عن قريب تقشع * (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) وقيل: (مستمر) مشتد المرارة أى مستبشع عندنا منفور عنه لشدة مرارته يقال : مرّ الشئ وأمرّ إذا صار مرّاً وأمرّ غيره ومرّه يكون لازماً ومتعدياً، وقيل : (مستمر) يشبه بعضه بعضاً أى استمرت أفعاله على هذا الوجه من التخييلات، وقيل: (مستمر) مار من الأرض إلى السماء أى بلغ من سحره أنه سحر القمر، وهذا ليس بشئ، ولعل الأنسب

بغلوهم فى العناد والمكابرة ماروى عن أنس ومن معه ، وقرئ ـ وأن يروا ـ بالبناء للمفعول من الاراءة ﴿ وَكَذَّبُوا ﴾ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبما أظهره الله تعالى على يده من الآيات ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ التى زينها الشيطان لهم ، وقيل: (كذبوا) الآية التى هى انشقاق القمر (واتبعوا أهواءهم) وقالوا سحر القمر أو سحرت أعيننا والقمر بحاله ، والعطف على الجزاء السابق وصيغة الماضى للدلالة على التحقق ، وقيل : العطف على (اقتربت) والجملة الشرطية اعتراض لبيان عادتهم إذا شاهدوا الآيات ، وقوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ٣ ﴾ استئناف مسوق للرد على الكفار فى تكذيبهم ببيان أنه لافائدة لهم فيه ولا يمنع علو شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو لإقناطهم عما علقوا به أمانيهم الفارغة من عدم استقرار أمره عليه الصلاة والسلام حسبما قالوا: (سحر مستمر) ببيان ثبوته ورسوخه أى وكل أمر من الامور منته إلى غاية يستقر عليها لامحالة ومن جملتها أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فسيصير إلى غاية يتبين عندها حقيته وعلو شأنه ، وللاشارة إلى ظهور هذه الغاية لامره عليه الصلاة والسلام لم يصرح بالمستقر عليه ، وفى الكشاف أى كل أمر لابد أن يصير إلى غاية يستقر عليها وأن أمره ﷺ سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق أو باطل وسيظهر له عاقبتهم أو وكل أمر من أمره عليه الصلاة والسلام ، وأمرهم مستقر أى سيثبت ويستقر على حالة نصرة أو خذلان فى الدنيا أو سعادة وشقاوة فى الآخرة ، قال فى الكشف: والكلام على الاول تذييل جار مجرى المثل وعلى الثانى تذييل غير مستقل ، وقرأ شيبة (مستقر) بفتح القاف ورويت عن نافع ، وزعم أبو حاتم أنها لاوجه لها وخرجت على أن مستقراً مصدر بمعنى استقرار ، وحمله على كل أمر بتقدير مضاف أى ذو مستقر ولو لم يقدر وقصد المبالغة صح ، وجوز كونه اسم زمان أو مكان بتقدير مضاف أيضاً أى ذو زمان استقرار ، أو ذو موضع استقرار ، وتعقب بأن كون كل أمر لابد له من زمان أو مكان أمر معلوم لافائدة فى الاخبار به ، وأجيب بأن فيه إثبات الاستقرار له بطريق الكناية وهى أبلغ من التصريح *

وقرأ زيد بن على (مستقر) بكسر القاف والجر ، وخرج على أنه صفة أمر وأن كل معطوف على الساعة أى اقتربت الساعة ، واقترب كل أمر يستقر ويتبين حاله أى بقربها ، قال فى الكشف : وفيه شمة من التجريد وتهويل عظيم حيث جعل فى اقترابها اقتراب كل أمر يكون له قرار وتبين حال مما له وقع ، وقوله تعالى: (وانشق القمر) على هذا إما على تقدير قد وينصره القراءة بها ، وإما منزل منزلة الإعراض لكونه مؤكداً لقرب الساعة ، وقوله سبحانه : (وإن يروا آية) الخ مستطرد عند ذكر انشقاق القمر *

واعترض ذلك أبو حيان بأنه بعيد لكثرة الفواصل بين المعطوف والمعطوف عليه وجعل الكلام عليه نظير ـ أكلت خبزاً ، وضربت خالداً ، وإن يجئ زيد أكرمه ، ورحل إلى بنى فلان ، ولحماً بعطف ـ لحماً على خبزاً ـ ثم قال بل لايوجد مثله فى كلام العرب ، وتعقب بأنه ليس بشئ لأنه إذا دل على العطف الدليل لايعد ذلك مانعاً منه على أن بين الآية والمثال فرقا لايخفى ، وقال صاحب اللوامح إن (مستقر) خبر كل ، والجر للجوار ، واعترضه أبو حيان أيضاً بأنه ليس بجيد لأن الجر على الجوار فى غاية الشذوذ فى مثله إذ لم يعهد فى خبر المبتدأ ، وإنما عهد فى الصفة على اختلاف النحاة فى وجوده ، واستظهر كون كل مبتدأ وخبره مقدر كآت ، أو معمول به ونحوه مما يشعر به الكلام أو مذكور بعد وهو قوله تعالى : (حكمة بالغة) وقد اعترض بينهما بقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ﴾ فى القرآن ﴿ مِنَ الْأَنْبَاءِ ﴾ أى أخبار القرون الخالية أو أخبار الآخرة ، والجار والمجرور

فى موضع الحال من مافى قوله عز وجل : ﴿ مَا فيه مُزْدَجَرٌ ﴾ قدم عليه رعاية للفاصلة وتنويقاً اليه و(من) للتبعيض ، أو للتبيين بناءاً على المختار من جواز تقديمه على المبين ، قال الرضى : إنما جاز تقديم (من) المبينة على المبهم فى نحو ـ عندى من المال مايكفى ـ لانه فى الاصل صفة لمقدر أى شئ من المال ، والمذكور عطف بيان للمبين المقدر قبلها ليحصل البيان بعد الابهام أى بالله لقد جاءهم كائناً من الانباء مافيه ازدجار لهم ومنع عما هم فيه من القبائح ، أو موضع ازدجار ومنع ، وهى أنباء التعذيب ، أو أنباء الوعيد ، وأصل (مزدجر) مزتجر بالتاء موضع الدال وتاء الافتعال تقلب دالا مع الدال والذال والزاى للتناسب ، وقرئ مزجر بقلبها زايا وإدغام الزاى فيها ، وقرأ زيد بن على مزجر اسم فاعل من أزجر أى صار ذا زجر كأعشب صار ذا عشب ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ أى واصلة غاية الإحكام لاخلل فيها ، ورفع (حكمة) على أنها بدل كل ، أو اشتمال من (ما) ، وقيل : من (مزدجر) أو خبر مبتدأ محذوف أى هى ، أو هذه على أن الاشارة لما يشعر به الكلام من إرسال الرسل وإيضاح الدليل والانذار لمن مضى ، أو إلى مافى الأنباء ، أو إلى الساعة المقتربة ، والآية الدالة عليها ـ كما قاله الامام وتقدم آنفا ـ احتمال كونها خبراً عن كل فى قراءة زيد ، وقرأ اليمانى (حكمة بالغة) بالنصب حالا من (ما) فانها موصولة أو نكرة موصوفة ، ويجوز مجئ الحال منها مع تأخرها أو هو بتقدير أعنى *

﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ٥ ﴾ نفى للاغناء أو استفهام إنكارى والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجئ الحكمة البالغة مع كونه مظنة للإغناء وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار ، و(ما) على الوجه الثانى فى محل نصب على أنها مفعول مطلق أى فأى إغناء تغنى النذر ، وجوز أن تكون فى محل رفع على الابتداء ، والجملة بعدها خبر ، والعائد مقدر أى فما تغنيه النذر وهو جمع نذير بمعنى المنذر ، وجوز أن يكون جمع نذير بمعنى الانذار ، وتعقب بأن حق المصدر أن لا يثنى ولا يجمع وأن يكون مصدراً كالانذار ، وتعقب بأنه يأباه تأنيث الفعل المسند اليه وكونه باعتبار أنه بمعنى النذارة لايخفى حاله ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ الفاء للسببية والمسبب التولى أو الامر به والسبب عدم الاغناء أو العلم به ، والمراد بالتولى إما عدم القتال ، فالآية منسوخة ، وإما ترك الجدال للجلاد فهى محكمة ، والظاهر الأول ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ ظرف ـ ليخرجون ـ أو مفعول به لاذكر مقدراً ، وقيل : لا نتظر ، وجوز أن يكون ظرفا لتغنى ، أو لمستقر ومابينهما اعتراض ، أو ظرفا ـ ليقول الكافر ـ أو ـ لتول ـ أى تول عن الشفاعة لهم يوم القيامة ، أو هو معمول له بتقدير إلى ، وعليه قول الحسن ـ فتول عنهم إلى يوم ـ *

والمراد استمرار التولى والكل كما ترى ، والداعى إسرافيل عليه السلام ، وقيل : جبرائيل عليه السلام ، وقيل : ملك غيرهما موكل بذلك ، وجوز أن يكون الدعاء للاعادة فى ذلك اليوم كالأمر فى (كن فيكون) على القول بأنه تمثيل ، فالداعى حينئذ هو الله عز وجل ، وحذفت الواو من (يدع) لفظاً لالتقاء الساكنين ورسما اتباعا للفظ ، والياء من (الداع) تخفيفاً ، وإجراءاً لال مجرى التنوين لأنها تعاقبه ، والشئ يحمل على ضده كما يحمل على نظيره ﴿ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ أى فظيع تنكره النفوس لعدم العهد بمثله وهو هول القيامة ويكنى بالنكر عن الفظيع لأنه فى الغالب منكر غير معهود ، وجوز أن يكون من الإنكار ضد الإقرار وأيما كان فهو وصف على فعل بضمتين وهو قليل فى الصفات ، ومنه ـ روضة أنف لم ترع ، ورجل شلل خفيف فى الحاجة سريع حسن الصحبة

طيب النفس ، وسجح لين سهل . وقرأ الحسن . وابن كثير . وشبل (نكر) بإسكان الكاف كما قالوا : شغل وشغل، وعسر وعسر وهو إسكان تخفيف ، أو السكون هو الاصل والضم للاتباع ، وقرأ مجاهد . وأبو قلابة . والجحدرى . وزيد بن على (نكر) فعلا ماضياً مبنياً للمفعول بمعنى أنكر ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ ﴾ حال من فاعل ﴿ يَخْرُجُونَ ﴾ أى يخرجون ﴿ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ أى القبور أذلة أبصارهم من شدة الهول أى أذلاء من ذلك ، وقدم الحال لتصرف العامل والاهتمام ، وفيه دليل على بطلان مذهب الجرمى من عدم تجويز تقدم الحال على الفعل وإن كان متصرفا ، ويرده أيضا قولهم : شتى تؤب الحلبة ، وقوله :

سريعاً يهون الصعب عند أولى النهى ... إذا برجاء صادق قابلوا البأسا

وجعل حالا من ذلك لقوله تعالى : (يوم يخرجون من الاجداث سراعا) إلى قوله تعالى : (خاشعة أبصارهم) . وقيل : هو حال من الضمير المفعول المحذوف فى (يدع الداع) أى يدعوهم الداع ؛ وتعقب بأنه لا يطابق المنزل وأيضا يصير حالا مقدرة لأن الدعاء ليس حال خشوع البصر وليست فى الكثرة كغيرها وكذلك جعله مفعول - يدعو - على معنى يدعو فريقاً خاشعاً أبصارهم أى سيخشع وإن كان هذا أقرب مما قبل ، وقيل : هو حال من الضمير المجرور فى قوله تعالى : (فتولى عنهم) وفيه مالا يخفى ، وأبصارهم فاعل خشعاً وطابقه الوصف فى الجمع لأنه إذا كسر لم يشبه الفعل لفظاً فتحسن فيه المطابقة وهذا بخلاف ما إذا جمع جمع مذكر سالم فانه لم يتغير زنته وشبهه للفعل فينبغى أن لا يجمع إذا رفع الظاهر المجموع على اللغة الفصيحة دون لغة أكلونى البراغيث ، لكن الجمع حينئذ فى الاسم أخف منه فى الفعل كما قال الرضى ، ووجهه ظاهر ، وفى التسهيل إذا رفعت الصفة اسما ظاهراً مجموعا فان أمكن تكسيرها - كمررت برجل (قيام) غلمانه - فهو أولى من إفرادها - كمررت برجل (قائم) غلمانه - وهذا قول المبرد ومن تبعه والسماع شاهد له كقوله :

وقوفا بها صحبى على مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقوله : بمطرد لدن صحاح كعوبه ... وذى رونق عضب يقد القوانسا

وقال الجمهور : الافراد أولى والقياس معهم ، وعليه قوله :

ورجال حسن أوجههم ... من إياد بن نزار بن معد

وقيل : إن تبع مفرداً فالافراد أولى - كرجل (قائم) غلمانه - وإن تبع جمعاً فالجمع أولى - كرجال قيام غلمانهم وأما التثنية والجمع السالم فعلى لغة أكلونى البراغيث ؛ وجوز أن يكون فى (خشعاً) ضمير مستتر ، و (أبصارهم) بدلا منه ، وقرأ ابن عباس . وابن جبير . ومجاهد . والجحدرى . وأبو عمرو . وحمزة . والكسائى - خاشعاً - بالإفراد ، وقرأ أبى . وابن مسعود - خاشعة - وقرئ - خشع - على أنه خبر مقدم ، و (أبصارهم) مبتدأ ، والجملة فى موضع الحال ، وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ٧ ﴾ حال أيضا وتشبيههم بالجراد المنتشر فى الكثرة والتموج والانتشار فى الاقطار ، وجاء تشبيههم بالفراش المبثوث ولهم يوم الخروج سهم من الشبه لكل ، وقيل : يكونون أولا كالفراش حين يموجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون لان الفراش لا جهة لها تقصدها ، ثم كالجراد المنتشر إذا توجهوا إلى المحشر فهما تشبيهان باعتبار وقتين ، وحكى ذلك عن مكى بن أبى طالب *

﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ مسرعين اليه قال أبو عبيدة : وزاد بعضهم مادى أعناقهم ، وآخر مع هز ورهق ومد بصر ،

وقال عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت ، وعن ابن عباس ناظرين اليه لا تقلع أبصارهم عنه وأنشد قول تبع :

تعبدنى نمر بن سعد وقد أرى ونمر بن سعد لى (مطيع ومهطع)

وفى رواية أنه فسره بخاضعين وأنشد البيت ، وقيل : خافضين ما بين أعينهم ، وقال سفيان : شاخصة أبصارهم إلى السماء ، وقيل : أصل الهطع مد العنق ، أو مد البصر ، ثم يكنى به عن الاسراع ، أو عن النظر والتأمل فلا تغفل ، ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ٨ ﴾ صعب شديد لما يشاهدون من مخايل هوله وما يرتقبون من سوء منقلبهم فيه ، وفى إسناد القول المذكور إلى الكفار تلويح بأنه على المؤمنين ليس كذلك ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ شروع فى تعداد بعض ماذكر من الأنباء الموجبة للازدجار ، ونوع تفصيل لها وبيان لعدم تأثرهم بها تقريراً لفحوى قوله تعالى : (فما تغنى النذر) والفعل منزل منزلة اللازم أى فعلت التكذيب قبل تكذيب قومك قوم نوح ، وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ تفسير لذلك التكذيب المبهم كما فى قوله تعالى : (ونادى نوح ربه فقال) الخ ، وفيه مزيد تحقيق وتقرير للتكذيب ، وجوز أن يكون المعنى كذبوا تكذيباً إثر تكذيب كلما خلا منهم قرن مكذب جاء عقيبه قرن آخر مكذب مثله ، أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا أى لما كانوا مكذبين للرسل جاحدين للنبوة رأساً كذبوا نوحاً لانه من جملة الرسل ، والفاء عليه سببية ، وقيل : معنى كذبت قصدت التكذيب وابتدأته ، ومعنى فكذبوا أتموه وبلغوا نهايته كما قيل فى قوله : * قد جبر الدين الإله فجبر * وفى ذكره عليه السلام بعنوان العبودية مع الاضافة إلى نون العظمة تفخيم له عليه السلام ورفع لمحله وتشنيع لمكذبيه * ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ ﴾ أى لم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه إلى الجنون فقالوا هو مجنون ﴿ وَازْدُجِرَ ٩ ﴾ عطف على ـ قالوا ـ وهو إخبار منه عز وجل أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذية والتخويف قاله ابن زيد ، وقرأ (لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) وقال مجاهد : هو من تمام قولهم أى هو مجنون ، وقد ازدجرته الجن وذهبت بلبه وتخبطته ، والأول أظهر وأبلغ ، وجعل مبنياً للمفعول لغرض الفاصلة ، وطهر الألسنة عن ذكرهم دلالة على أن فعلهم أسوأ من قولهم ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي ﴾ أى بأنى *

وقرأ ابن أبى إسحق . وعيسى . والأعمش . وزيد بن على ـ ورويت عن عاصم ـ (إنى) بكسر الهمزة على إضمار القول عند البصريين ، وعلى إجراء الدعاء مجرى القول عند الكوفيين ﴿ مَغْلُوبٌ ﴾ من جهة قومى مالى قدرة على الانتقام منهم ﴿ فَانْتَصِرْ ١٠ ﴾ فانتقم لى منهم ، وقيل : فانتصر لنفسك إذ كذبوا رسولك ، وقيل : المراد ـ بمغلوب ـ غلبتنى نفسى حتى دعوت عليهم بالهلاك وهو خلاف الظاهر وما دعا عليه السلام عليهم إلا بعد اليأس من إيمانهم ، والتأكيد لمزيد الاعتناء بأمر الترحم المقصود من الاخبار *

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ١١ ﴾ أى منصب ، وقيل : كثير قال الشاعر :

أعيناى جودا بالدموع (الهوامر) على خير باد من معد وحاضر

والباء للآلة مثلها فى فتحت الباب بالمفتاح ، وجوز أن تكون للملابسة والاول أبلغ ، وفى الكلام استعارة تمثيلية بتشبيه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء وانشق أديم الخضراء . وهو الذى ذهب اليه الجمهور ، وذهب قوم إلى أنه على حقيقته وهو ظاهر كلام ابن عباس *

أخرج ابن المنذر . وابن أبى حاتم عنه أنه قال : لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم فالتقى الماآن ، وفى رواية لم تقلع أربعين يوما ،وعن النقاش أنه أريد بالأبواب المجرة وهى شرج السماء كشرج العيبة ، والمعروف من الارصاد أن المجرة كواكب صغار متقاربة جداً ، والله تعالى أعلم ﴿

ومن العجيب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم الله تعالى بمطلوبهم، وقرأ ابن عامر . وأبو جعفر . والاعرج . ويعقوب (ففتحنا) بالتشديد لكثرة الابواب ، والظاهر أن جمع القلة هنا للكثرة ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُوناً ﴾ وجعلنا الارض كلها كأنها عيون متفجرة وأصله فجرنا عيون الارض فغير إلى التمييز للمبالغة بجعل الارض كلها متفجرة مع الابهام و التفسير ، فالتمييز محول عن المفعول، وجعله بعضهم محولا عن الفاعل بناءاً على أنه الأكثر، والاصل انفجرت عيون الارض وتحويله كما يكون عن فاعل الفعل المذكور يكون عن فاعل فعل آخر يلاقيه فى الاشتقاق ـ وهذا منه ـ وهو تكلف لا حاجة اليه ، ومنع بعضهم مجىء التمييز من المفعول فأعرب (عيوناً) حالا مقدرة ، وجوز عليه أن يكون مفعولا ثانياً لفجرنا على تضمينه ما يتعدى اليه أى صيرنا بالتفجير الارض عيوناً وكان ذلك على ما فى بعض الروايات أربعين يوما، وقرأ عبدالله . وأصحابه . وأبو حيوة . والمفضل عن عاصم (فجرنا) بالتخفيف ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَاءُ ﴾ أى ماء السماء وماء الارض، والإفراد لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة بل بطريق الاختلاط والاتحاد ، وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . والحسن . ومحمد بن كعب . والجحدرى ـ الماآن ـ والتثنية لقصد بيان اختلاف النوعين وإلا فالماء شامل لماء السماء وماء الارض ، ونحوه قوله :

لنا (إبـــلان) فيهما ماعلمتم فعن (أيها) ماشئتم فتنكبوا

وقيل: فيها إشارة إلى أن ماء الارض فار بقوة وارتفع حتى لاقى ماء السماء وفى ذلك مبالغة لا تفهم من الافراد، وقرأ الحسن أيضاً ـ ماوان ـ بقلب الهمزة واواً كقولهم: علباوان كما قال الزمخشرى، ولم يرد أنه نظيره بل أراد كما أن هنالك إبدالا بعلة أنها غير أصلية لانها زائدة للالحاق كذلك ههنا لانها مبدلة والبدل وإن كان من الهاء لكنها أجريت مجرى البدل عن الواو فقيل فى النسبة فيه . ماوى ، وجاء فى جمعه أمواء كما جاء أمواه ، ولا يبعد أن يكون من ثناه بالواو قاسه على النسبة كذا فى الكشف ، وعنه أيضاً المايان بقلب الهمزة ياءاً ﴿

﴿ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ اى كائناً على حال قد قدرها الله تعالى فى الازل من غير تفاوت أو على حال قدرت وسويت وهى أن ما نزل على قدر ما خرج ﴿

وقيل : إن ماء الأرض علا سبعة عشر ذراعا ونزل ماء السماء مكملا أربعين ، وقيل : ماء الأرض كان أكثر وله مقدار معين عند الله عز وجل ، أو على أمر قدره الله تعالى و كتبه فى اللوح المحفوظ وهو هلاك قوم نوح بالطوفان . ورجحه أبو حيان بأن كل قصة ذكرت بعد ذكر الله تعالى فيها هلاك المكذبين فيكون هذا كناية عن هلاك هؤلاء . و(على) عليه للتعليل ،ويحتمل تعلقها بالتقى. وفيه رد على أهل الأحكام النجومية حيث زعموا أن الطوفان لاجتماع الكواكب السبعة ماعدا الزهرة فى برج مائى، وقرأ أبو حيوة . وابن مقسم (قدر) بتشديد الدال ﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ أى نوحا عليه السلام ﴿ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ أخشاب عريضة ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ أى مسامير كما قاله الجمهور . وابن عباس فى رواية ابن جرير ، وابن المنذر جمع دسار ككتاب و كتب ، وقيل :

(دسر) كسقف وسقف. وأصل الدسر الدفع الشديد بقهر فسمى به المسمار لأنه يدق فيدفع بشدة . وقيل : حبال من ليف تشد بها السفن . وقال الليث : خيوط تشد بها ألواحها ، وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة . والحسن أنها مقاديم السفينة وصدرها الذى تضرب به الموج وتدفعه . وروى عن ابن عباس نحوه . وأخرج عن مجاهد أنها عوارض السفينة أى الخشبات التى تعرض فى وسطها . وفى رواية عنه هى أضلاع السفينة. وأياً ما كان فقوله تعالى : (ذات ألواح ودسر) من الصفات التى تقوم مقام الموصوفات على سبيل الكناية كقولهم: حى مستوى القامة عريض الاظفار فى الكناية عن الانسان وهو من فصيح الكلام وبديعه . ونظير الآية قول الشاعر :

مفرشى صهوة الحصان ولكن　　(قميصى) مسرودة من حديد

فانه أراد قميصى درع . وقوله يصف هزال الابل :

تراءى الهافى كل عين مقابل　　ولو فى (عيون النازيات بأكرع)

فانه أراد فى عيون الجراد لأن النزو بالأكرع يختص بها . وأما كونه على حذف الموصوف لدلالة الصفة عليه على ما فى المفصل وغيره فكلام نحوى ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منا. وكنى به عن الحفظ أى تجرى فى ذلك الماء بحفظنا وكلاءتنا ، وقيل : بأوليائنا يعنى نوحا عليه السلام ومن آمن معه يقال : مات عين من عيون الله تعالى أى ولى من أوليائه سبحانه ، وقيل : بأعين الماء التى فجرناها ، وقيل : بالحفظة من الملائكة عليهم السلام سماهم أعيناً وأضافهم اليه جل شأنه والاول أظهر ، وقرأ زيد بن على . وأبو السمال ـ بأعينا ـ بالادغام *

﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ ﴾ أى فعلنا ذلك جزاءاً لنوح عليه السلام فانه كان نعمة أنعمها الله تعالى على قومه فكفروها وكذا كل نبى نعمة من الله تعالى على أمته ، وجوز أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل إلى الضمير واستتاره فى الفعل بعد انقلابه مرفوعا اى لمن كفر به وهو نوح عليه السلام أيضا أى جحدت نبوته ، فالكفر عليه ضد الايمان ، وعلى الأول كفران النعمة ، وعن ابن عباس . ومجاهد من يراد به الله تعالى كأنه قيل: غضباً وانتصاراً لله عز وجل وهو كما ترى، وقرأ مسلمة بن محارب ـ كفر ـ باسكان الفاء خفف فعل كما فى قوله:

* لو عصر منه البان والمسك (انعصر) *　　وقرأ يزيد بن رومان . وقتادة . وعيسى (كفر) مبنياً للفاعل فمن يراد بها قوم نوح عليه السلام لاغير ، وفى هذه القراءة دليل على وقوع الماضى بغير قد خبراً لكان وهو مذهب البصريين وغيرهم يقول لابد من وقوع قد ظاهرة أو مقدرة ، وجوز أن تكون (كان) زائدة كأنه قيل: جزاءاً لمن (كفر) ولم يؤمن ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَا ﴾ أى أبقينا السفينة ﴿ ءَايَةً ﴾ بناءاً على ماروى عن قتادة. والنقاش أنه بقى خشبها على الجودى حتى رآه بعض أوائل هذه الأمة ، أو أبقينا خبرها ، أو أبقينا جنسها وذلك بإبقاء السفن ، أو ـ تركنا ـ بمعنى جعلنا ، وجوز كون الضمير للفعلة وهى إنجاء نوح عليه السلام ومن معه وإغراق الكافرين ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أى معتبر بتلك الآية الحرية بالاعتبار ، وقرأ قتادة على ما نقل ابن عطية ـ مذكر ـ بالذال المعجمة على قلب تاء الافتعال ذالا وإدغام الذال فى الذال ، وقال صاحب اللوامح : قرأ قتادة فهل من ـ مذكر ـ بتشديد الكاف من التذكير أى من يذكر نفسه أو غيره بها، وقرئ مذتكر بذال معجمة بعدها تاء الافتعال كما هو الاصل ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ١٥ ﴾ استفهام تعظيم وتعجيب أى كانا على كيفية هائلة

لا يحيط بها الوصف، و- النذر- مصدر كالانذار، وقيل: جمع نذير بمعنى الانذار، وجعله بعضهم بمعنى المنذر منه، وليس بشئ، وكذا جعله بمعنى المنذر، وكان يحتمل أن تكون ناقصة فكيف فى موضع الخبر؟ وتامة فكيف فى موضع الحال؟

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ ﴾ الخ جملة قسمية وردت فى آخر القصص الأربع تقريراً لمضمون ماسبق من قوله تعالى: (ولقد جاءهم) الخ وتنبيها على أن كل قصة منها مستقلة بايجاب الادكار كافية فى الازدجار، ومع ذلك لم يحصل فيها اعتبار، أى وبالله لقد سهلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم وشحناه بأنواع المواعظ والعبر وصرفنا فيه من الوعيد والوعد ﴿ للذِّكْرِ ﴾ أى للتذكر والاتعاظ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ إنكار ونفى للمتعظ على أبلغ وجه وآكده يدل على أنه لا يقدر أحد أن يجيب المستفهم بنعم، وقيل: المعنى سهلنا القرآن للحفظ لما اشتمل عليه من حسن النظم وسلاسة اللفظ وشرف المعانى وصحتها وعروه عن الوحشى ونحوه فله تعلق بالقلوب وحلاوة فى السمع فهل من طالب لحفظه ليعان عليه؟ ومن هنا قال ابن جبير: لم يستظهر شئ من الكتب الالهية غير القرآن، وأخرج ابن المنذر. وجماعة عن مجاهد أنه قال: يسرنا القرآن هونا قراءته *

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس لولا أن الله تعالى يسره على لسان الآدميين مااستطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله تعالى *

وأخرج الديلمى عن أنس مرفوعا مثله * وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين أنه مر برجل يقول سورة خفيفة فقال: لاتقل ذلك ولكن قل سورة يسيرة لأن الله تعالى يقول: (ولقد يسرنا القرآن للذكر) والمعنى الذى ذكر أولا أنسب بالمقام، ولعل خبر أنس إن صح ليس تفسيراً للآية، وجوز تفسير (يسرنا) بهيأنا من قولهم: يسر ناقته للسفر إذا رحلها، ويسر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه قال الشاعر:

وقمت إليه باللجام (ميسراً) هنالك يجزينى الذى كنت أصنع

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ شروع فى قصة أخرى ولم تعطف وكذا مابعدها من القصص إشارة إلى أن كل قصة مستقلة فى القصد والاتعاظ ولما لم يكن لقوم نوح اسم علم ذكروا بعنوان الإضافة ولما كان لقوم هود علم وهو (عاد) ذكروا به لأنه أبلغ فى التعريف، والمراد كذبت عاد هوداً عليه السلام ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم له عليه السلام روما للاختصار ومسارعة إلى بيان مافيه الازدجار من العذاب، وقوله:

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ١٨ ﴾ لتوجيه قلوب السامعين نحو الإصغاء إلى مايلقى اليهم قبل ذكره لا لتهويله وتعظيمه وتعجيبهم من حاله بعد بيانه كما قبله ومابعده كأنه قيل: (كذبت عاد) فهل سمعتم، أو فاسمعوا كيف عذابى وإنذارى لهم، وقيل: هو للتهويل أيضا لغرابة ماعذبوا به من الريح وانفراده بهذا النوع من العذاب، وفيه بحث، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ استئناف لبيان ماأجمل أولا، والصرصر الباردة على ماروى عن ابن عباس. وقتادة. والضحاك، وقيل: شديدة الصوت وتمام الكلام قد مر فى (فصلت) *

﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ شؤم عليهم ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ١٩ ﴾ ذلك الشؤم لانهم بعد أن أهلكوا لم يزالوا معذبين فى البرزخ حتى يدخلوا جهنم يوم القيامة، والمراد باليوم مطلق الزمان لقوله تعالى: (فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات)، وقوله سبحانه: (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً) والمشهور أنه يوم الاربعاء

وكان آخر شوال على معنى أن ابتداء إرسال الريح كان فيه فلا ينافى آيتى (فصلت . والحاقة) *

وجوز كون (مستمر) صفة يوم أى فى يوم استمر عليهم حتى أهلكهم ، أو شمل كبيرهم وصغيرهم حتى لم تبق منهم نسمة على أن الاستمرار بحسب الزمان أو بحسب الاشخاص والافراد لكن على الاول لابد من تجوز بإرادة استمرار نحسه ، أو بجعل اليوم بمعنى مطلق الزمان لأن اليوم الواحد لم يستمر فتدبر ، وجوز كون (مستمر) بمعنى محكم وكونه بمعنى شديد المرارة وهو مجاز عن بشاعته وشدة هوله إذ لاطعم له ، وجوز كونه بدلا ، أو عطف بيان وهو كما ترى ، وقرأ الحسن (يوم نحس) بتنوين يوم وكسر حاء نحس ، وجعله صفة ليوم فيتعين كون (مستمر) صفة ثانية له ، وأيد بعضهم بالآية ما أخرجه وكيع فى الغرر . وابن مردويه . والخطيب البغدادى عن ابن عباس مرفوعا آخر أربعاء فى الشهر يوم نحس مستمر وأخذ بذلك كثير من الناس فتطيروا منه وتركوا السعى لمصالحهم فيه ويقولون له : أربعاء لاتدور ، وعليه قوله :

لقاؤك للمبكر فأل سوء وو جهك ـ أربعاء لاتدور ـ

وذلك مما لا ينبغى ، والحديث المذكور فى سنده مسلمة بن الصلت قال أبو حاتم : متروك ، وجزم ابن الجوزى بوضعه ؛ وقال ابن رجب : حديث لا يصح ورفعه غير متفق عليه فقد رواه الطيورى من طريق آخر موقوفا على ابن عباس ، وقال السخاوى : طرقه كلها واهية ، وضعفوا أيضا خبر الطبرانى يوم الاربعاء يوم نحس مستمر ، والآية قد علمت معناها ، وجاء فى الأخبار والآثار مايشعر بمدحه ففى منهاج الحليمى ، وشعب البيهقى أن الدعاء يستجاب يوم الاربعاء بعيد الزوال ، وذكر برهان الاسلام فى تعليم المتعلم عن صاحب الهداية أنه مابدىء شئ يوم الاربعاء إلا وتم وهو يوم خلق الله تعالى فيه النور فلذلك كان جمع من المشايخ يتحرون ابتداء الجلوس للتدريس فيه ، واستحب بعضهم غرس الاشجار فيه لخبر ابن حبان . والديلمى عن جابر مرفوعا «من غرس الاشجار يوم الاربعاء وقال : سبحان الباعث الوارث أتته أكلها » نعم جاءت أخبار وآثار تشعر بخلاف ذلك ، ففى الفردوس عن عائشة مرفوعا « لولا أن تكره أمتى لأمرتها أن لا يسافروا يوم الاربعاء ، وأحب الايام إلى الشخوص فيها يوم الخميس » وهو غير معلوم الصحة عندى *

وأخرج أبو يعلى عن ابن عباس . وابن عدى . وتمام فى فوائده عن أبى سعيد مرفوعا يوم السبت يوم مكر وخديعة . ويوم الاحد يوم غرس وبناء . ويوم الاثنين يوم سفر وطلب رزق . ويوم الثلاثاء يوم حديد وبأس . ويوم الاربعاء لاأخذ ولاعطاء . ويوم الخميس يوم طلب الحوائج والدخول على السلطان . والجمعة يوم خطبة ونكاح ، وتعقبه السخاوى بأن سنده ضعيف ، وروى ابن ماجه عن ابن عمر مرفوعا ، وخرجه الحاكم من طريقين آخرين « لايبدو جذام ولا برص إلا يوم الاربعاء » وفى بعض الآثار النهى عن قص الاظفار يوم الاربعاء وأنه يورث البرص ، وكره بعضهم عيادة المرضى فيه ، وعليه قيل :

لم يؤت فى الأربعا مريض إلا دفنـــاه فى الخميس

وحكى عن بعضهم أنه قال لاخيه : أخرج معى فى حاجة فقال : هو الاربعاء قال : فيه ولد يونس قال : لاجرم قد بانت له بركته فى اتساع موضعه وحسن كسوته حتى خلصه الله تعالى قال : وفيه ولد يوسف عليه السلام قال : فما أحسن ما فعل أخوته حتى طال حبسه وغربته قال : وفيه نصر المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الأحزاب قال : أجل لكن ـ بعد أن زاغت الابصار ، وبلغت القلوب الحناجر ـ ونقل المناوى عن البحر أن

أخباره عليه الصلاة والسلام عن نحوسة آخر أربعاء فى الشهر من باب التطير ضرورة أنه ليس من الدين بل فعل الجاهلية ولامبنى على قول المنجمين أنه يوم عطارد وهو نحس مع النحوس سعد مع السعود فانه قول باطل، ويجوز أن يكون من باب التخويف والتحذير أى احذروا ذلك اليوم لما نزل فيه من العذاب وكان فيه من الهلاك وجددوا فيه لله تعالى توبة خوفاً أن يلحقكم فيه بؤس كما وقع لمن قبلهم، وهذا كما قال حين أتى الحجر: لاتدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين إلى غير ذلك، وحكى أيضا عن بعضهم أنه قال: التطير مكروه كراهية شرعية إلا أن الشرع أباح لمن أصابه فى آخر أربعاء شئ فى مصالحه أن يدع التصرف فيه لاعلى جهة التطير واعتقاد أنه يضر أو ينفع بغير إذن الله تعالى بل على جهة اعتقاد إباحة الامساك فيه لما كرهته النفس لااقتفاءاً للتطير ولكن إثباتا للرخصة فى التوقى فيه لمن يشاء مع وجوب اعتقاد أن شيئاً لايضر شيئاً، ونقل عن الحليمى أنه قال: علمنا ببيان الشريعة أن من الأيام نحساً، ويقابل النحس السعد وإذا ثبت الاول ثبت الثانى أيضاً، فالايام منها نحس ومنها سعد كالأشخاص منهم شقى ومنهم سعيد، لكن زعم أن الأيام والكواكب تنحس أو تسعد باختيارها أوقاتاً وأشخاصا باطل، والقول - إن الكواكب قد تكون أسبابا للحسن والقبيح والخير والشر والكل فعل الله تعالى وحده - مما لابأس به. ثم قال المناوى: والحاصل أن توقى الاربعاء على جهة الطيرة وظن اعتقاد المنجمين حرام شديد التحريم إذ الأيام كلها لله تعالى لاتنفع ولاتضر بذاتها وبدون ذلك لاضير ولامحذور فيه؛ ومن تطير حاقت به نحوسته، ومن أيقن بأنه لايضر ولاينفع إلا الله عز وجل لم يؤثر فيه شئ من ذلك كما قيل:

تعلم أنه لاطير إلا على (متطير) وهو الثبور

انتهى، وأقول كل الايام سواء ولا اختصاص لذلك بيوم الأربعاء ومامن ساعة من الساعات إلا وهى سعد على شخص نحس على آخر باعتبار مايحدث الله تعالى فيها من الملائم والمنافر والخير والشر، فكل يوم من الأيام يتصف بالامرين لاختلاف الاعتبار وإن استنحس يوم الأربعاء لوقوع حادث فيه فليستنحس كل يوم فما أولج الليل فى النهار والنهار فى الليل إلا لايلاد الحوادث، وقد قيل:

ألا إنما الايام أبناء واحد وهذى الليالى كلها أخوات

وقد حكى أنه صبح ثمود العذاب يوم الاحد، وورد فى الأثر ولا أظنه يصح- نعوذ بالله تعالى من يوم الأحد فان له حداً أحد من السيف - ولو صح فلعله فى أحد مخصوص علم بالوحى مايحدث فيه، وزعم بعضهم - أن من المجرب الذى لم يخط قط أنه متى كان اليوم الرابع عشر من الشهر القمرى الأحد وفعل فيه شئ لم يتم - غير مسلم، وورد فى الفردوس من حديث ابن مسعود - خلق الله تعالى الامراض يوم الثلاثاء، وفيه أنزل إبليس إلى الارض، وفيه خلق جهنم، وفيه سلط الله تعالى ملك الموت على أرواح بنى آدم. وفيه قتل قابيل هابيل، وفيه توفى موسى وهرون عليهم السلام، وفيه ابتلى أيوب - الحديث، وهو إن صح لايدل على نحوسته غايته أنه وقع فيه ماوقع وقد وقع فيه غير ذلك مما هو خير، ففى رواية مسلم - خلق المنفق أى مايقوم به المعاش يوم الثلاثاء - وإذا تتبعت التواريخ وقفت على حوادث عظيمة فى سائر الايام، ويكفى فى هذا الباب أن حادثة عاد استوعبت أيام الأسبوع فقد قال سبحانه: (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً) فان كانت النحوسة لذلك فقل لى أى يوم من الاسبوع خلا منها؟! ومثل أمر النحوسة فيما أرى أمر تخصيص كل يوم بعمل كما

يزعمه كثير من الناس ، ويذكرون فى ذلك أبياتا نسبها الحافظ الدمياطى لعلىّ كرم الله تعالى وجهه وهى

فنعم اليوم (يوم السبت) حقا لصيد إن أردت بلا امتراء
وفى (الاحد) البناء لان فيه تبدى الله فى خلق السماء
وفى (الاثنين) إن سافرت فيه سترجع بالنجاح وبالثراء
ومن يرد الحجامة (فالثلاثا) ففى ساعاته هرق الدماء
وإن شرب امرؤ يوماً دواءاً فنعم اليوم يوم (الاربعاء)
وفى (يوم الخميس) قضاء حاج فان الله يأذن بالقضاء
وفى (الجمعات) تزويج وعرس ولذات الرجال مع النساء
وهذا العلم لايدريه إلا نبي أو وصى الانبياء

ولا أظنها تصح ، وقصارى ماأقول: ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لادخل فى ذلك لوقت ولا لغيره، نعم لبعض الاوقات شرف لاينكر كيوم الجمعة وشهر رمضان وغير ذلك ، ولبعضها عكس ذلك كالأوقات التى تكره فيها الصلاة لكن هذا أمر ومحل النزاع أمر فاحفظ ذاك ، والله تعالى يتولى هداك ، وقوله تعالى :

﴿ تَنزِعُ النَّاسَ ﴾ يجوز أن يكون صفة للريح وأن يكون حالا منها لأنها وصفت فقربت من المعرفة ، وجوز أن يكون مستأنفاً، وجئ -بالناس- دون ضمير عاد قيل: ليشمل ذكورهم وإناثهم - والنزع - القلع، روى أنهم دخلوا الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فقلعتهم الريح وصرعتهم موتى *

﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ ٢٠ ﴾ أى منقلع عن مغارسه ساقط على الارض ، وقيل: شبهوا بأعجاز النخل وهى أصولها بلا فروع لأن الريح كانت تقلع رءوسهم فتبقى أجساداً وجثثاً بلا رءوس ، ويزيد هذا التشبيه حسناً أنهم كانوا ذوى جثث عظام طوال ، والنخل اسم جنس يذكر نظراً للفظ كما هنا ويؤنث نظراً للمعنى كما فى قوله تعالى: (أعجاز نخل خاوية) واعتبار كل فى كل من الموضعين للفاصلة، والجملة التشبيهية حال من الناس وهى حال مقدرة ، وقال الطبرى: فى الكلام حذف والتقدير فتركتهم كأنهم الخ ، فالكاف على مافى البحر فى موضع نصب بالمحذوف وليس بذاك ، وقرأ أبو نهيك أعجز على وزن أفعل نحو ضبع وأضبع ، وقوله تعالى :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ٢١ ﴾ تهويل لهما وتعجيب من أمرهما بعد بيانهما فليس فيه شائبة تكرار مع ماتقدم، وقيل : إن الأول لماحاق بهم فى الدنيا والثانى لمايحيق بهم فى الآخرة، و(كان) للمشاكلة، أو للدلالة على تحققه على عادته سبحانه فى إخباره ، وتعقب بأنه يأباه ترتيب الثانى على العذاب الدنيوى *

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ٢٢ ﴾ الكلام فيه كالذى مر ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ٢٣ ﴾ بالرسل عليهم الصلاة والسلام فان تكذيب أحدهم وهو صالح عليه السلام هنا تكذيب للكل لاتفاقهم على أصول الشرائع ، وجوز أن يكون مصدراً ، أو جمعاً له وأن يكون جمع نذير بمعنى المنذر منه فلا تغفل *

﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا ﴾ أى كائناً من جنسنا على أن الجار والمجرور فى موضع الصفة -لبشراً- وانتصابه بفعل يفسره -نتبع- بعد أى أنتبع بشراً ﴿ وَاحِدًا ﴾ أى منفرداً لا تبع له ، أو واحداً من آحادهم لا من أشرافهم كما يفهم من التنكير

الدال على عدم التعيين وهو صفة أخرى لبشر وتأخيره مع إفراده عن الصفة الأولى مع كونها شبه الجملة للتنبيه على أن كلا من الجنسية والوحدة مما يمنع الاتباع ولو قدم عليها لفات هذا التنبيه ، وقرأ أبو السمال فيما ذكر الهذلى فى كتابه الكامل. وأبو عمرو الدانى - أبشر منا واحد - برفعهما على أن - بشر - مبتدأ ، ومابعد صفته ، وقوله تعالى : ﴿ نَتَّبِعُهُ ﴾ خبره . ونقل ابن خالويه . وصاحب اللوامح. وابن عطية عن أبى السمال رفع - بشر - ونصب (واحداً) وخرج ذلك ابن عطية على أن رفع - بشر - إما على إضمار فعل مبنى للمفعول والتقدير أينبأ بشر ، وإما على الابتداء والخبر جملة (نتبعه)، ونصب (واحداً) على الحال إما من ضمير النصب فى (نتبعه). وإما من الضمير المستقر فى (منا) وخرج صاحب اللوامح نصب (واحداً) على هذا أيضاً ، وأما رفع بشر فخرجه على الابتداء وإضمار الخبر أى أبشر منا يبعث إلينا أو يرسل أو نحوهما، وتقدم الاستفهام يرجح تقدير فعل يرفع به ﴿ إِنَّا إِذاً ﴾ أى إذا اتبعنا بشراً منا واحداً ﴿ لَّفِى ضَلَـٰلٍ ﴾ عظيم عن الحق ﴿ وَسُعُرٍ ٢٤ ﴾ أى نيران جمع سعير *

وروى أن صالحا عليه السلام كان يقول لهم : إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق وسعر فعكسوا عليه لغاية عتوهم فقالوا : إن اتبعناك كنا إذاً كما تقول ، فالكلام من باب التعكيس والقول بالموجب ، وجمع السعير باعتبار الدركات ، أو للمبالغة ، وروى عن ابن عباس مايحتمل ماقلنا فانه قال : أى لفى بعد عن الحق وعذاب، وفى رواية أخرى عنه تفسير السعر بالجنون على أنه اسم مفرد بمعنى ذلك يقال ناقة مسعورة إذا كانت تفرط فى سيرها كأنها مجنونة قال الشاعر :

كأن بها (سعراً) إذا العيس هزها ذميل وإرخاء من السير متعب

والأول أوجه وأفصح ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ أى أأنزل عليه الوحى من بيننا وفينا من هو أحق منه بذلك ، والتعبير بألقى دون أنزل قيل : لأنه يتضمن العجلة فى الفعل ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ٢٥ ﴾ أى شديد البطر وهو على ماقال الراغب: دهش يعترى من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها ووضعها إلى غير وجهها، ويقاربه الطرب وهو خفة أكثر ماتعترى من الفرح، ومرادهم ليس الامر كذلك بل هو كذا وكذا حمله شدة بطره وطلبه التعظيم علينا على ادعاء ذلك ، وقرأ قتادة . وأبو قلابة - بل هو الكذب الأشر - بلام التعريف فيهما وبفتح الشين وشد الراء ، وسيأتى إن شاء الله تعالى قريباً مافى ذلك ، وقوله تعالى :

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ٢٦ ﴾ حكاية لما قاله سبحانه وتعالى لصالح عليه السلام وعداً له ووعيداً لقومه ، والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده ، والمراد بالغد وقت نزول العذاب الدنيوى بهم ، وقيل : يوم القيامة فهو لمطلق الزمان المستقبل وعبر به لتقريبه ، وعليه قول الطرماح :

ألا عللانى قبل نوح النوائح وقبل اضطراب النفس بين الجوانح

وقبل (غد) يالهف نفسى على غد إذا راح أصحابى ولست برائح

أى (سيعلمون) البتة عن قريب (من الكذاب الأشر) الذى حمله أشره وبطره على ماحمله أصالح أم من كذبه ، والمراد سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون لكن أورد ذلك مورد الابهام إيماء إلى أنه مما لايكاد يخفى ، ونحوه قول الشاعر :

فلئن لقيتك خاليين لتعلمن (أيي وأيك) فارس الاحزاب

وقرأ ابن عامر . وحمزة . وطلحة . وابن وثاب . والأعمش - ستعلمون - بتاء الخطاب على حكاية ماقال لهم صالح مجيبا لهم،وفى الكشاف أو هو كلام على سبيل الالتفات،قال صاحب الكشف : أى هو كلام الله تعالى لقوم ثمود على سبيل الالتفات اليهم إما فى خطابه تعالى لرسولنا صلى الله تعالى عليه وسلم وهو نظير ماحكاه سبحانه عن شعيب (فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم) بعد مااستؤصلوا هلاكا وهو من بليغ الكلام فيه دلالة على أنهم أحقاء بهذا الوعيد وكأنهم حضور فى المجلس حول اليهم الوجه لينعى عليهم جناياتهم . وإما فى خطابه عز وجل لصالح عليه السلام والمنزل حكاية ذلك الكلام المشتمل على الالتفات . وعلى التقديرين لا إشكال فيه كما توهم.ولفظ الزمخشرى على الأول أدل وهو أبلغ انتهى،ومن التفت إلى ما قاله الجمهور فى الالتفات لا أظنه تسكن نفسه بما ذكر فتأمل ، وقرأ مجاهد فيما ذكره صاحب اللوامح . وأبو قيس الاودى (الأشر) بثلاث ضمات وتخفيف الراء . ويقال : أشر وأشر كحذر وحذر فضمة الشين لغة وضم الهمزة تبع لها ٭

وحكى الكسائى عن مجاهد ضم الشين دون الهمزة فهو كندس . وقرأ أبو حيوة (الأشر) أفعل تفضيل أى الأبلغ فى الشرارة وكذا قرأ قتادة . وأبو قلابة أيضا وهو قليل الاستعمال وإن كان على الأصل كالأخير فى قول رؤبة:

٭ بلال خير الناس وابن الاخير ٭ وقال أبو حاتم: لا تكاد العرب تتكلم بالأخير - و(الأشر) إلا فى ضرورة الشعر وأنشد البيت ، وقال الجوهرى : لا يقال (الأشر) إلا فى لغة رديئة ، وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ ﴾ الخ استئناف مسوق لبيان مبادئ الموعود على ماهو الظاهر،وبه يتعين كون المراد بالغد وقت نزول العذاب الدنيوى بهم دون يوم القيامة،والارسال حقيقة فى البعث وقد جعل هنا كناية عن الإخراج ، وأريد المعنى الحقيقى معه كما أومأ اليه بعض الأجلة أى إنا مخرجوا الناقة التى سألوها من الهضبة وباعثوها ﴿ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ امتحاناً ، وجوز إبقاؤها على معناها المعروف ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ فانتظرهم وتبصر ماهم فاعلون ﴿ وَاصْطَبِرْ ٢٧ ﴾ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتى أمر الله تعالى ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ ﴾ وأخبرهم بأن ماء البئر التى لهم ﴿ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ مقسوم لها يوم ولهم يوم،و(بينهم) لتغليب العقلاء،وقرأ معاذ عن أبى عمرو (قسمة) بفتح القاف ﴿ كُلُّ شِرْبٍ ﴾ نصيب وحصة منه ﴿ مُّحْتَضَرٌ ٢٨ ﴾ يحضره صاحبه فى نوبته فتحضر الناقة تارة ويحضرونه أخرى، وقيل: يتحول عنه غير صاحبه من حضر عن كذا تحول عنه وقيل: يمنع عنه غير صاحبه مجاز عن الحظر بالظاء بمعنى المنع بعلاقة السببية فانه مسبب عن حضور صاحبه فى نوبته وهو كما ترى ، وقيل : يحضرون الماء فى نوبتهم واللبن فى نوبتها،والمعنى كل شرب من الماء واللبن تحضرونه أنتم ﴿ فَنَادَوْا ﴾ أى فأرسلنا الناقة وكانوا على هذه الوتيرة من القسمة فملوا ذلك وعزموا على عقر الناقة (فنادوا) لعقرها ﴿ صَاحِبَهُمْ ﴾ وهو قدار بن سالف أحيمر ثمود وكان أجرأهم ﴿ فَتَعَاطَى ﴾ العقر أى فاجترأ على تعاطيه مع عظمه غير مكترث به ٭

﴿ فَعَقَرَ ٢٩ ﴾ فأحدث العقر بالناقة ، وجوز أن يكون المراد فتعاطى الناقة فعقرها ، أو فتعاطى السيف فقتلها ، وعلى كل فمفعول تعاطى محذوف والتفريع لا غبار عليه ، وقيل: تعاطى منزل منزلة اللازم على أن معناه أحدث

ماهية التعاطى، وقوله تعالى: (فعقر) تفسير له لامتفرع عليه ولا يخفى ركاكته، والتعاطى التناول مطلقاً على مايفهم من كلام غير واحد، وزاد بعضهم قيد بتكلف ونسبة العقر اليهم فى قوله تعالى: (فعقروا الناقة) لأنهم كانوا راضين به ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ٣٠ ﴾ الكلام فيه كالذى تقدم ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ هى صيحة جبريل عليه السلام صاح صباح يوم الاحد كما حكى المناوى عن الزمخشرى فى طرف منازلهم ﴿ فَكَانُوا ﴾ أى فصاروا ﴿ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ٣١ ﴾ أى كالشجر اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لما شيته فى الشتاء *

وفى البحر الهشيم ماتفتت وتهشم من الشجر ، و(المحتظر) الذى يعمل الحظيرة فانه يتفتت منه حالة العمل ويتساقط أجزاء مما يعمل به ، أو يكون الهشيم مايبس من الحظيرة بطول الزمان تطؤه البهائم فيتهشم، وتعقب هذا بأن الاظهر عليه كهشيم الحظيرة ، والحظيرة الزريبة التى تصنعها العرب. وأهل البوادى للمواشى والسكنى من الأغصان والشجر المورق والقصب من الحظر وهو المنع *

وقرأ الحسن. وأبو حيوة . وأبو السمال. وأبو رجاء . وعمرو بن عبيد (المحتظر) بفتح الظاء على أنه اسم مكان. والمراد به الحظيرة نفسها أو هو اسم مفعول قيل : ويقدر له موصوف أى (كهشيم) الحائط (المحتظر) أو لا يقدر على أن (المحتظر) الزريبة نفسها كما سمعت. وجوز أن يكون مصدراً أى كهشيم الاحتظار أى ماتفتت حالة الاحتظار ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ٣٢ ﴾ كامر ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ٣٣ ﴾ على قياس النظير السابق ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ ملكا على ماقيل - يحصبهم أى يرميهم بالحصباء والحجارة أو هو اسم للريح التى تحصب ولم يرد بها الحدوث كما فى ناقة ضامر وهو وجه التذكير ، وقال ابن عباس : هو ماحصبوا به من السماء من الحجارة فى الريح ، وعليه قول الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام تضربنا (بحاصب) كنديف القطن منثور

﴿ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ ﴾ خاصته المؤمنين به ، وقيل : آله ابنتاه ﴿ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ٣٤ ﴾ أى فى سحر وهو آخر الليل ، وقيل : السدس الأخير منه ، وقال الراغب : السحر والسحرة اختلاط ظلام آخر الليل بصفاء النهار وجعل اسما لذلك الوقت، ويجوز كون الباء للملابسة والجار والمجرور فى موضع الحال أى ملتبسين (بسحر) داخلين فيه ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أى إنعاماً منا وهو علة لنجينا ، ويجوز نصبه بفعل مقدر من لفظه ، أو بنجينا لأن التنجية إنعام فهو كقعدت جلوساً ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿ نَجْزِى مَن شَكَرَ ٣٥ ﴾ نعمتنا بالايمان والطاعة ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم ﴾ لوط عليه السلام ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ أخذتنا الشديدة بالعذاب *

وجوز أن يراد بها نفس العذاب ﴿ فَتَمَارَوْا ﴾ فكذبوا ﴿ بِالنُّذُرِ ٣٦ ﴾ متشاكين ، فالفعل مضمن معنى التكذيب ولولاه تعدى بفى ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ﴾ صرفوه عن رأيه فيهم وطلبوا الفجور بهم وهذا من إسناد ماللبعض للجميع لرضاهم به ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ أى أزلنا أثرها وذلك بمسحها وتسويتها كسائر الوجه ، وهو كما قال أبو عبيدة ، وروى أن جبريل عليه السلام استأذن ربه سبحانه فى عقوبتهم ليلة جاءوا وعالجوا الباب ليدخلوا عليهم فصفقهم بجناحه فتركهم عمياناً يترددون لا يهتدون إلى طريق خروجهم حتى أخرجهم لوط عليه السلام

وقال ابن عباس. والضحاك : إنما حجب إدراكهم فدخلوا المنزل ولم يروا شيئاً فجعل ذلك كالطمس فعبر به عنه *

وقرأ ابن مقسم (فطمسنا) بتشديد الميم للتكثير فى المفعول ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ٣٧ ﴾ أى فقلنا لهم ذلك على ألسنة الملائكة عليهم السلام ، فالقول فى الحقيقة لهم وأسند إليه تعالى مجازاً لأنه سبحانه الآمر أو القائل ظاهر الحال فلا قول وإنما هو تمثيل ، والمراد بالعذاب الطمس وهو من جملة ما أنذروه *

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً ﴾ أول النهار وهى أخص من الصباح فليس فى ذكرها بعده زيادة وكان ذلك أول شروق الشمس ، وقرأ زيد بن على (بكرة) غير مصروفة للعلمية والتأنيث على أن المراد بها أول نهار مخصوص*

(عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ٣٨) يستقر بهم ويدوم حتى يسلمهم إلى النار، أو لا يدفع عنهم، أو يبلغ غايته *

(فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ٣٩) حكاية لما قيل لهم بعد التصحيح من جهته تعالى تشديداً للعذاب ، أو هو تمثيل *

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ٤٠) تقدم ما فيه من الكلام *(وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ٤١)* صدرت قصتهم بالتوكيد القسمى لابراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها وهول ما لاقوه من العذاب وقوة إيجابها للاتعاظ والاكتفاء بذكر آل فرعون للعلم بأن نفسه أولى بذلك فانه رأس الطغيان ومدعى الألوهية ، والقول. بأنه إشارة إلى إسلامه مما لا يلتفت إليه ، و(النذر) إن كان جمع نذير بمعنى الانذار فالأمر ظاهر وكذا إن كان مصدراً ، وأما إن كان جمع نذير بمعنى المنذر فالمراد به موسى. وهرون. وغيرهما لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون أى وبالله تعالى لقد جاءهم المنذرون، أو الانذرات، أو الانذار، وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية مجيء النذر كأنه قيل: فماذا فعل آل فرعون حينئذ ؟ فقيل : كذبوا بجميع آياتنا وهى آيات الأنبياء كلهم عليهم السلام فان تكذيب البعض تكذيب للكل، أو هى الآيات التسع، وجوز الواحدى أن يراد بالنذر نفس الآيات فقوله سبحانه: (بآياتنا) من إقامة الظاهر مقام الضمير والأصل كذبوا بها ، وزعم بعض غلاة الشيعة وهم المسلمون بالكشفية فى زماننا أن المراد ـ بالآيات كلها ـ على كرم الله تعالى وجهه فإنه الإمام المبين المذكور فى قوله تعالى: (وكل شئ أحصيناه فى إمام مبين) وأنه كرم الله تعالى وجهه ظهر مع موسى عليه السلام لفرعون وقومه فلم يؤمنوا ـ وهذا من الهذيان بمكان ـ نسأل الله تعالى العفو والعافية ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ أى آل فرعون ، وزعم بعض أن ضمير (كذبوا) وضمير أخذناهم عائدان على جميع من تقدم ذكره من الأمم وتم الكلام عند قوله تعالى: (النذر) وليس بشئ ، والفاء للتفريع أى (فأخذناهم) وقهرناهم لأجل تكذيبهم *(أَخْذَ عَزِيزٍ)* لا يغالب ﴿ مُّقْتَدِرٍ ٤٢ ﴾* لا يعجزه شيء ، ونصب أخذ على المصدرية لا على قصد التشبيه *(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ)* أى الكفار المعدودين قوم نوح . وهود . وصالح . ولوط . وآل فرعون ، والمراد الخيرية باعتبار الدنيا وزينتها ككثرة القوة والشدة ووفور العدد والعدة، أو باعتبار لين الشكيمة فى الكفر بأن يكون الكفار المحدث عنهم بالخيرية أقل عناداً وأقرب طاعة وانقياداً، وظاهر كلام كثير أن الخطاب هنا عام للمسلمين وغيرهم حيث قالوا: (أكفاركم) يامعشر العرب (خير) الخ والاستفهام إنكارى فى معنى النفى فكأنه قيل: ما كفاركم خير من اولئكم الكفار المعدودين بأن يكونوا أكثر منهم قوة وشدة وأوفر عدداً وعدة، أو بأن يكونوا ألين شكيمة فى الكفر والعصيان

والضلال والطغيان بل هم دونهم فى القوة وماأشبهها من زينة الدنيا،أوأسوأ حالا منهم فى الكفر ، وقدأصاب من هو خير ماأصاب فكيف يطمعون هم فى أن لايصيبهم نحو ذلك ، وكذا قيل : فى الخطاب فى قوله تعالى:

﴿ أمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فى الزُّبُرِ ﴾ وجعل بتقدير أم لكفاركم وهو إضراب وانتقال إلى تبكيت آخر فكأنه قيل: بل ألكفاركم براءة وأمن من تبعات مايعملون من الكفر والمعاصى وغوائلها فى الكتب السماوية فلذلك يصرون على ماهم عليه ولايخافون،واختار بعضهم فى هذا أنه خاص بالكفار ، وقالوا فى قوله تعالى :

﴿ أمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ٤٣ ﴾ إنه إضراب من التبكيت المذكور إلى تبكيت آخر بطريق الالتفات للايذان بإفضاء حالهم إلى الاعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية قبائحهم لغيرهم،أى بل أيقولون واثقين بشوكتهم نحن جماعة أمرنا مجتمع لا يرام ولا يضام،أو(منتصر)من الأعداء لا يغلب،أومتناصر ينصر بعضنا بعضاً *

والذى يترجح فى نظر الفقير أن الخطاب فى الموضعين خاص على مايقتضيه السياق بكفار أهل مكة أوالعرب وهو ظاهر فى الموضع الثانى لايحتاج إلى شئ ، وأمافى الموضع الاول فوجهه أن تكون الاضافة مثلها فى الدراهم كلها كذا ، وطورسيناء ، ويوم الأحد ولم يقل أأنتم للتنصيص على كفرهم المقتضى لهلاكهم ، ويجوز أن يعتبر فى (أكفاركم)ضرب من التجريد الذى ذكروه فى نحو (لهم فيها دار الخلد) فكأنه جرد منهم كفار وأضيفوا اليهم ، وفى ذلك من المبالغة مافيه ، ويجوز أن يكون هذا وجهاً للعدول عن أأنتم ، وربما يترجح به كون الخيرية المنفية باعتبار لين الشكيمة فى الكفر وكأنه لماخوف سبحانه الكفار الذين كذبوا الآيات وأعرضوا عنها ، وقالوا هى سحر مستمر بذكر ماحل بالامم السالفة مما تبرق وترعد منه أسارير الوعيد قال عز وجل لهم :لم لاتخافون أن يحل بكم مثل ماحل بهم أأنتم أقل كفراً وعناداً منهم ليكون ذلك سببا للأمن من حلول نحو عذابهم بكم أم أعطاكم الله عز وجل براءة من عذابه أم أنتم أعز منهم منتصرون على جنود الله تعالى وعدل سبحانه عن أم أنتم جميع منتصر إلى مافى النظم الجليل للاشارة إلى أن ذلك مما لاتحقق له أصلا إلا باللفظ ومحض الدعوى التى لا يوافق عليها فتأمل ، فأسرار كلام الله تعالى لاتتناهى ، ثم لاتعجل بالاعتراض على ماقلناه وإن لم يكن لنا سلف فيه حسبما تتبعنا،ثم إن (جميع) على ماأشير اليه بمعنى الجماعة التى أمرها مجتمع وليس من التأكيد فى شئ بل هو خبر (نحن) ، وجوز أن يكون بمعنى مجتمع خبر مبتدأ محذوف وهو(أمرنا)والجملة خبر (نحن) وأن يكون هو الخبر والاسناد مجازى،و(منتصر) على ماسمعت إما بمعنى ممتنع يقال: نصره فانتصر إذا منعه فامتنع *

والمراد بالامتناع عدم المغلوبية أو هو بمعنى منتقم من الاعداء أوهو من النصر بمعنى العون،والافتعال بمعنى التفاعل كالاختصام والتخاصم وكان الظاهر منتصرون إلا أنه أفرد باعتبار لفظ الجميع فانه مفرد لفظاً جمع معنى ورجح هنا جانب اللفظ عكس بل أنتم قوم تجهلون لخفة الإفراد مع رعاية الفاصلة وليس فى الآية رعاية جانب المعنى أولا ، ثم رعاية جانب اللفظ ثانيا على عكس المشهور ، وإن كان ذلك جائزاً على الصحيح كما لايخفى على الخبير ، وقرأ أبو حيوة . وموسى الأسوارى . وأبو البرهسم ـ أم تقولون ـ بتاء الخطاب ، وقوله تعالى :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ رد لقولهم ذلك والسين للتأكيد أى يهزم جمعهم البتة ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ٤٥ ﴾ أى الادبار، وقد قرئ كذلك ، والإفراد لإرادة الجنس الصادق على الكثير مع رعاية الفواصل ومشاكلة القرائن ، أولأنه فى تأويل يولى كل واحد منهم دبره على حد كسانا الأمير حلة مع الرعاية المذكورة أيضا وقد كان هذا يوم بدر وهو من دلائل النبوة لأن الآية مكية ، وقد نزلت حيث لم يفرض جهاد ولا كان قتال ولذا قال عمر

رضى الله تعالى عنه : يوم نزلت أى جمع يهزم أى من جموع الكفار ؟ ولم يتعرض لقتال أحد منهم، وقد تقدم الخبر ﴿
ومما أشرنا اليه يعلم أن قول الطيبى فى هذه الرواية نظر لأن همزة الإنكار فى (أم يقولون) الخ دلت على أن المنهزمين من هم ناشئ عن الغفلة عن مراد عمر رضى الله تعالى عنه ، وقرأ أبو حيوة . وموسى الاسوارى . وأبو البرهسم - ستهزم الجمع - بفتح التاء وكسر الزاى خطاباً لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونصب الجمع على المفعولية ، وقرأ أبو حيوة أيضا . ويعقوب - سنهزم - بالنون مفتوحة وكسر الزاى على إسناد الفعل إلى ضمير العظمة ، وعن أبى حيوة . وابن أبى عبلة (سيهزم) الجمع بفتح الياء مبنياً للفاعل ونصب الجمع أى سيهزم الله تعالى الجمع، وقرأ أبو حيوة. وداود بن أبى سالم عن أبى عمرو - وتولون - بتاء الخطاب ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ أى ليس هذا تمام عقوبتهم بل الساعة موعد عذابهم وهذا من طلائعه ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ ﴾ أى أعظم داهية وهى الامر المنكر الفظيع الذى لا يهتدى إلى الخلاص عنه ﴿ وَأَمَرُّ ٤٦ ﴾ وأشد مرارة فى الذوق وهو استعارة لصعوبتها على النفس، وقيل: أقوى وليس بذاك وإظهار الساعة فى موضع إضمارها التربية تهويلها ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ ﴾ من الأولين والآخرين ﴿ فِى ضَلَالٍ ﴾ فى هلاك ﴿ وَسُعُرٍ ٤٧ ﴾ ونيران مسعرة أو فى ضلال عن الحق ونيران فى الآخرة ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : فى خسران وجنون ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ ﴾ أى يجرون ﴿ فِى النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ متعلق بقول مقدر بعده أى يوم يسحبون يقال لهم ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ٤٨ ﴾ وجوز أن يكون متعلقاً بمقدر يفهم مما قبل أى يعذبون ، أو يهانون ، أو نحوه ، وجملة القول عليه حال من ضمير (يسحبون) وجوز كونه متعلقاً - بذوقوا - على أن الخطاب للمكذبين المخاطبين فى قوله تعالى: (أكفاركم) الخ أى ذوقوا أيها المكذبون محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم يوم يسحب المجرمون المتقدمون، والمراد حشرهم معهم والتسوية بينهم فى الآخرة كما ساووهم فى الدنيا وهو كما ترى ، والمراد - بمس سقر - ألمها على أنه مجاز مرسل عنه بعلاقة السببية فان مسها سبب للتألم بها وتعلق الذوق بمثل ذلك شائع فى الاستعمال ، وفى الكشاف (مس سقر) كقولك وجد مس الحمى وذاق طعم الضرب لان النار إذا أصابتهم بحرها ولحقتهم بايلامها فكأنها تمسهم مساً بذلك كما يمس الحيوان ويباشر بما يؤذى ويؤلم وهو مشعر بأن فى الكلام استعارة مكنية نحو (ينقضون عهد الله) ويحتمل غير ذلك ، (وسقر) علم لجهنم - أعاذنا الله تعالى منها ببركة كلامه العظيم وحرمة حبيبه عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم - من سقرته النار وصقرته بابدال السين صاداً لاجل القاف إذا لوحته وغيرت لونه قال ذو الرمة يصف ثور الوحش :

إذا ذابت الشمس اتقى صقراتها بأفنان مربوع الصريمة معبل

وعدم الصرف للعلمية والتأنيث، وقرأ عبد الله إلى النار ، وقرأ محبوب عن أبى عمرو (مس سَّقر) بادغام السين فى السين، وتعقب ذلك ابن مجاهد بأن إدغامه خطأ لأنه مشدد، والظن بأبى عمرو أنه لم يدغم حتى حذف إحدى السينين لاجتماع الأمثال ثم أدغم ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ ﴾ من الأشياء ﴿ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ أى مقدراً مكتوبا فى اللوح قبل وقوعه ، فالقدر بالمعنى المشهور الذى يقابل القضاء ، وحمل الآية على ذلك هو المأثور عن كثير من السلف، وروى الامام أحمد . ومسلم . والترمذى . وابن ماجه عن أبى هريرة قال : « جاء مشركو قريش يخاصمون

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى القدر فنزلت (يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شئ خلقناه بقدر)» وأخرج البخارى فى تاريخه. والترمذى وحسنه . وابن ماجه. وابن عدى .وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « صنفان من أمتى ليس لهما فى الاسلام نصيب المرجئة والقدرية » أنزلت فيهم آية فى كتاب الله (إن المجرمين فى ضلال وسعر) إلى آخر الآيات ، وكان ابن عباس يكره القدرية جداً ، أخرج عبد بن حميد عن أبى يحيى الأعرج قال سمعت ابن عباس -وقد ذكر القدرية- يقول :لو أدركت بعضهم لفعلت به كذا وكذا ثم قال : الزنا بقدر . والسرقة بقدر . وشرب الخمر بقدر *

وأخرج عن مجاهد أنه قال : قلت لابن عباس :ماتقول فيمن يكذب بالقدر؟ قال: اجمع بينى وبينه قلت: ماتصنع به؟ قال : أخنقه حتى أقتله ،وقد جاء ذمهم فى أحاديث كثيرة ،منها ماأخرجه أحمد.وأبو داود.والطبرانى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال :« لكل أمة مجوس ومجوس أمتى الذين يقولون لاقدر إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم » . وجوز كون المعنى إنا كل شئ خلقناه مقدراً محكما مستوفى فيه مقتضى الحكمة التى يدور عليها أمر التكوين ، فالآية من باب (وخلق كل شئ فقدره تقديراً) ونصب (كل)بفعل يفسره مابعده أى إنا خلقنا كل شئ خلقناه ،وقرأ أبو السمال قال : ابن عطية . وقوم من أهل السنة برفع كل وهو على الابتداء، وجملة (خلقناه) هو الخبر، و(بقدر) متعلق به كما فى القراءة المتواترة ، فتدل الآية أيضاً على أن كل شئ مخلوق بقدر ولا ينبغى أن تجعل جملة خلقناه صفة،ويجعل الخبر (بقدر)لاختلاف القراءتين معنى حينئذ ، والاصل توافق القراآت ، وقال الرضى : لايتفاوت المعنى لان مراده تعالى بكل شئ كل مخلوق سواء نصبت (كل) أو رفعته وسواء جعلت(خلقناه) صفة مع الرفع ، أو خبراً عنه،وذلك إن خلقنا كل شئ بقدر لايريد سبحانه به خلقنا كل ما يقع عليه اسم شئ لانه تعالى لم يخلق جميع الممكنات غير المتناهية واسم الشئ يقع على كل منها ، وحينئذ نقول:إن معنى (كل شئ خلقناه بقدر) على أن خلقناه هو الخبر (كل) مخلوق مخلوق (بقدر) وعلى أن(خلقناه) صفة (كل شئ) مخلوق كائن.(بقدر) والمعنيان واحد إذ لفظ (كل) فى الآية مختص بالمخلوقات سواء كان (خلقناه)صفة له أو خبراً ، وتعقبه السيد السند قدس سره بأنه لقائل أن يقول: إذا جعلنا (خلقناه) صفة كان المعنى (كل) مخلوق متصف بأنه مخلوقنا كائن بقدر ، وعلى هذا لايمتنع نظراً إلى هذا المعنى أن يكون هناك مخلوقات غير متصفة بتلك الصفة فلا تندرج تحت الحكم ، وأما إذا جعلناه خبراً أو نصبنا (كل شئ) فلامجال لهذا الاحتمال نظراً إلى نفس المعنى المفهوم من الكلام فقد اختلف المعنيان قطعا ولا يجديه نفعا أن كل مخلوق متصف بتلك الصفة فى الواقع لأنه إنما يفهم من خارج الكلام ولاشك أن المقصود ذلك المعنى الذى لااحتمال فيه ،وذكر نحوه الشهاب الخفاجى ولكون النصب نصا فى المقصود اتفقت القرآت المتواترة عليه مع احتياجه إلى التقدير وبذلك يترجح على الرفع الموهم لخلافه وإن لم يحتج اليه *

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ ﴾ أى ماشأننا إلا فعلة واحدة على نهج لايختلف ووتيرة لا تتعدد وهى الايجاد بلامعالجة ومشقة ، أو ماأمرنا إلا كلمة واحدة ، وهى قوله تعالى :(كن) فالامر مقابل النهى وواحد الأمور ،فاذا أراد عز وجل شيئا قال له :(كن فيكون) ﴿ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ٥٠ ﴾ أى فى السير والسرعة ،وقيل: هذا فى قيام الساعة فهو كقوله تعالى : (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر) ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أى أشباهكم فى الكفر

من الامم السالفة ، وأصله جمع شيعة وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع ولما كانوا فى الغالب من جنس واحد أريد به ماذكر إما باستعماله فى لازمه ، أو بطريق الاستعارة ، والحال قرينة على ذلك ، وقيل : هو باق على حقيقته أى أتباعكم ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ متعظ بذلك ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ ﴾ من الكفر والمعاصى ، والضمير المرفوع للأشياع كما روى عن ابن عباس . والضحاك . وقتادة . وابن زيد ، وجملة (فعلوه) صفة (شئ) والرابط ضمير النصب ، وقوله تعالى : ﴿ فِي الزُّبُرِ ﴾ متعلق بكون خاص خبر المبتدا أى كل شئ فعلوه فى الدنيا مكتوب فى كتب الحفظة غير مغفول عنه ، وتفسير (الزبر) باللوح المحفوظ كما حكاه الطبرسى ليس بشىء ، ولم يختلف القراء فى رفع (كل) وليست الآية من باب الاشتغال فلا يجوز النصب لعدم بقاء المعنى الحاصل بالرفع لو عمل المشتغل بالضمير فى الاسم السابق كما هو اللازم فى ذلك الباب إذ يصير المعنى ههنا حينئذ فعلوا (فى الزبر) كل شىء إن علقنا الجار بفعلوا وهم لم يفعلوا شيئاً من أفعالهم فى الكتب بل فعلوها فى أماكنهم والملائكة عليهم السلام كتبوها عليهم فى الكتب ، أو فعلوا كل شىء مكتوب (فى الزبر) إن جعلنا الجار نعتاً لكل شىء ، وهذا وإن كان معنى مستقيما إلا أنه خلاف المعنى المقصود حالة الرفع وهو ما تقدم آنفا ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ من الاعمال كما روى عن ابن عباس . ومجاهد وغيرهما ، وقيل : منها ومن كل ماهو كائن إلى يوم القيامة ﴿ مُسْتَطَرٌ ﴾ مسطور مكتتب فى اللوح بتفاصيله وهو من السطر بمعنى الكتب ، ويقال : سطرت واستطرت بمعنى ، وقرأ الأعمش . وعمران . وعصمة عن أبى بكر عن عاصم (مستطر) بتشديد الراء ، قال صاحب اللوامع : يجوز أن يكون من - طر - النبات والشارب إذا ظهر ، والمعنى كل (صغير وكبير) ظاهر فى اللوح مثبت فيه ويجوز أن يكون من الاستطار لكن شدد الراء للوقف على لغة من يقول - جعفرّ ويفعلّ - بالتشديد وقفاً أى ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ووزنه على التوجيه الأول مستفعل وعلى الثانى مفتعل ، ولما كان بيان حال سوء الكفرة بقوله تعالى : (إن المجرمين) الخ مما يستدعى بيان حسن حال المؤمنين ليتكافأ الترهيب والترغيب بين سبحانه مالهم من حسن الحال بطريق الاجمال فقال عز قائلا : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى من الكفر والمعاصى ، وقيل : من الكفر ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ عظيمة الشأن ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ أى أنهار كذلك ، والافراد للاكتفاء باسم الجنس مراعاة للفواصل ، وعن ابن عباس تفسيره بالسعة ، وأنشد عليه قول لبيد بن ربيعة - كما فى الدر المنثور - أو قيس بن الخطيب - كما فى البحر - يصف طعنة :

ملكت بها كفى (فأنهرت) فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

أى أوسعت فتقها ، والمراد بالسعة سعة المنازل على ماهو الظاهر ، وقيل : سعة الرزق والمعيشة ، وقيل : ما يعمهما

وأخرج الحكيم والترمذى فى نوادر الأصول عن محمد بن كعب قال : (ونهر) أى فى نور وضياء وهو على الاستعارة بتشبيه الضياء المنتشر بالماء المتدفق من منبعه ، وجوز أن يكون بمعنى النهار على الحقيقة ، والمراد أنهم لاظلمة ولا ليل عندهم فى الجنات ، وقرأ الأعرج . ومجاهد . وحميد . وأبو السمال . والفياض بن غزوان (ونهر) بسكون الهاء ، وهو بمعنى (نهر) مفتوحها ، وقرأ الأعمش . وأبو نهيك . وأبو مجلز . واليمانى (ونهر) بضم النون والهاء ، وهو جمع نهر المفتوح أو الساكن - كأسد وأسد ، ورهن ورهن - وقيل : جمع نهار ، والمراد أنهم لاظلمة ولا ليل

عندهم كما حكى فيامر ، وقيل: قرئ بضم النون وسكون الهاء ﴿ فى مَقْعَد صدْق ﴾ فى مكان مرضى على أن الصدق مجاز مرسل فى لازمه أو استعارة، وقيل: المراد صدق المبشر به وهو الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، أو المراد أنه ناله من ناله بصدقه وتصديقه للرسل عليهم السلام ، فالاضافة لأدنى ملابسة، وقال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه: مدح المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق ، وهو المقعد الذى يصدق الله تعالى فيه مواعيد أوليائه بأنه يبيح عز وجل لهم النظر إلى وجهه الكريم ، و إفراد المقعد على إرادة الجنس *

وقرأ عثمان البتى ـ فى مقاعد ـ على الجمع وهى توضح أن المراد بالمقعد المقاعد ﴿ عندَ مَليك ﴾ أى ملك عظيم الملك، وهو صيغة مبالغة وليست الياء من الاشباع ﴿ مُقْتَدر ٥٥ ﴾ قادر عظيم القدرة، والظرف فى موضع الحال من الضمير المستقر فى الجار والمجرور ، أو خبر بعد خبر ، أو صفة لمقعد صدق، أو بدل منه، والعندية للقرب الرتبى، وذكر بعضهم أنه سبحانه أبهم العندية والقرب ونكر ـ مليكا ، ومقتدراً ـ للإشارة إلى أن ملكه تعالى وقدرته عز وجل لاتدرى الافهام كنههما وأن قربهم منه سبحانه بمنزلة من السعادة والكرامة بحيث لا عين رأت ولا أذن سمعت مما يجل عن البيان وتكل دونه الأذهان *

وأخرج الحكيم الترمذى عن بريدة ـ عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله تعالى: (إن المتقين) الخ قال: إن أهل الجنة يدخلون على الجبار كل يوم مرتين فيقرأ عليهم القرآن وقد جلس كل امرئ منهم مجلسه الذى هو مجلسه على منابر الدر والياقوت والزمرد والذهب والفضة بالأعمال فلا تقر أعينهم قط كما تقر بذلك ولم يسمعوا شيئاً أعظم منه ولا أحسن منه ثم ينصرفون إلى رحالهم قريرة أعينهم ناعمين إلى مثلها من الغد ـ وإذا صح هذا فهو من المتشابه كالآية فلا تغفل ، ولهذين الاسمين الجليلين شأن فى استجابة الدعاء على مافى بعض الآثار *

أخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن المسيب قال: دخلت المسجد وأنا أرى أنى أصبحت فاذا على ليل طويل وليس فيه أحد غيرى فنمت فسمعت حركة خلفى ففزعت فقال: أيها الممتلئ قلبه فرقا لا تفرق أو لا تفزع وقل اللهم إنك مليك مقتدر ماتشاء من أمر يكون ثم سل مابدالك قال: فماسألت الله تعالى شيئاً إلا استجاب لى وأنا أقول: اللهم إنك مليك مقتدر ماتشاء من أمر يكون فأسعدنى فى الدارين وكن لى ولا تكن على وانصرنى على من بغى على وأعذنى من هم الدين وقهر الرجال وشماتة الأعداء ، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، والحمد لله رب العالمين *

سورة القمر

مكية كلها في قول الجمهور. وقال مقاتل: إلا ثلاث آيات من قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ ولا يصح على ما يأتي. وهي خمس وخمسون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۝١﴾.

[٢] ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ۝٣﴾.

[٤] ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾.

[٥] ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥﴾.

[٦] ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ ۝٦﴾.

[٧] ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۝٧﴾.

[٨] ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ﴿اقْتَرَبَتِ﴾ أي قربت مثل ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾[1] على ما بيناه. فهي بالإضافة إلى ما مضى قريبة؛ لأنه قد مضى أكثر الدنيا كما روى قتادة عن أنس قال: خطب رسول الله ﷺ وقد كادت الشمس تغيب فقال: «ما بقي من دنياكم فيما مضى إلاّ مثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى» وما نرى من الشمس إلا يسيراً. وقال كعب ووهب: الدنيا ستة آلاف سنة. قال وهب: قد مضى منها خمسة آلاف سنة وستمائة سنة. ذكره النحاس.

ثم قال تعالى: ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي وقد انشق القمر. وكذا قرأ حُذيفة ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَقَدِ انْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ بزيادة ﴿قد﴾ وعلى هذا الجمهور من العلماء؛ ثبت ذلك في صحيح

(١) راجع ص ١٢٢ من هذا الجزء.

البخاري وغيره من حديث ابن مسعود وابن عمر وأنس وجبير بن مُطْعِم وابن عباس رضي الله عنهم. وعن أنس قال: سأل أهل مكة النبيّ ﷺ آية، فانشقّ القمر بمكة مرتين فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ إلى قوله: ﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ يقول ذاهب قال أبو عيسى الترمذيّ: هذا حديث حسن صحيح. ولفظ البخاريّ عن أنس قال: انشق القمر فرقتين. وقال قوم: لم يقع انشقاق القمر بعدُ وهو منتظر؛ أي اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر؛ وأن الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره. وكذا قال القشيري. وذكر الماورديّ: أن هذا قول الجمهور، وقال: لأنه إذا انشق ما بقي أحد إلا رآه؛ لأنه آية والناس في الآيات سواء. وقال الحسن: اقتربت الساعة فإذا جاءت انشق القمر بعد النفخة الثانية. وقيل: ﴿وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ أي وضح الأمر وظهر؛ والعرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وضَحَ؛ قال:

أقيمُوا بَنِي أمِّي صُدُورَ مَطِيّكُمْ ... فإنِّي إلى حَيٍّ سواكم لأمْيَلُ

فقد حُمَّتِ الحاجاتُ والليلُ مُقْمِرٌ ... وشُدَّت لِطيَّاتٍ مَطايا وأرْحُلُ

وقيل: انشقاق القمر هو انشقاق[1] الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها، كما يسمى الصبح فلقاً؛ لانفلاق الظلمة عنه. وقد يعبر عن انفلاقه بانشقاقه كما قال النابغة:

فلمَّا أدْبَرُوا ولَهُمْ دَوِيٌّ ... دعانا عِند شَقِّ الصُّبحِ داعِ

قلت: وقد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة، وهو ظاهر التنزيل، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها؛ لأنها كانت آية ليلية؛ وأنها كانت باستدعاء النبيّ ﷺ من الله تعالى عند التحدّي. فروي أنّ حمزة بن عبد المطلب حين أسلم غضباً من سبّ أبي جهل الرسول ﷺ طلب أن يريه آية يزداد بها يقينا في إيمانه. وقد تقدّم في الصحيح أن أهل مكة هم الذين سألوا وطلبوا أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر فلقتين كما في حديث ابن مسعود وغيره. وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال: ألا إن الساعة قد اقتربت، وأن القمر قد انشق على عهد نبيكم ﷺ. وقد قيل: هو على

(١) في تفسير الجمل نقلا عن القرطبي: «زوال الظلمة».

التقديم والتأخير، وتقديره ٱنشق القمر وٱقتربت الساعة؛ قاله ٱبن كيسان. وقد مرّ عن الفرّاء أن الفعلين إذا كانا متقاربي المعنى فلك أن تقدّم وتؤخر عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ هذا يدل على أنهم رأوا ٱنشقاق القمر. قال ٱبن عباس: ٱجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ وقالوا: إن كنت صادقاً فٱشقق لنا القمر فرقتين، نصف على أبي قُبَيس ونصف على قُعَيْقِعَان؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن فعلت تؤمنون» قالوا: نعم؟ وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربّه أن يعطيه ما قالوا: فانشق القمر فرقتين، ورسول الله ﷺ ينادي المشركين: «يا فلان يا فلان ٱشهدوا». وفي حديث ٱبن مسعود: ٱنشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالت قريش: هذا من سحر ٱبن أبي كبشة؛ سَحَرَكم فٱسألوا السُّفَّار؛ فسألوهم فقالوا: قد رأينا القمر ٱنشق فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ القَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ أي إن يروا آية تدل على صدق محمد ﷺ أعرضوا عن الإيمان ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ أي ذاهب؛ من قولهم: مَرَّ الشيءُ وٱستمر إذا ذهب؛ قاله أنس وقتادة ومجاهد والفراء والكسائي وأبو عبيدة، وٱختاره النحاس. وقال أبو العالية والضحاك: محكَم قويّ شديد، وهو من المِرَّة وهي القوّة؛ كما قال لقيط:

حتى ٱستمرّتْ عَلَى شَزْرٍ مَرِيرَتهُ ... مُرُّ العَزِيمَةِ لاَ [قحما][٢] ولا ضَرَعاً

وقال الأخفش: هو مأخوذ من إمرار الحبل وهو شدّة فتله. وقيل: معناه مُرٌّ من المرارة. يقال: أَمَرَّ الشيء صار مُرًّا، وكذلك مَرَّ الشيءُ [يَمَرُّ] بالفتح مرارة فهو مُرٌّ، وأَمَرَّه غيره ومَرَّهُ. وقال الربيع: مستمر نافذ. يمان: ماضٍ. أبو عبيدة: باطل. وقيل: دائم. قال[٣]:

وليس على شيء قويم بمَسْتمر

(١) راجع ص ٨٩ من هذا الجزء.
(٢) راجع هامش ص ٨٦ من هذا الجزء في شرح البيت. (٣) البيت لأمرىء القيس وصدره:

ألا إنما الدنيا ليال وأعصر

أي بدائم. وقيل: يشبه بعضه بعضاً؛ أي قد ٱستمرت أفعال محمد على هذا الوجه فلا يأتي بشيء له حقيقة بل الجميع تخييلات. وقيل: معناه قد مر من الأرض إلى السماء. ﴿وَكَذَّبُوا﴾ نبيّنا ﴿وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي ضلالاتهم وٱختياراتهم. ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ أي يستقر بكل عامل عمله، فالخير مستقرّ بأهله في الجنة، والشر مستقر بأهله في النار.

وقرأ شيبة ﴿مُسْتَقَر﴾ بفتح القاف؛ أي لكل شيء وقت يقع فيه من غير تقدّم وتأخر. وقد روي عن أبي جعفر بن القَعْقَاع ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٍّ﴾ بكسر القاف والراء جعله نعتاً لأمر و ﴿كُلُّ﴾ على هذا يجوز أن يرتفع بالابتداء والخبر محذوف، كأنه قال: وكل أمر مستقر في أمّ الكتاب كائن. ويجوز أن يرتفع بالعطف على الساعة؛ المعنى: ٱقتربت الساعة وكل أمرٍ مستقر؛ أي ٱقترب ٱستقرار الأمور يوم القيامة. ومن رفعه جعله خبراً عن ﴿كلّ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ﴾ أي من بعض الأنباء؛ فذكر سبحانه من ذلك ما علم أنهم يحتاجون إليه، وأن لهم فيه شفاء. وقد كان هناك أمور أكثر من ذلك، وإنما ٱقتص علينا ما علم أن بنا إليه حاجة وسكت عما سوى ذلك؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ﴾ أي جاء هؤلاء الكفار من أنباء الأمم الخالية ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي ما يزجرهم عن الكفر لو قبلوه. وأصله مُزْتَجَر فقلبت التاء دالاً؛ لأن التاء حرف مهموس والزاي حرف مجهور، فأبدل من التاء دالاً توافقها في المخرج وتوافق الزاي في الجهر. و ﴿مُزْدَجر﴾ من الزجر وهو الانتهاء، يقال: زجره وٱزدجره فٱنزجر وٱزدجر، وزجرته أنا فانزجر أي كففته فكف، كما قال:

فـأصبـحَ مـا يطلـبُ الغـانيـا تُ مُزْدَجَراً عن هواه ٱزدجاراً

وقرىء ﴿مُزّجَرٌ﴾ بقلب تاء الافتعال زايا وإدغام الزاي فيها؛ حكاه الزمخشري.

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ يعني القرآن وهو بدل من ﴿ ما ﴾ من قوله : ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾. ويجوز أن يكون خبر ٱبتداء محذوف؛ أي هو حكمة. ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾

إذا كذّبوا وخالفوا كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ والنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(١) فـ ﴿مَا﴾ نفي أي ليست تغني عنهم النذر. ويجوز أن يكون أستفهاماً بمعنى التوبيخ؛ أي فأي شيء تغني النذر عنهم وهم معرضون عنها. و ﴿النُّذُرُ﴾ يجوز أن تكون بمعنى الإنذار، ويجوز أن تكون جمع نذير.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عنهم. قيل: هذا منسوخ بآية السيف. وقيل: هو تمام الكلام. ثم قال: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾ ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ أو ﴿خُشَّعاً﴾ أو فعل مضمر تقديره وأذكر يوم. وقيل: على حذف حرف الفاء وما عملت فيه من جواب الأمر، تقديره: فتولّ عنهم فإن لهم يوم يدعو الداعي. وقيل: تَوَلَّ عنهم يا محمد فقد أقمت الحجة وأبصرهم يوم يدعو الداعي. وقيل: أي أعرض عنهم يوم القيامة ولا تسأل عنهم وعن أحوالهم، فإنهم يدعون ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ وينالهم عذاب شديد. وهو كما تقول: لا تسأل عما جرى على فلان إذا أخبرته بأمر عظيم. وقيل: أي وكلّ أمر مستقرّ يوم يدعو الداعي. وقرأ أبن كثير ﴿نُكْرٍ﴾ بإسكان الكاف، وضمها الباقون وهما لغتان كعُسْر وعُسُر وشُغْل وشُغُل، ومعناه الأمر الفظيع العظيم وهو يوم القيامة. والداعي هو إسرافيل عليه السلام. وقد روي عن مجاهد وقتادة أنهما قرأا ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكِرَ﴾ بكسر الكاف وفتح الراء على الفعل المجهول. ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ﴾ الخشوع في البصر الخضوع والذلة، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن أثر العزّ والذّل يتبين في ناظر الإنسان؛ قال الله تعالى: ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾(٣). ويقال: خَشَعَ وأختَشَعَ إذا ذلَّ. وخَشَعَ ببصره أي غضّه. وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو ﴿خَاشِعاً﴾ بالألف ويجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد، نحو: ﴿خَاشِعاً أَبْصَارُهُمْ﴾ والتأنيث نحو: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾(٤) ويجوز الجمع نحو: ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ﴾ قال(٥):

وَشَبَــابٍ حَسَــنٍ أَوْجُهُهُــمْ ... مِــنْ إيـادِ بـنِ نِـزَارِ بـنِ مَعَـد

---

(١) راجع ٨/٣٨٦. (٢) راجع ١٩/ ١٩٤. (٣) راجع ١٥/ ٤٥.

(٤) راجع ١٨/ ٢٤٨. (٥) هو الحرث بن دوس الإيادي، ويروى لأبي دؤاد الإيادي.

و ﴿خُشَّعاً﴾ جمع خاشع والنصب فيه على الحال من الهاء والميم في ﴿عَنْهُمْ﴾ فيقبح الوقف على هذا التقدير على ﴿عَنْهُمْ﴾. ويجوز أن يكون حالا من المضمر في ﴿يَخْرُجُونَ﴾ فيوقف على ﴿عَنْهُمْ﴾. وقرىء ﴿خُشَّعٌ أَبْصَارُهُمْ﴾ على الابتداء والخبر، ومحل الجملة النصب على الحال، كقوله:

[وجدته][1] حَاضِرَاه الجودُ والْكَرَمُ

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ أي القبور واحدها جدث. ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ. مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾. وقال في موضع آخر: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾[2] فهما صفتان في وقتين مختلفين؛ أحدهما ـ عند الخروج من القبور، يخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون، فيدخل بعضهم في بعض؛ فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه في بعض لا جهة له يقصدها [الثاني][3] فإذا سمعوا المنادي قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر؛ لأن الجراد له جهة يقصدها. و ﴿مُهْطِعِينَ﴾ معناه مسرعين؛ قاله أبو عبيدة. ومنه قول الشاعر:

بِدجْلَةَ دَارُهمْ[4] ولقد أراهم بِدِجْلَةَ مُهْطِعِينَ إلى السَّماعِ

الضحاك: مقبلين. قتادة: عامدين. ابن عباس: ناظرين. عكرمة: فاتحين آذانهم إلى الصوت. والمعنى متقارب. يقال: هَطَع الرجلُ يَهْطَعُ هُطُوعاً إذا أقبل على الشيء ببصره لا يقلع عنه؛ وأهطع إذا مدّ عنقه وصوّب رأسه. قال الشاعر[5]:

تَعَبَّدَنِي نِمْرُ بنُ سَعْدٍ وقد أرَى ونِمْرُ بنُ سَعْدٍ لِي مُطِيعٌ ومُهْطِعُ

وبعير مُهْطِع: في عنقه تصويبٌ خِلْقةً. وأهطع في عَدْوه أي أسرع. ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ يعني يوم القيامة لما ينالهم فيه من الشدّة.

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للسمين.
(٢) راجع ٢٠/ ١٦٥.
(٣) الزيادة من مفصل إعراب القرآن وغيره.
(٤) في اللسان: «أهلها».
(٥) قائله تبع.

[٩] ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾.

[١٠] ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾.

[١١] ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾.

[١٢] ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾.

[١٣] ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ذكر جملاً من وقائع الأمم الماضية تأنيساً للنبيّ ﷺ وتعزية له. ﴿قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قومك. ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ يعني نوحاً. الزَّمَخْشَرِيُّ: فإن قلت ما معنى قوله: ﴿فَكَذَّبُوا﴾ بعد قوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾؟ قلت: معناه كذّبوا فكذّبوا عبدنا؛ أي كذّبوه تكذيباً على عقب تكذيب؛ كلما مضى منهم قَرْن مكذِّب تبعه قَرْن مكذّب، أو كذّبت قوم نوح الرسل فكذّبوا عبدنا؛ أي لما كانوا مكذِّبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً كذّبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل. ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ أي هو مجنون ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي زجر عن دعوى النبوة بالسبّ والوعيد بالقتل. وقيل: إنما قال: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ بلفظ ما لم يسم فاعله لأنه رأس آية. ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ أي دعا عليهم حينئذ نوح وقال: رَبِّ ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ أي غلبوني بتمردهم ﴿فَانْتَصِرْ﴾ أي فانتصر لي. وقيل: إن الأنبياء كانوا لا يدعون على قومهم بالهلاك إلا بإذن الله عز وجل لهم فيه. ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ أي فأجبنا دعاءه وأمرناه باتخاذ السفينة وفتحنا أبواب السماء ﴿بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ أي كثير؛ قاله السّدي. قال الشاعر:

أعينيّ جُودَا بالدّموعِ الهَوَامرِ ... على خيرِ بادٍ من مَعَدٍّ وحاضِرِ

وقيل: إنه المنصبُّ المتدفّق؛ ومنه قول آمرىء القيس يصف غيثاً:

رَاحَ تَمْـرِيـه الصَّبَـا ثـم انْتَحَـى   فيـه شُؤْبُـوبُ جَنُـوبٍ مُنْهَمِـرْ[١]

الهَمْر الصبّ؛ وقد هَمَر الماءَ والدَّمْعَ يَهْمِرُ هَمْرا. وهَمَر أيضاً إذا أكثر الكلام وأسرع. وهَمَر له من ماله أي أعطاه. قال ابن عباس: ففتحنا أبواب السماء بماء [مُنْهَمِرٍ][٢] من غير سحاب لم يقلع أربعين يوماً. وقرأ ابن عامر ويعقوب: ﴿فَفَتَّحْنَا﴾ مشدّدة على التكثير. الباقون ﴿فَفَتَحْنَا﴾ مخفّفاً. ثم قيل: إنه فتح رتاجها وسعة مسالكها. وقيل: إنه المجرّة وهي شَرَج السماء ومنها فتحت بماء منهمر؛ قاله عليّ رضي الله عنه. ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً﴾ قال عُبَيد بن عُمير: أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجّرت بالعيون، وإن عيناً تأخّرت فغضب عليها فجعل ماءها مُرًّا أُجاجاً إلى يوم القيامة. ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أي ماء السماء وماء الأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر؛ حكاه ابن قتيبة. أي كان ماء السماء والأرض سواء. وقيل: ﴿قُدِرَ﴾ بمعنى قضى عليهم. قال قتادة: قدر لهم إذا كفروا أن يَغْرَقُوا. وقال محمد بن كعب: كانت الأقوات قبل الأجساد، وكان القدر قبل البلاء؛ وتلا هذه الآية. وقال: ﴿الْتَقَى الْمَاءُ﴾ والالتقاء إنما يكون في اثنين فصاعداً؛ لأن الماء يكون جمعاً وواحداً. وقيل: لأنهما لمّا اجتمعا صارا ماء واحداً. وقرأ الجَحْدري: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءَان﴾. وقرأ الحسن: ﴿فَالْتَقَى الْمَاوَانِ﴾ وهما خلاف المرسوم. القُشيري: وفي بعض المصاحف ﴿فَالْتَقَى الْمَاوَانِ﴾ وهي لغة طَيْء. وقيل: كان ماء السماء بارداً مثل الثلج وماء الأرض حاراً مثل الحميم. ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ أي على سفينة ذات ألواحٍ، ﴿وَدُسُرٍ﴾ قال قتادة: يعني المسامير التي دُسِرت بها السفينة أي شدّت؛ وقاله القُرَظِيّ وابن زيد وابن جبير، ورواه الوالبي عن ابن عباس. وقال الحسن وشَهْر بن حَوْشَب وعكرمة: هي صدر السفينة التي تضرب بها المَوْج سُمّيت بذلك لأنها تَدْسُر الماء أي تدفعه، والدَّسْرُ الدّفع والمَخْر؛ ورواه العَوْفي عن ابن عباس قال: الدَّسْر كَلْكَلُ[٣] السفينة.

---

(١) راح: أي عاد في الرواح؛ كأن المطر كان في أول النهار ثم عاد في آخره. وتمريه: تستدرّه، وأصله من مرى الضرع وهو مسحه ليدر. والشؤبوب: الدفعة من المطر. وخص الصبا لأنهم يمطرون بها.

(٢) الزيادة من ط. (٣) الكلكل: الصدر.

وقال الليث: الدِّسار خيط من ليف تُشد به ألواح السفينة. وفي «الصحاح»: الدِّسار واحد الدُّسر وهي خيوط تشدّ بها ألواح السفينة، ويقال: هي المسامير، وقال تعالى: ﴿عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾. ودُسْر أيضاً مثل عُسُر وعُسْر. والدَّسْر الدفع؛ قال ابن عباس في العنبر: إنما هو شيء يَدْسُره البحر دَسْراً أي يدفعه. ودَسَره بالرمح. ورجل مِدْسر. ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بمرأى منّا. وقيل: بأمرنا. وقيل: بحفظ منّا وكِلَاءة: وقد مضى في ﴿هود﴾[1]. ومنه قول الناس للمودَّع: عين الله عليك؛ أي حفظه وكِلاءته. وقيل: بِوَحينا. وقيل: أي بالأعين النابعة من الأرض. وقيل: بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها، وكل ما خلق الله تعالى يمكن أن يضاف إليه. وقيل: أي تجري بأوليائنا، كما في الخبر: مرض عين من عيوننا فلم تعده. ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ أي جعلنا ذلك ثواباً وجزاء لنوح على صبره على أذى قومه وهو المكفور به؛ فاللام في ﴿لِمَنْ﴾ لام المفعول له؛ وقيل: ﴿كُفِرَ﴾ أي جحد؛ فـ ﴿ـمن﴾ كناية عن نوح. وقيل: كناية عن الله والجزاء بمعنى العقاب؛ أي عقاباً لكفرهم بالله تعالى. وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد ﴿جَزاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ﴾ بفتح الكاف والفاء بمعنى: كان الغرق جزاءً وعقاباً لمن كفر بالله، وما نجا من الغرق غير عوج بن عنق[2]؛ كان الماء إلى حُجْزته. وسبب نجاته أن نوحاً احتاج إلى خشبة الساج لبناء السفينة فلم يمكنه حملها، فحمل عُوجٌ تلك الخشبة إليه من الشام فشكر الله له ذلك، ونَجّاه من الغرق. ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ يريد هذه الفعلة عبرةً. وقيل: أراد السفينة تركها آية لمن بعد قوم نوح يعتبرون بها فلا يكذّبون الرسل. قال قتادة: أبقاها الله بِباقِرْدَى من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة كانت بعدها فصارت رماداً. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ مُتَّعظ خائف، وأصله مُذْتكِر مُفْتَعِل من الذكر، فثقلت على الألسنة فقلبت التاء دالاً لتوافق الذال في الجهر وأدغمت الذال فيها. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي إنذاري؛

---

(١) راجع ٩/ ٣٠.

(٢) عوج بن عنق هو المشهور والذي صوبه صاحب القاموس هو ابن عوق لا عنق.

قال الفراء: الإنذار والنذر مصدران. وقيل: ﴿نُذُر﴾ جمع نذير ونذير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي سهلناه للحفظ وأعنّا عليه من أراد حفظه؛ فهل من طالب لحفظه فيعان عليه؟ ويجوز أن يكون المعنى: ولقد هيّأناه للذكر [مأخوذ](١) من يَسَّر ناقته للسَّفَر: إذا رَحَلها، ويَسَّر فرسه للغزو إذا أسْرجه وألجمه؛ قال:

وقُمْتُ إليهِ باللِّجامِ مُيَسِّراً هُنَالكَ يَجْزِينِي الذي كنتُ أَصْنَعُ

وقال سعيد بن جبير: ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن؛ وقال غيره: ولم يكن هذا لبني إسرائيل، ولم يكونوا يقرؤون التوراة إلا نظراً، غير موسى وهرون ويوشع بن نون وعزير صلوات الله عليهم، ومن أجل ذلك ٱفتتنوا بعزير لما كتب لهم التوراة عن ظهر قلبه حين أحرقت؛ على ما تقدّم بيانه في سورة ﴿براءة﴾(٢) فيسّر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ليذّكروا ما فيه؛ أي يفتعلوا الذّكر، والافتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير كالذات وكالتركيب فيهم. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ قارىء يقرؤه. وقال أبو بكر الوراق وٱبن شَوْذب: فهل من طالب خير وعلم فيعانَ عليه، وكرّر في هذه السورة للتنبيه والإفهام. وقيل: إن الله تعالى ٱقتص في هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين، وما عاملتهم به الأمم، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين(٣)؛ فكان في كل قصة ونبأ ذكْر للمستمع أن لو ٱدّكر، وإنما كرّر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ لأن ﴿هَلْ﴾ كلمة ٱستفهام تستدعي أفهامهم التي ركبت في أجوافه وجعلها حجة عليهم؛ فاللام من ﴿هَلْ﴾ للاستعراض(٤) والهاء للاستخراج.

[١٨] ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾.

[٢٠] ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

---

(١) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبي. (٢) راجع ٨/١١٧.

(٣) في ط، ل: المسلمين، وما أثبتناه في أ و ب و جـ و هـ. (٤) في ي: «للاستغراق».

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ هم قوم هود. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ وقعت ﴿نُذُرِ﴾ في هذه السورة في ستة أماكن محذوفة الياء في جميع المصاحف، وقرأها يعقوب مثبتة في الحالين، وورش في الوصل لا غير، وحذف الباقون. ولا خلاف في حذف الياء من قوله: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ والواو من قوله: ﴿يَدْعُ﴾ فأما الياء من ﴿الدَّاعِ﴾ الأول فأثبتها في الحالين ٱبن مُحيصن ويعقوب وحُميد والبَزِّي، وأثبتها ورش وأبو عمرو في الوصل، وحذف الباقون. وأمّا ﴿الدّاعِ﴾ الثانية فأثبتها يعقوب وٱبن مُحَيْصن وٱبن كثير في الحالين، وأثبتها أبو عمرو ونافع في الوصل، وحذفها الباقون. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾ أي شديدة البرد؛ قاله قتادة والضحاك. وقيل: شديدة الصوت. وقد مضى في ﴿حم السجدة﴾[1]. ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ أي في يوم كان مشؤوماً عليهم. وقال ٱبن عباس: أي في يوم كانوا يتشاءمون به. الزجاج: قيل في يوم أربعاء. ٱبن عباس: كان آخر أربعاء في الشهر أفنى صغيرهم وكبيرهم. وقرأ هرون الأعور ﴿نَحِسٍ﴾ بكسر الحاء وقد مضى القول فيه في حم السجدة ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾. و ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ أي دائم الشؤم ٱستمرّ عليهم بنحوسه، وٱستمر عليهم فيه العذاب إلى الهلاك. وقيل: ٱستمر بهم إلى نار جهنم. وقال الضحاك: كان مُرًّا عليهم. وكذا حكى الكسائي أن قوماً قالوا هو من المرارة؛ يقال: مُرَّ الشيء وأَمرَّ أي كان كالشيء المرّ تكرهه النفوس. وقد قال: ﴿فَذُوقُوا﴾ والذي يذاق قد يكون مُرًّا. وقد قيل: هو من المِرّة بمعنى القوّة. أي في يوم نحس مستمر مستحكم الشؤم كالشيء المحكم الفتل الذي لا يطاق نقضه. فإن قيل: فإذا كان يوم الأربعاء يوم نحس مستمر فكيف يستجاب فيه الدعاء ؟ وقد جاء أن النبيّ ﷺ ٱستجيب له فيه فيما بين الظهرِ والعصر. وقد مضى في ﴿ البقرة ﴾[2] حديث جابر بذلك. **فالجواب** ـ والله أعلم ـ ماجاء في خبر يرويه مسروق عن النبيّ ﷺ أنه قال: « أتاني جبريل فقال إن الله يأمرك أن تقضي باليمين مع الشاهد وقال يوم الأربعاء يوم نحس مستمر»

(١) راجع ١٥/ ٣٤٧.

(٢) راجع ٢/ ٣١٣.

ومعلوم أنه لم يرد بذلك أنه نحس على الصالحين[١]، بل أراد أنه نحس على الفجار والمفسدين؛ كما كانت الأيام النحسات المذكورة في القرآن؛ نحسات على الكفار من قوم عادلاً على نبيهم والمؤمنين به منهم، وإذا كان كذلك لم يبعد أن يمهل الظالم من أوّل يوم الأربعاء إلى أن تزول الشمس، فإذا أدبر النهار ولم يحدث رجعة ٱستجيب دعاء المظلوم عليه، فكان اليوم نحساً على الظالم؛ ودعاء النبيّ ﷺ إنما كان على الكفار، وقول جابر في حديثه «لم ينزل بي أمر غليظ» إشارة إلى هذا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ﴾ في موضع الصفة للريح أي تَقْلَعهم من مواضعهم. قيل: قلعتهم من تحت أقدامهم ٱقتلاع النخلة من أصلها. وقال مجاهد: كانت تقلعهم من الأرض، فترمي بهم على رؤوسهم فتندقّ أعناقهم وتَبِين رؤوسهم عن أجسادهم. وقيل: تنزع الناس من البيوت. وقال محمد بن كعب عن أبيه قال النبيّ ﷺ: «ٱنتزعت الريح الناس من قبورهم». وقيل: حفروا حُفَراً ودخلوها فكانت الريح تنزعهم منها وتكسرهم، وتبقى تلك الحفر كأنها أصول نخل [قد][٢] هلك ما كان فيها فتبقى مواضعها منقعرة. ويروى أن سبعة منهم حفروا حفراً وقاموا فيها ليردُّوا الريح. قال ٱبن إسحق: لما هاجت الريح قام نفر سبعة من عاد سمي لنا منهم ستة من أشد عاد وأجسمها منهم عمرو بن الحلي والحرث بن شداد والهِلْقام وٱبنا تِقْن وخلجان بن سعد فأوْلجوا العيال في شِعب بين جبلين، ثم ٱصطفوا على باب الشِّعب ليردُّوا الريح عمن في الشِّعب من العيال، فجعلت الريح تَجْعَفهم[٣] رجلاً رجلاً، فقالت ٱمرأة من عاد:

ذهبَ الدهرُ بعمرو بـ ـن حليّ والهنيّات
ثم بالحرث والهِلْـ ـقامِ طَلّاعِ الثنيّات
والذي سدّ مهبّ الر يح أيام البليّات

(١) في ي: «المصلحين».
(٢) زيادة من ي.
(٣) جعفه: صرعه وضرب به الأرض.

الطبريّ: في الكلام حذف، والمعنى تنزع الناس فتتركهم كأنهم أعجاز نخل منقعر؛ فالكاف في موضع نصب بالمحذوف. الزجاج: الكاف في موضع نصب على الحال، والمعنى تنزع الناس مشبهين بأعجاز نخل. والتشبيه قيل إنه للحُفَر التي كانوا فيها. والأعجاز جمع عَجُز وهو مؤخر الشيء، وكانت عاد موصوفين بطول القامة، فشُبِّهوا بالنخل أنكبت لوجوهها. وقال: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ للفظ النخل وهو من الجمع الذي يذكّر ويؤنّث. والمنقعر: المنقلع من أصله؛ قعرت الشجرة قعراً قلعتها من أصلها فأنقعرت. الكسائي: قعرت البئر أي نزلت حتى أنتهيت إلى قعرها، وكذلك الإناء إذا شربت ما فيه حتى أنتهيت إلى قعره. وأقعرت البئر جعلت لها قعراً. وقال أبو بكر بن الأنباري: سئل المبرّد بحضرة إسماعيل القاضي عن ألف مسألة هذه من جملتها، فقيل له: ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾[1] و ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ[2] عَاصِفٌ﴾، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[3] و ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾؟ فقال: كلما ورد عليك من هذا الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيراً، أو إلى المعنى تأنيثاً. وقيل: إن النخل والنخيل بمعنًى يذكّر ويؤنث كما ذكرنا. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [تقدّم][4].

[٢٣] ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

[٢٤] ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

[٢٥] ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

[٢٦] ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ هم قوم صالح كذبوا الرسل ونبيهم، أو كذّبوا بالآيات التي هي النذر ﴿فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ﴾ وندع جماعة. وقرأ أبو الأشهب وأبن السَّمَيْقَع وأبو السَّمَّال العدويّ ﴿أَبَشَرٌ﴾ بالرفع ﴿وَاحِدٌ﴾ كذلك رفع بالابتداء والخبر ﴿نَتَّبِعُهُ﴾. الباقون بالنصب على معنى أنتبع بشراً منا واحداً نتبعه. وقرأ أبو السَّمَّال[5]:

---

(١) راجع ١١/ ٣٢١. (٢) راجع ٨/ ٣٢٥. (٣) راجع ١٨/ ٢٦١. (٤) من ب، ي.

(٥) هذه رواية أخرى عن أبي السمال كما في «روح المعاني» وغيره. وفي ب، ز، ول «أبو السماك» بالكاف وليس بصحيح.

﴿أَبَشَرٌ﴾ بالرفع ﴿مِنَّا واحِداً﴾ بالنصب، رفع ﴿أَبَشَرٌ﴾ بإضمار فعل يدل عليه ﴿أَؤُلْقِيَ﴾ كأنه قال: أينبأ بشر منّا، وقوله: ﴿وَاحِداً﴾ يجوز أن يكون حالاً من المضمر في ﴿مِنَّا﴾ والناصب له الظرف، والتقدير أينبأ بشر كائن منّا منفرداً؛ ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿نَتَّبِعُهُ﴾ منفرداً لا ناصر له. ﴿إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ﴾ أي ذهاب عن الصواب ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي جنون، من قولهم: ناقة مسعورة، أي كأنها من شدة نشاطها مجنونة، ذكره ٱبن عباس قال الشاعر يصف ناقته:

تَخالُ بها سُعْراً إذا السَّفْرُ هَزَّهَا ذَمِيلٌ وإيقاعٌ من السَّيْرِ مُتْعِبُ

[الذميل[1] ضرب من سير الإبل. قال أبو عبيد: إذا ارتفع السير عن العَنَق قليلاً فهو التّزيُّد، فإذا ٱرتفع عن ذلك فهو الذميل، ثم الرَّسيم؛ يقال: ذمَل يَذْمُل ويَذمِل ذميلاً. قال الأصمعي: ولا يَذمُل بعير يوماً وليلةً إلا مَهْرِيٌّ قاله ج]. وقال ٱبن عباس أيضاً: السُّعر العذاب، وقاله الفراء. مجاهد: بعد الحق. السديّ: في ٱحتراق. قال[2]:

أصحوتَ اليومَ أَمْ شَاقَتْكَ هِرّ ومِـنَ الْحُـبِّ جُنُـونٌ مُسْتَعِـرْ

أي متقد ومحترق. أبو عبيدة: هو جمع سعير وهو لهيب النار. والبعير[3] المجنون يذهب كذا وكذا لما يتلهب به من الحدّة. ومعنى الآية: إنَّا إذاً لفي شقاء وعناء مما يلزمنا.

قوله تعالى: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي خصص بالرسالة من بين آل ثمود وفيهم من هو أكثر مالاً وأحسن حالاً؟! وهو استفهام معناه الإنكار. ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي ليس كما يدّعيه، وإنما يريد أن يتعاظم ويلتمس التكبر علينا من غير ٱستحقاق. والأَشَر المَرَح والتَجَبُّر والنّشاط. يقال: فرس أَشِر إذا كان مرحاً نشيطاً؛ قال ٱمرؤ القيس يصف كلباً:

فيـدركنـا فَغِـمٌ داجِـنٌ سمِيـعٌ بصِيـرٌ طَلُـوبٌ نَكِـرْ[4]
أَلَصُّ[5] الضُّرُوسِ حَنِيُّ الضُّلُوعِ تَبُـوعٌ أَرِيـبٌ نَشيـطٌ أَشِـرْ

---

(١) زيادة من ب، هـ. (٢) هو طرفة. (٣) في أ، ز، ل: السعير.
(٤) الفغم: المولع بالصيد الحريص عليه. داجن: ألوف للصيد. ونكر أي منكر عالم. وقيل نكر أي كريه الصورة. (٥) الألص الذي التصقت أسنانه بعضها إلى بعض.

وقيل: ﴿أَشِرٌ﴾ بَطِر. والأَشَر البَطَر؛ قال الشاعر:

أَشِرْتُمْ بلُبْس الخَزِّ لمّا لَبِسْتُمُ ومِن قبلُ ما تَدْرُونَ مَنْ فَتَحَ الْقُرَى

وقد أشِر بالكسر يأشَر أَشَراً فهو أشِر وأَشْران، وقوم أشَارى مثل سَكْران وسُكَارى؛ قال الشاعر[1]:

وخَلَّـتْ وُعُـولاً أُشَـارَى بهـا وقـد أَزْهَـفَ الطَّعْـنُ أبطـالَهَـا

وقيل: إنه المتعدي إلى منزلة لا يستحقها؛ والمعنى واحد. وقال ابن زيد وعبد الرحمن بن حماد: الأشِر الذي لا يبالي ما قال. وقرأ أبو جعفر وأبو قِلابة ﴿أَشَرٌّ﴾ بفتح الشين وتشديد الراء يعني به أشرنا وأخبثنا. ﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً﴾ أي سيرون العذاب يوم القيامة، أو في حال نزول العذاب بهم في الدنيا. وقرأ ابن عامر وحمزة بالتاء على أنه من قول صالح لهم على الخطاب. الباقون بالياء إخبار من الله تعالى لصالح عنهم. وقوله: ﴿غَداً﴾ على التقريب على عادة الناس في قولهم للعواقب: إن مع اليوم غداً؛ قال:

للموتِ فيها سِهَامٌ غير مُخْطِئَةٍ مَنْ لم يكن مَيّتاً في اليومِ ماتَ غَدَا

وقال الطرِمَّاح:

أَلاَ عَلِّلاَنِـي قبـل نَـوْحِ النَّـوَائِـح وقَبْلَ اَضْطِرَابِ النَّفْسِ بَين الْجَوَانِحِ
وقبـلَ غَـدٍ يـا لَهْـفَ نفسِـي على غَـدٍ إذا راحَ أصحـابـي ولسـتُ بـرائـحِ

إنما أراد وقت الموت ولم يرد غداً بعينه. ﴿مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ وقرأ أبو قِلابة ﴿الأَشَرُّ﴾ بفتح الشين وتشديد الراء جاء به على الأصل. قال أبو حاتم: لا تكاد العرب تتكلم بالأَشَرّ والأَخْيَر إلا في ضرورة الشعر؛ كقول رؤبة:

بِـلاَلٌ خَيْـرُ النـاسِ وابْـنُ الأَخْيَـر

---

(١) هي مية بنت ضرار الضبي ترثي أخاها. وأزهف الطعن أبطالها أي صرعها. وقبل البيت:

تـراه علـى الخيـل ذا قـدمـة إذا سـربـل الـدم أكفـالهـا

وإنما يقولون هو خير قومه، وهو شر الناس؛ قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1] وقال: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً﴾[2]. وعن أبي حيوة بفتح الشين وتخفيف الراء. وعن مجاهد وسعيد بن جُبَير ضم الشين والراء والتخفيف، قال النحاس: وهو معنى ﴿الأشِر﴾ ومثله رجل حَذِر وحَذُر.

[٢٧] ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

[٢٩] ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾.

[٣٢] ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ أي مخرجوها من الهضبة التي سألوها، فروى أن صالحاً صلى ركعتين ودعا فانصدعت الصخرة التي عيونها عن سنامها، فخرجت ناقة عُشَراء [وبراء][3]. ﴿فِتْنَةً لَهُمْ﴾ أي اختباراً وهو مفعول له. ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ أي انتظر ما يصنعون. ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ أي اصبر على أذاهم، وأصل الطاء في اصطبر تاء فتحوّلت طاء لتكون موافقة للصاد في الإطباق. ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾: أي أخبرهم ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين آل ثمود وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم، كما قال تعالى: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ[4]﴾. قال ابن عباس: كان يوم شِربهم لا تشرب الناقة شيئاً من الماء وتسقيهم لبناً وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كلّه فلم تُبق لهم شيئاً. وإنما قال: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لأن العرب إذا أخبروا عن بني آدم مع البهائم غلّبوا بني آدم. وروى أبو الزبير عن جابر قال: لما نزلنا الحجر في مغزى رسول الله ﷺ تبوك، قال: «أيها الناس لا تسألوا في هذه الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم ناقة فبعث الله عز وجل

---

(١) راجع ٤/ ١٧٠. (٢) راجع ١١/ ١٤٤. (٣) في «الأصول» جرداء والذي في قصص الأنبياء للثعلبي وغيره من كتب التفسير «وبراء» فلذا أثبتناه. (٤) راجع ١٣/ ١٢٧.

إليهم الناقة فكانت تَرِد من ذلك الفجّ فتشرب ماءهم يوم وردها ويحلبون منها مثل الذي كانوا يشربون يوم غِبِّها» وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾. ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ الشِّرْب ـ بالكسر ـ الحَظ من الماء؛ وفي المثل: «آخرها أقلّها شِرْباً» وأصله في سقي الإبل، لأن آخرها يرد وقد نزِف الحوضُ. ومعنى ﴿مُحْتَضَرٌ﴾ أي يحضُره مَن هو له؛ فالناقة تَحضُر الماء يوم وِردها، وتغيب عنهم يوم وِردهم؛ قاله مقاتل. وقال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم غبِّها فيشربون، ويحضرون اللبن يوم وِردها فيحتلبون.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ يعني بالحضّ على عَقْرها ﴿فَتَعَاطَى﴾ عقرها ﴿فَعَقَرَ﴾ هَا ومعنى تعاطى تناول الفعل، من قولهم: عَطَوتُ أي تناولت؛ ومنه قول حسان:

كلْتَاهُمَا حَلَبُ العَصِيرِ فعَاطِنِي بـزجـاجـةٍ أرخـاهـمـا للمِفْصَـلِ

قال محمد بن إسحاق: فكمِن لها في أصل شجرة على طريقها فرماها بسهم فانتظم به عَضَلة ساقها، ثم شدّ عليها بالسيف فكشف عُرْقوبها، فخرّت ورغَت رُغاءةً واحدة تحَدّر سَقْبها من بطنها ثم نَحرها، وانطلق سَقْبها حتى أتى صخرة في رأس جبل فرغا ثم لاذ بها، فأتاهم صالح عليه السلام؛ فلما رأى الناقة قد عُقِرت بكى وقال: قد انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله. وقد مضى في ﴿الأعراف﴾[1] بيان هذا المعنى. قال ابن عباس: وكان الذي عقرها أحمر أزرق أشقر أكشف أقفى. ويقال في اسمه قُدَار بن سالف. وقال الأفوه الأَوْدى:

أو قَبْلَـه[2] كقُـدَارٍ حيـن تَـابَعَـهُ على الغِوَايةِ أقوامٌ فقد بادُوا

والعرب تسمِّي الجزّار قُدَاراً تشبيهاً بقُدَار بن سالف مشؤوم آل ثمود؛ قال مُهلهِل:

إنَّا لَنَضرِبُ بالسُّيُوفِ رُؤوسَهُمْ ضَـرْبَ القُـدَارِ نقِيعـةَ القُـدَّامِ[3]

---

(١) راجع ٧/ ٢٤١. (٢) الذي في شعراء النصرانية: «أو بعده». (٣) القدار: الجزار. والنقيعة: ما ينحر للضيافة. والقدام: القادمون من سفر جمع قادم. وقيل: القدام الملك. ويروى:

إنـــا لنضـــرب بـــالصـــوارم هـــامهـــم

وذكره زهير فقال:

فَتُنْتَجْ لَكُمْ غِلمانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ كأحمرِ عادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فتَفْطِمِ[1]

يريد الحرب؛ فكنَّى عن ثمود بعاد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يريد صيحة جبريل عليه السلام، وقد مضى في ﴿هود﴾[2]. ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية ﴿المحْتَظَر﴾ بفتح الظاء أرادوا الحظيرة. الباقون بالكسر أرادوا صاحب الحظيرة. وفي الصحاح: والمحتظِر الذي يعمل الحظيرة. وقرىء ﴿كَهَشِيمِ المحتظِر﴾ فمن كسره جعله الفاعل ومن فتحه جعله المفعول به. ويقال للرجل القليل الخير: إنَّه لنَكِدُ الْحظِيرَة. قال أبو عبيد: أراه سمى أمواله حظيرة لأنه حظرها عنده ومنعها، وهي فعيلة بمعنى مفعولة. المهدوي: من فتح الظاء من ﴿المحتظر﴾ فهو مصدر، والمعنى كهشيم الاحتظار. ويجوز أن يكون ﴿المحتظَر﴾ هو الشجر المتخذ منه الحظيرة. قال ٱبن عباس: ﴿المحتظِر﴾ هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك؛ فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم. قال:

أَثَرْنَ عَجاجةً كدخانِ نارٍ تشبّ بغَرْقَدٍ بالٍ هَشِيمِ

وعنه: كحشيش تأكله الغنم. وعنه أيضاً: كالعظام النخرة المحترقة، وهو قول قتادة. وقال سعيد بن جُبير: هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح. وقال سفيان الثوري: هو ما تناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصا، وهو فعيل بمعنى مفعول. وقال ٱبن زيد: العرب تسمِّي كل شيء كان رطباً فيبس هشيماً. والحظْر المنع، والمحتظر المفتعل يقال منه: ٱحتظر على إبله وحظر أي جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض ليمنع برد الريح والسباع عن إبله؛ قال الشاعر:

تَرَى جِيَفَ المَطِيِّ بجانبيه كأنّ عظامَها خَشَبُ الهَشِيمِ

---

(١) تنتج لكم يعني الحرب. «غلمان أشأم» في معنى غلمان شؤم أو كلهم في الشؤم كأحمر عاد. «ثم ترضع فتفطم» يريد أنه يتم أمر الحرب، كالمرأة إذا أرضعت ثم فطمت فقد تمت.

(٢) راجع ٩/٦١.

وعن ٱبن عباس: أنهم كانوا مثل القمح الذي ديس وهشم؛ فالمحتظر على هذا الذي يتخذ حظيرة على زرعه، والهشيم فُتات السنبلة والتبن. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾.

[٣٣] ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾.

[٣٤] ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

[٣٥] ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾.

[٣٦] ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾.

[٣٧] ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾.

[٣٨] ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾.

[٣٩] ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾.

[٤٠] ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ أخبر عن قوم لوط أيضاً لما كذّبوا لوطاً. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً﴾ أي ريحاً ترميهم بالحصباء وهي الحصى؛ قال النّضر: الحاصب الحصباء في الريح. وقال أبو عبيدة: الحاصب الحجارة. وفي «الصحاح»: والحاصب الريح الشديدة التي تثير الحصباء وكذلك الحَصِبة؛ قال لَبِيد:

جَرَّتْ عليها أَنْ خَوَتْ مِن أهلَها ... أذيالَها كُلُّ عَصُوفٍ حَصِبَهْ

عصفت الريح أي ٱشتدّت فهي ريح عاصفٌ وعَصُوف. وقال الفَرَزْدق:

مستقبلين شمالَ الشام تَضرِبُنَا ... بحاصبٍ كنَديفِ القُطْنِ منثورِ

﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ﴾ يعني من تبعه على دينه ولم يكن إلا بنتاه ﴿نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ قال الأخفش: إنما أجراه لأنه نكرة، ولو أراد سَحَر يوم بعينه لما أجراه، ونظيره: ﴿ٱهْبِطُوا مِصْراً﴾[1] لما نكّره، فلما عرّفه في قوله: ﴿ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ[2] اللَّهُ﴾ لم يُجْرِه، وكذا قال الزجاج: ﴿سحر﴾ إذا كان نكرة يراد به سحَر من الأسحار يصرف، تقول أتيته سحراً، فإذا أردت سحر يومك

(١) راجع ١/٤٢٩. (٢) راجع ٩/٢٦٣.

لم تصرفه، تقول: أتيته سَحَريا هذا، وأتيته بسحر. والسَّحَرُ: هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر، وهو في كلام العرب ٱختلاط سواد الليل ببياض أوّل النهار؛ لأن في هذا الوقت يكون مخاييل الليل ومخاييل النهار. ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ إنعاماً منّا على لوط وٱبنتيه؛ فهو نَصْب لأنه مفعول به. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ أي من آمن بالله وأطاعه. ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ يعني لوطاً خوّفهم ﴿بَطْشَتَنَا﴾ عقوبتنا وأَخْذنا إياهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي شَكُّوا فيما أنذرهم به الرسول ولم يصدّقوه، وهو تفاعل من المِرْية. ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ أي أرادوا منه تمكينهم ممن كان أتاه من الملائكة في هيئة الأضياف طلباً للفاحشة على ما تقدّم[١]. يقال: راوَدْته على كذا مُرَاوَدةً ورِوَاداً أي أردتُه. وراد الكلأ يروده رَوْداً ورِياداً، وٱرْتَادَه ٱرتياداً بمعنًى أي طلبه؛ وفي الحديث: «إذا بال أحدكم فلْيَرْتَدْ لِبوله» أي يطلب مكاناً ليناً أو منحدراً. ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ يروى أن جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه فَعمُوا. وقيل: صارت أعينهم كسائر الوجه لا يرى لها شقّ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفي عليها من التراب. وقيل: لا، بل أعماهم الله مع صحة أبصارهم فلم يروهم. قال الضحاك: طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل؛ فقالوا: لقد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا؟ فرجعوا ولم يروهم. ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فقلنا لهم ذوقوا، والمراد من هذا الأمر الخبر؛ أي فأذقتهم عذابي الذي أنذرهم به لوط. ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ أي دائم عام ٱستقر فيهم حتى يفضي بهم إلى عذاب الآخرة. وذلك العذاب قَلْب قريتهم عليهم وجعل أعلاها أسفلها. و ﴿بُكْرَةً﴾ هنا نكرة فلذلك صرفت. ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ العذاب الذي نزل بهم من طمس الأعين غير العذاب الذي أهلكوا به فلذلك حسن التكرير. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [تقدم][٢].

[٤١] ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ ﴾.

[٤٢] ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾.

(١) راجع ٩/ ٧٣. (٢) زيادة من ى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ يعني القبط و ﴿النُّذُرُ﴾ موسى وهارون. وقد يطلق لفظ الجمع على الاثنين. ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ معجزاتنا الدالة على توحيدنا ونبوّة أنبيائنا؛ وهي العصا، واليد، والسّنون، والطمسة، والطوفان، والجراد والقمّل، والضفادع، والدم. وقيل: ﴿النُّذُرُ﴾ الرسل؛ فقد جاءهم يوسف وبنوه إلى أن جاءهم موسى. وقيل: ﴿النُّذُرُ﴾ الإنذار. ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي غالب في ٱنتقامه ﴿مُقْتَدِرٍ﴾ أي قادر على ما أراد.

[٤٣] ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

[٤٤] ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

[٤٥] ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

[٤٦] ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾.

قوله تعالى : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أولَئِكُمْ ﴾ خاطب العرب . وقيل : أراد كفار أمّة محمد ﷺ . وقيل : ٱستفهام ، وهو ٱستفهام إنكار ومعناه النفي ؛ أي ليس كفاركم خيراً من كفار من تقدّم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم . ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ أي في الكتب المنزلة على الأنبياء بالسلامة من العقوبة . وقال ٱبن عباس : أم لكم في اللوح المحفوظ براءة من العذاب . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ أي جماعة لا تطاق لكثرة عددهم وقوتهم ، ولم يقل منتصرين ٱتباعاً لرؤوس الآي ؛ فرد الله عليهم فقال: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ أي جمع كفار مكة، وقد كان ذلك يوم بدر وغيره. وقراءة العامة ﴿ سَيُهْزَمُ ﴾ بالياء على ما لم يسم فاعله ﴿الْجَمْعُ﴾ بالرفع . وقرأ رُوَيس عن يعقوب ﴿سَنَهْزِمُ﴾ بالنون وكسر الزاي ﴿الْجَمْعَ﴾ نصباً . ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر عنهم . وقرأ عيسى وٱبن إسحاق ورُوَيس عن يعقوب ﴿وَتُوَلُّونَ﴾ بالتاء على الخطاب . و ﴿ الدُّبُرَ ﴾ ٱسم جنس كالدرهم

والدينار فوحّد والمراد الجمع لأجل رؤوس الآي. وقال مقاتل: ضرب أبو جهل فرسه يوم بدر فتقدّم من الصّف وقال: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه؛ فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. وقال سعيد بن جبير قال سعد بن أبي وقّاص: لما نزل قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ كنت لا أدري أي الجمع ينهزم، فلما كان يوم بَدْر رأيت النبيﷺ يَثِب في الدرع ويقول: اللهم إن قريشاً جاءتك تُحَادُّك وتُحادُّ رسولَك بفخرها و [خُيَلائها][1] فأخنهم الغداةَ ـ ثم قال ـ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فعرفت تأويلها. وهذا من معجزات النبيّﷺ ؛ لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر. أخنى عليه الدهر: أي أتى عليه وأهلكه، ومنه قول النابغة:

أَخْنَـى عليـه الـذي أَخْنَـى علـى لُبَـدِ

وأخنيت عليه: أفسدت. قال ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين؛ فالآية على هذا مكية. وفي «البخاري» عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: لقد أنزل على محمدﷺ بمكة وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾. وعن ابن عباس أن النبيّﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «أَنْشُدُكَ عهدَك ووعدَك اللّهم إن شئت لم تُعبدْ بعدَ اليوم أبداً» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال: حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك؛ وهو في الدّرْع فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ يريد القيامة. ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ أي أدهى وأمرّ مما لحقهم يوم بدر. و ﴿أَدْهَى﴾ من الداهية وهي الأمر العظيم؛ يقال: دهاه أمر كذا أي أصابه دهواً ودهياً. وقال ابن السكيت: دهته داهية دهواء ودهياء وهي توكيد لها.

---

(١) في «الأصول»: «بخيلها» وهو تحريف والتصويب من سيرة ابن هشام.

[٤٧] ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

[٤٨] ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

[٤٩] ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ﴾ أي في حَيْدةٍ عن الحق و ﴿سُعُرٍ﴾ أي آحتراق. وقيل: جنون على ما تقدّم في هذه السورة. ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القَدَر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ خرجه الترمذي أيضاً وقال: حديث حسن صحيح. وروى مسلم عن طاوس قال: أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقَدَر. قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال النبيّ ﷺ: «كلُّ شيءِ بقَدر حتى العَجْز والكَيْس ـ أو ـ الكَيْس والعَجْز» وهذا إبطال لمذهب القدَرية. ﴿ذُوقُوا﴾ أي يقال لهم ذوقوا، ومسّها ما يجدون من الألم عند الوقوع فيها. و ﴿سَقَرَ﴾ آسم من أسماء جهنم لا ينصرف؛ لأنه آسم مؤنث معرفة، وكذا لَظَى وجهنم. وقال عطاء: ﴿سَقَرَ﴾ الطبق السادس من جهنم. وقال قُطْرب: ﴿سَقَرَ﴾ من سَقَرته الشمسُ وصَقَرته لَوّحتْه. ويوم مُسَمْقِرٌ ومُصَمْقِرٌ: شديدُ الحرّ.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ قراءة العامة ﴿كُلَّ﴾ بالنصب. وقرأ أبو السَّمَّال ﴿كُلُّ﴾ بالرفع على الابتداء. ومن نصب فبإضمار فعل وهو آختيار الكوفيين؛ لأن إنّ تطلب الفعل فهي به أولى، والنصب أدلّ على العموم في المخلوقات لله تعالى؛ لأنك لو حذفت ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ المفسّر وأظهرت الأوّل لصار إنا خلقنا كلّ شيء بقدر. ولا يصح كون خلقناه صفة لشيء؛ لأن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف، ولا تكون تفسيراً لما يعمل فيما قبله.

الثالثة - الذي عليه أهل السنة أن الله سبحانه قدّر الأشياء؛ أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه، فلا يحدث حدث في العالم العلويّ والسفليّ إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع ٱكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه، سبحانه لا إلٰه إلا هو، ولا خالق غيره؛ كما نص عليه القرآن والسنة، لا كما قالت القدَريّة وغيرهم من أن الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا. قال أبو ذَرّ رضي الله عنه: قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ فقالوا: الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا؛ فنزلت هذه الآيات إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ فقالوا: يا محمد يكتب علينا الذنب ويعذبنا؟ فقال: «أنتم خصماء الله يوم القيامة».

الرابعة - روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مجوس هذه الأمة المكذّبون بأقدار الله إن مرِضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم وإن لقيتموهم فلا تسلّموا عليهم». خرجه ٱبن ماجه في سننه. وخرج أيضاً عن ٱبن عباس وجابر قالا: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي ليس لهم في الإسلام نصيب أهل الإرجاء والقَدَر». وأسند النحاس: وحدّثنا إبراهيم بن شريك الكوفي قال حدّثنا عقبة بن مكرم الضّبـي قال حدّثنا يونس بن بكير عن سعيد بن ميسرة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «القدَريّة الذين يقولون الخير والشر بأيدينا ليس لهم في شفاعتي نصيب ولا أنا منهم ولا هم منّي» وفي «صحيح مسلم» أن ٱبن عمر تبرأ منهم ولا يتبرأ إلا من كافر، ثم أكد هذا بقوله: والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحُد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقَدَر. وهذا مثل قوله تعالى في المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾[1] وهذا واضح. وقال أبو هريرة: قال النبيّ ﷺ: «الإيمان بالقدر يذهب الهمّ والحزن».

---

(١) راجع ٨/١٦٣.

[٥٠] ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾.

[٥١] ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١﴾.

[٥٢] ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢﴾.

[٥٣] ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾.

[٥٤] ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤﴾.

[٥٥] ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنا إِلاَّ وَاحِدَةٌ﴾ أي إلا مرة واحدة. ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ أي قضائي في خلقي أسرع من لَمْح البصر. واللَّمح النظر بالعَجَلة؛ يقال: لَمَحَ البرقَ ببصره. وفي الصحاح: لمحه وألمحه إذا أبصره بنظر خفيف، والاسم اللمحة، ولَمَحَ البرقُ والنجمُ لَمْحاً أي لَمع.

قوله تعالى: ﴿وَلَقدْ أَهْلَكْنا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي أشباهكم في الكفر من الأمم الخالية. وقيل: أتباعكم وأعوانكم. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أي من يتذكر.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أي جميع ما فعلته الأمم قبلهم من خير أو شر كان مكتوباً عليهم؛ وهذا بيان قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدرٍ﴾. ﴿في الزُّبُرِ﴾ أي في اللوح المحفوظ. وقيل: في كتب الحفظة. وقيل: في أم الكتاب. ﴿وكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ أي كل ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله قبل أن يفعله[١] ليجازى به، ومكتوب إذا فعله؛ سَطَرَ يَسْطُرُ سَطْراً كَتَب؛ واسْتَطَر مثله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهرٍ﴾ لما وصف الكفار وصف المؤمنين أيضاً. ﴿وَنَهَرٍ﴾ يعني أنهار الماء والخمر والعسل واللّبن؛ قاله ابن جريج. ووحد لأنه رأس الآية، ثم الواحد قد ينبىء عن الجميع. وقيل: في ﴿نَهَرٍ﴾ في ضياء وسَعة؛ ومنه النهار لضيائه، ومنه أنهرت الجرح؛ قال الشاعر[٢]:

مَلكتُ بها كَفِي فأنهرتُ فَتقَها   يَرَى قائمٌ من دونها ما وراءَها

---

(١) في ب، ح، س، هـ: «قبل أن يفعلوه ليجازوا ومكتوب إذا فعلوه».

(٢) هو قيس بن الخطيم يصف طعنة. وملكت أي شددت وقويت.

وقرأ أبو مِجْلَز وأبو نهيك والأعرج وطلحة بن مصرِّف وقتادة ﴿وَنُهُرٍ﴾ بضمتين كأنه جمع نهار لا ليل لهم؛ كسحاب وسُحُب. قال الفراء: أنشدني بعض العرب:

إنْ تَـكُ ليليًّـا فـإنِّـي نَهِـرُ مَتَـى أَرى الصُّبـحَ فـلا أَنتَظِـرُ

أي صاحب النهار. وقال آخر:

لَوْلا الثَّرِيدَانِ هَلَكْنا بالضُّمُرْ ثَـرِيـدُ ليْـلٍ وثَـرِيـدٌ بـالنُّهُـرْ

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي مجلس حقّ لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ أي يقدر على ما يشاء. و ﴿عِنْدَ﴾ هاهنا عندية القُربة والزلفة والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة. قال الصادق: مدح الله المكان الصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق. وقرأ عثمان البَتّي ﴿فِي مَقَاعِدِ صِدْقٍ﴾ بالجمع؛ والمقاعد مواضع قعود الناس في الأسواق وغيرها. قال عبد الله بن بريدة: إن أهل الجنة يدخلون كل يوم على الجبار تبارك وتعالى، فيقرؤون القرآن على ربهم تبارك وتعالى، وقد جلس كل إنسان مجلسه الذي هو مجلسه، على منابر من الدرّ والياقوت والزبرجد والذهب والفضّة بقدر أعمالهم، فلا تَقرَّ أعينهم بشيء قط كما تَقَرّ بذلك، ولم يسمعوا شيئاً أعظم ولا أحسن منه، ثم ينصرفون إلى منازلهم، قريرة أعينهم إلى مثلها من الغد. وقال ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان: بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون: يا أولياء الله ٱنطلقوا؛ فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة؛ فيقول المؤمنون: إنكم تذهبون بنا إلى غير بُغْيتنا. فيقولون: فما بغيتكم؟ فيقولون: مقعد صدق عند مليك مقتدر. وقد روي هذا الخبر على الخصوص بهذا المعنى؛ ففي الخبر: أن طائفة من العقلاء بالله عز وجل تزفها الملائكة إلى الجنة والناس في الحساب، فيقولون للملائكة: إلى أين تحملوننا؟ فيقولون إلى الجنة. فيقولون: إنكم لتحملوننا إلى غير بغيتنا؛ فيقولون: وما بغيتكم؟ فيقولون: المقعد الصدق مع الحبيب كما أخبر ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ ملِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾. والله أعلم.

تم تفسير سورة ﴿القمر﴾ والحمد لله